

# ملیكة أوفقییر الغریبة

En3aM  
[www.rqwily.com](http://www.rqwily.com)

ترجمة حسین عمر

خرجت مليكة أوفقيز إلى الحرية،  
بعد عشرين عاماً من السجن. لم تكن  
مواجهة هذه الحرية بعد هذا الانقطاع  
الطويل بالأمر الهين.

ليس من السهل أن تعيش في عمر  
الأربعين، مع من هم في سنك،  
وكانت عشت مثلهم، فيما أنت  
قضيت 20 عاماً منها في السجن.

ما عاد شيء كما كان، لا  
الأصدقاء، ولا اللغة المشتركة، ولا  
سائق التاكسي، ولا السوبر ماركت،  
ولا طريقة الحصول على الماء، ولا  
صرفه.

إنها حياة جديدة، لا يمكنها أن  
تنسى أو أن تتجاوز 20 عاماً من  
الغياب، وأيضاً لا يمكنها أن تعيش  
بعشرين عاماً إلى الوراء.

En3aM  
www.r2wity.com

7a9reya 3ala montada erwity

الغريبة

مليكه أوفقير

En3aM  
www.r2witg.com

# الغريبة

ترجمة: حسين عمر



الكتاب: الغريبة

المؤلف: مليكة أوفقير

المترجم: حسين عمر

الغلاف: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت

هاتف وفاكس : 03 / 728365 - 03 / 728471 - 00961/1 / 471357

E-mail: kansopress@hotmail.com

kansopress@yahoo.com

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

سنة الطبع: 2007

:

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

إلى ذكرى سعيدة منبهي

En3aM  
[www.rgwity.com](http://www.rgwity.com)

العنوان الأصلي للكتاب:

MALIKA OUFKIR

# L'ÉTRANGÈRE

*Préface de Michèle Fitoussi*

© editions Grasset & Fasquelle, 2006.



## مقدمة

رَنَ الهاتف نحو الساعة السابعة مساءً. عرفتُ في الحال، أنها

ملكية.

أو كيكًا، بالنسبة لمن يتوهمها.

تستطيع ملكية الاتصال في ساعة تشاء، كما لو أننا  
الفرقنا في الأمس: إنها في باريس لبضعة أيام، وستعود إلى ميامي  
لنعيش هناك بعد الآن، ستقلع إلى نيويورك ومراكش ولوس  
الجلس...

استأنفنا في الحال حديثاً متصلاً منذ ما يقارب تسعة  
أعوام. ثمة الكثير من الأمور التي يجب أن نقال. بدأنا بأخبار  
عائلتي وزوجينا وأطفالي ونوال ابنتها بالتبني. ثم أخذتنا  
الثرثرة. عن حياتها الجديدة في الولايات المتحدة، وعن أصدقائنا  
المشتركون، وعمّا يشغلنا راهنا.

تبادلنا الحديث فيما يشغلنا حالياً، وتبادلنا المشورة، كما  
تمازحنا كثيراً. لملكية روح الدعابة وميل واضح إلى السرد  
الساخر، وهي دائماً مهياة لأن تستخر من كل شيء، وخاصة من  
نفسها.

في ذلك المساء، هتفت لي من المغرب. من عادتها، حينما  
يكون لديها خبرٌ لتبلغني به، أن

تستخدم أسلوب المداورة على طريقة المرأة الشرقية. وتعود

إلى جاندا وحدها، طبعاً.

حسين

En3aM  
www.rzwity.com

إلى جذور الإنسانية. « سأحدثك عن ليلى... ولكن في البداية، لا بد من معرفة أنه كان لجذها عيان خضراوان وكبرياء رجس من الصحراء... » ومضت ساعات وهي في سرد تكمن أهميته بطريقتها في تدبير الوقائع وفي جعل مستمعها في حالة انتظار وترقب.

خلال أحاديثنا، فاجأنا بأن تستعجل ورجوها أن نقتصر بالوقائع. « Only facts »، مثلما رددت عليها سندس صديقتها الوفية. لم تبال ملكية بذلك. كانت، مثل شهرزاد، تؤد أن تأخذ وقتها الكافي. كانت بحاجة لأن تتناول وجبتها بانتظام. طبق أول مشهي، طبق رئيسي، تحلية، قهوة، مهنضات. أي على النقيض تماما من طريقتنا في العيش على الوجبات السريعة، التي تنفر منها.

جعلتها أصولها وتربيتها ومن ثم لمدة سجنها الطويلة جدا أن تعرف عن مفهوم الساعات، وعن صيغة الأمر « حالا ». كثيرا ما مرت السنون وقلمنا تملكها الرغبة في الامتنال لها. مع ذلك، كانت، في ذلك المساء، تختصر الكلام. ذهبت مباشرة إلى الهدف أو كادت. قلت في نفسي أن الأمر هام. وقد صح ظني.

- ميشيل، هناك خبر عظيم. لقد تبينا صبيًا صغيراً. يدعى آدم. عمره أربعة أشهر.

سمعت صوتها يرتعش. أحسست أنها على وشك أن تذرف الدموع، وشعرت بدموعي تنمو في مآقي. ساد الصمت بيننا

المصطبات. لم ينقطع الخط بين مراكش وباريس، ولكن جرى فيه الكثير من الانفعال. لطالما تملكها الرغبة في إنجاب طفل، كان ذلك بالنسبة إليها بمثابة جرح لا يندمل. في بداية فترة اعتقالها، أراد فيها التهايب في الصفاق عاقبة فظيعة، بعد أن كاد يودي بحياتها لانعدام الاهتمام والرعاية. لم تتمكن ملكة من تحقيق أمنياتها الأعلى: أن تمتح الحياة. ومع ذلك، بذلت كل ما

لا زلت أذكر هيتها الشاحبة، بعد ظهيرة كل يوم من تلك الأيام من سنة 1998، حينما كانت تأتي إلى بيتي هاربة من ماضيها كسجينة. كانت تذهب كل صباح تقريبا إلى المستشفى في محاولة منها لتحدي الطبيعة بجراحات من الأدوية كانت تملكها. بيد أن كل محاولاتها باءت بالفشل. كان يلزمها الكثير من الوقت و القوة العنوية لتقتنع بأنها لن تُرزق بأطفال.

طبعاً، هناك نوال إلى جانبها، نوال ابنة أختها العزيزة، التي تعيها كابتها. لدى وصولها إلى باريس، عام 1997، وجدت مريم، أختها الصغرى التي كانت تعاني من نوبات صرع عيفة، أنه من المستحيل أن تربي بمفردها الطفلة البالغة سنتين من عمرها. وكان والد الطفلة قد عاد حينها إلى المغرب ليعيش فيها. وشعرت مريم، بصحتها الضعيفة، بلا عمل ولا مال، أن لا حول لها ولا قوة.

أخذت ملكة الصغرة إلى بيتها، بموافقة زوجها ايريك. فمكنت نوال عندها. بحيث يشكلون اليوم عائلة حقيقية. يقفون معا في مياي، «لأن السماء دائمة الزرقة هناك»، بهذه

العبارة برزت لي مليكة سفرها. نورٌ لطالما حُرمت منه عائلة أوفقير خلال كل تلك السنوات المظلمة.

سيأتي آدم ليتم سعادتهم. فهو الطفل الذي حُرمت منه طويلاً. طفلٌ يخصّها. لأن نوال، وإن كانت عزيزة جداً على قلبها، لديها أبوان: فاما مريم، حتى وإن لم تكن دائماً إلى جانب ابنتها، تبقى قريبة ومحبة لها.

استرجعتُ في ذاكرتي وأنا أستمع إليها تكلمني بكثير من الحبّ والسعادة عن هذا الصبي، الذي يملأ حياتها، كل الطريق التي سلّكت منذ تلاقى قُدُرانا قبل تسع سنوات.

كانت تلك مغامرة غير مألوفة بقدر ما كانت غير متوقّعة. Stolen Lives في الولايات المتحدة، Die Gefangene في ألمانيا، La Prisonera في إسبانيا أو Printesa Captiva في رومانيا... لقد فتنت رواية السجينة، التي تروي قصتها المذهلة، ببرجائها التي تقارب الثلاثين، ما يقارب مليون قارئٍ في العالم.

لم يراودنا الظنّ في ذلك المساء من آذار 1997، حينما التقينا في بيت صديقتنا المشتركة ثريا التي أقامت حفلة استقبال بمناسبة رأس السنة الإيرانية الجديدة.

تحبّ ثريا الاستقبال في مسكنها الفسيح الكائن في نوبي. حفلاتها ساحرة، يتكلم المشاركون فيها الفرنسية والفارسية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية... ونلتقي فيها — golden boys — وبمئتين إيرانيين وأبنائهم ونساءهم بناية فائقة وبالكثير من النساء الحسان.

جلست واحدة منهم برزانة، وصمت، إلى حافة حلبة الرقص... لاشكّ أنّها كانت تودّ الاختلاط بالآخرين لكنّ شيئاً ما كان يمنعها عن ذلك. شعرتُ بها مغتمةً كتيبة. أشارت لي فاضلي وفضولي ولم أكفّ عن التفرّس فيها.

— هذه مليكة أوفقير، أرايت من تكون؟ همست لي سوز، وهي عازمة إيرانية تربطني بها صداقة طويلة الأمد.

لعبت سوز، الحسنة الطويلة السمراء المندفعة، دوراً هاماً في هذه الحكاية. إنّها هي التي جعلتنا نلتقي بعد ذلك بمدة وجيزة، مثل الجنيّة الخارجة من قنديل زيت. في الشرق، لا يوجد مصادفة، القدر هو ما يقرّر. في ذلك المساء، ستكون سوز هي وسيط «المكتوب». ما قالته لي للتو جعلني فمب التأمّل والفكر.

طبعاً، عرفتُ من تكون المرأة الشابة الحزينة. إنّها الابنة البكر للجنرال محمد أوفقير، صاحب محاولة انقلابية ضدّ عاهل المغرب، الحسن الثاني، في 16 آب 1972، والذي كان حينذاك وزير دفاعه ورئيس أركان جيشه.

فشلت المحاولة. مات الجنرال أوفقير، أعدم بخمس رصاصات في جسده. بعد الحداد الرسمي، أُرسلت عائلة أوفقير، فاطمة زوجة الجنرال وأطفالها الستة ومنهم مليكة البكر التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وعبد اللطيف أصغرهم الذي بالكاد بلغ الثالثة، إلى أعماق الصحراء، ليقبّعوا في سجونٍ فظيعة لا إنسانية. أريدُ لهم الموت فيها مجتمعين.



لقد حُسِبَ ذلك بمعزل عن إرادتهم في الحياة التي كادت تكون مشتركة بينهم. بعد خمسة عشر عاماً، تخلصوا من قدرهم في نهاية فرار مذهل، جعل هذه المزق المتضورة جوعاً والحكومة من قبل حاكمٍ مستبدٍ تبعثُ من الظلِّ والظلمة. كما قضت العائلة خمس سنوات تحت الإقامة في مراكش، عوملت خلالها على نحوٍ أفضل، ولكنها ظلت مأسورة.

في عام 1991، وبعد عشرين عاماً من الأسر، عجل نشر رسالة الناقدة جيل بيرو الناقدة "صديقنا الملوك" في إطلاق سراحهم. وقد احتاجوا إلى خمس سنوات إضافية ليحصلوا على جوازات سفرهم ويغادروا المغرب، بعد فرار خياليٍّ ثانٍ، قامت به هذه المرة، على متن سفينةٍ، ماريا إحدى شقيقات مليكة الصغيرات.

عشرون عاماً. حياة واحدة. انقبض قلبي لرؤية مليكة وسط تلك الحجرة الفسيحة، تحاول عفوياً أن ترقص ثم تعذل عن رأيها، وقد بدا عليها التأثر والخلج أيضاً. كلما اشتدت الموسيقى وبات أكثر طرباً، كلما رنوت إليها دون علمها، وأسرتني حزناً العميق.

آنذاك دخلت سوز المسرح جدياً. انتظرت إلى أن جلست مليكة ثم قادني نحوها.

وكانت صعقة الحب، صعقة القلب، لنسم ذلك كما نشاء. ولدت صداقة للتو. لأنها كانت مليكة ولأنتي كنتُ ميشيل، كما سنقول فيما بعد صاحكتين. في الحال، شعرنا

بذلك بلذات الفيس من الودِّ والانجذاب المتبادلين، وإن لم يقال أي حديث، عدا الترهات، كانت عيوننا تتبادل الكلمات والابتسامات.

ميشيل صحفية وكاتبة، تابعت سوز. مليكة، إذن، الهار. مليكة أوفقيير.

رسمت نظرة ثانية ومصادفة ذلك التواطؤ الوليد بيننا. أدركنا زحلاً، اللذان كانا حاضرين معنا في ذلك المساء، حديثاً وحتى دون أن يتداولوا مع بعضيهما - لم يكونا قد ناعرا بعد - أهمية ذلك اللقاء في حياة كلتينا الخاصة.

لدى انصرافنا من سهرة ثريا، تبادلنا أرقام هاتفي.

أحدني رفيقها إريك جانباً. أغرستني في الحال نظرتيه الماكورة من خلف نظارتيه الصغيرتين المدوّرتين، وابتسامته الودية ومصادفته الحارة.

قال:

أتصلب بها. إنها لا تعرف الكثير من الناس في باريس. فسنسلم للأفكار اغترية وحيدة في البيت. وأنا أعمل طيلة النهار.

لدى عودتي إلى البيت، لم أتم تلك الليلة. لازمني وجه مليكة الحسن. طرحت على نفسي ألف سؤال. ما الذي ألمَّ بها؟ كيف يشعر المرء بنفسه، حينما يبعث، حياً، من سرداب الدفن؟ مَرَّتْ رُؤْيَ مَرْعَةٍ في عَمَلِي. قَرَأْتُ مَقَالَاتٍ عَنْ

قصتهم، على فترات متباعدة، لا سيما في فترة فرارهم. كان فصل من كتاب جيل بيرو مكرساً لهم، ولكنّ الشهادات التي رواها، وهذا ما سأعرفه لاحقاً، غالباً ما كانت غير دقيقة. كانت الحقيقة أصعب من ذلك بألف مرة.

استولت حكايتها على كياني. أردتُ أن قصصها عليّ من البداية وحتى النهاية، أردتُ أن أعرف أدقّ تفاصيلها وأردتُ أن أكتبها معها. اختلط كلّ شيء في داخلي: الإثارة الصحافية والزوع إلى ما هو غيالي واهتمام الكائن البشري بهذا القدر الغريب. ثمّ أن المرأة أثرت فيّ، أثرت فيّ للغاية.

لكنني لن أنجزاً قط على سؤاها عن ذلك. لأنه قد يكون نكثاً بالتوازن الفشّ الذي أقيم بيننا ذلك المساء. أرسلتُ إليها مؤلفاتي، على أملٍ أن تُعجبها وأن تشهد ضمناً على جداتي.

بعد بضعة أيام، سمعتُ صوتها الواهن عبر الهاتف. ومن خلال لحظات صمتها، شعرتُ بما تعانين من كربٍ وأسى. إنها في باريس منذ ما يقارب ثمانية أشهر، تسكن في الدائرة الثالثة عشر في بيت إيريك. قلماً تخرج منه ودائماً بصحته. تُخفيها المدينة الكبيرة. كانت سجنينة، ولا تزال كذلك في مخبئها، في سلوكها اليومي، على الرغم من الحرية المطلقة التي قدّمت لها. لم تكن نوال، ابنة أختها، قد دخلت حياتها بعد. ولمنظمة الوقت، كانت تشاهد التلفاز أو أفلام الفيديو.

اقترحتُ عليها أن تناول الغداء معاً. ووافقت في الحال، بعد ذلك بيومين، وأنا أجلس إلى المائدة رفقة مليكة،

أوركتُ على الفور بأنني لم أغدع بها. هذه المرأة التي تأكل السلطة بطرف شفتيها وبطريقة غاية في الرقة أكاديمية متميّزة. أوركتُ شخصيتها الفريدة وذكاها الوقاد وتأهبها الدائم وطرفها و«شامة الجنون» تلك التي تمنحها قطعاً مكانة خاصة.

إنها هي من ستقترح عليّ كتابة ذلك الكتاب معها، بعد أن روت لي جانباً كاملاً عن طفولتها والذي كنتُ أجهله ويعرفه القليل من الناس. في الخامسة من عمرها، جرى تبني مليكة من قبل الملك محمد الخامس، لتكون إلى جانب ابنته الصغرى الأميرة للأمانة التي كانت تصغرها بسنة.

عند موت الملك، تكفل الملك الشاب الحسن الثاني بالطفلين. وستعيش مليكة أحد عشر عاماً بعيدة عن أسرهما، بين الفيلال حيث تعتنى مربية ألزاسية بالفاتنتين الصغورتين بقبضة حديدية، والقصر حيث يرعاها العاهل الجديد بلطف مع عطف وصرامة أبوين. قلماً كان ينشغل عنهما: بين حرم الخطبات ولعبة الغولف والفروسية والأسفار والحفلات، تلقت مليكة تربية أميرة حقيقية. مع ذلك، ومع كلّ ما كانت عليه من دلال، فإن القفص قصص، ليس سجنًا ولكنه حجز للحرية. في السادسة عشرة من عمرها، توسّلت مليكة إلى الملك كي يفتح باب القفص. اشتاق ذورها إليها كثيراً. فوافق الملك. سندوق الفتاة الشابة لأول مرة، ولمدة عامين فقط، عذوبة العيش في كنف عائلة حقيقية. مع أخوة وأخوات كانت لا يعرفهم حتى هذه اللحظة، وأمّ كانت مولعة بها، اشتاقت إليها أشدّ الاشتياق أثناء غيابها، وأب قلماً أخافها سلطته التي



كادت أن تكون مطلقة. لقد وجدت نفسها من خلال نفسها، وهي المتعلقة داخل حياة تكتم حدودها والزاماتها على أنفاسها.

بعد محاولة الانقلاب، واجهت مليكة مأزقاً مؤلماً. فوالدها البيولوجي حاول قتل والدها بالتبني، والذي، بالمقابل، قتل الأول، وأرسل، في حالة هيجانه، مليكة لنفع في السجن مع كل أسرها.

كانت مليكة تحب بشغف هذين الرجلين. لا يمكنها أن تختار بينهما ولا أن تكرههما على الرغم مما ألم بها. حينما تفكر بالملك الحسن الثاني طيلة سنوات الحبس الطويلة تلك، لا تقدم على الوثوق بأحد. يبدو لها أنها ستخون زوجها لو أنها فكرت به بمحبة. فهم لا يرون فيه سوى جلاّد. تتحسر مليكة على الرجل الذي رعاها.

القدر الفريد للمليكة يرفعها، رغمًا عنها، إلى مصاف بطلة لتراجيديا قديمة. المرأة، الحيانة، الموت السيئ، الانتقام، القسوة: هذه الأحداث الطارئة التي تلبس رآكتها من زمن آخر صاغت صيرورة حياتها. كانت اتحكم للكيّة مسرّحاً لمآسٍ فات منطقها معظم القانونين. سحرفي كل ما روت في عن ذلك، ولا زلت لا أعرف سوى بدايات مسيرتها.

طالت فترة الغداء. لم تعد لدي رغبة في الرحيل. تتقن مليكة لعب جميع الأدوار، وجميع الشخص. تكون بالتناوب امرأة مسنة أو طفل، تنتقل من الضحك إلى البكاء والعبرات في أقل من لحظة.

لقد سبق وطلب منها أن تكتب قصتها. ورفضت كل العروض. تريد أن تشعر بالأمان. وعلى حين غرة، اعتقدت أنها وجدت في الشريكة المالية. تعارفا منذ أمد قريب، ولكننا شعرنا بأن الصلة التي شرعت تُنسج بيننا متينة. وباستمرار، استخبرني خلال الشهور التالية. ودون أن أدري ذلك، تجاوزت «الاختبارات» الحاسمة في نظرها. تخشى مليكة كثيراً الخيانة، بحيث أنها تحتاج إلى أن تطمئن في كل لحظة إلى الصداقة التي تربط الآخرين بها.

وأقنعها جان - كلود فاسكيل، الذي استقبلها، بالانكباب على الكتابة. لقد سارت الأمور بينهما بيسر. طرح عليها المعلم الكبير لدار نشر غراسيه، متأثراً بالعينين الحزينتين للمليكة وبقصتها التي يعرفها جيداً، ومفتوناً بسحرها وهيبتها، صراحة، السؤال الوحيد الهام في نظره. السؤال الذي يبرهن لها أن المقصود سوف لن يكون تحقيق «سقي» في مجال النشر، وأن هذا الرجل الشهم يحسب قبل كل شيء حساب سلامتها.

— هل أنت متأكدة من أن كتابة هذا الكتاب ونشره سوف لن يلحقاً الأذى بك، ولا بأسرتك؟

كان الحسن الثاني لا يزال حياً ولا يزال يقبض على بلاده بقبضة من حديد. وكتاب جيل بيرو محظور في المغرب. وقد وضع نازره، أنطوان غاليمار، الذي زار الدار البيضاء بمناسبة معرض للكتاب، تحت الإقامة الجبرية في فندقه لثلاثة أيام. هذا يعني أننا قدرنا المخاطر. فقرّرنا أن وحدهم أقاربنا سيُطلبون على السر. وسنستخدم حياً بارعة طيلة عام كام

للحديث عن كتابنا عبر الهاتف. في كل حديث، استخدمت مسجلتين. وأخفى ناشرنا اليقظ مانويل كاركاسون، الذي أظهر دعماً أكثر من نفسي أثناء كل مغامرة هذا الكتاب، نسختي الأسطوانات في خزانة. ربما بدا ذلك من مسخف الطفلي: إذ ما الذي تجازف به في فرنسا؟ ولكن لم ينسَ أحد من أين قدمت مليكة، ولا ما عائلته، ولا قدرة جهاز الاستخبارات المغربي، حتى خارج بلاده.

واجهنا حادث عرضي في حرصنا واحتراسنا. كانت مليكة بحاجة لأن تتيقن من أنها مستعدة لتقول كل شيء. وستكون رحلة قصيرة إلى المغرب حاسمة بالنسبة لها. في أيار 1997، قررت الذهاب لرؤية والدتها في الدار البيضاء أثناء عطلة آخر الأسبوع. أخرجت مليكة هناك لسة أشهر. أشبه بأنها تريد كتابة شهادتها. فمن الذي أخبر بهذه الدقة المخبرين الذين كانوا يضيقونها؟

والفارقة أن ذلك الحادث العرضي أعطى للمليكة الدافع الذي كانت تنتظره. وحينما التقيت بها من جديد في كانون الأول، كانت قد نضجت لرحلتنا الطويلة في ماضيها.

شكلت سبعة أشهر من المناقشات بواقع ثلاث «جلسات» أسبوعياً، من بداية كانون الثاني وحتى نهاية تموز 1998، المرحلة الأولى من العمل. أكتب كلمة «جلسات» بمعرفه. وللطيف الجو بعد اعتراف مؤلم على نحو خاص، كنت أحمس لها غالباً، بعد أن أطلق المسجلة:

حسناً، أنت مديونة لي بـ 300 فرنك، هذه هي التعرفة التي سأخذها منك أخيراً نفسي، اليس كذلك؟

طبعاً، كانت تعقده وهذا ما كنت أنتظره. أن أجعلها لصعك. في مكثي الصغير الذي كنا نجلس فيه متقابلتين براحة واطمئنان، كانت تعقد جلسة سرية غريبة، يقطعها أحياناً أطفالي وهم يطلون في الوقت المناسب لتخفيف التوتر.

هي تتكلم وأنا أتخيل. غالباً ما يعتصرنا الانفعال معاً. وغالباً ما كانت الكلمات تخدنها. وتفقد القدرة على الاستمرار. ولا أتح عليها. وستعود بنفسها، فيما بعد، إلى الأحداث التي ترهقها.

أحاول أن أمثل ماضيها. كل شيء يفرقنا. الدين، الثقافة، التربية، الدراسة. لم أعش قط في قصر ملكي، ولم أعرف شخصياً لا ملوك ولا محظيات ولا كبار الخدم، ولا مرتبة أراسية. وكجمهورية مقتتعة، يشق علي أن أمثل رعايا خاضعين لملك ذي سلطة مطلقة. كما لم أحظ بحياة المراقبة الطائشة تلك، والفئة ذات المقام العالي، والشباب الزاهي لابة المجتمع المخملي.

حتى وإن كنت أعرف الشرق من خلال إقامتي في السنوات الخمس الأولى من حياتي في تونس التي ولدت فيها، فقد بدا كل ذلك بعيداً جداً عني.

بينما كان الزمن يمضي بطيناً جداً في سجنها، وهذه أيضاً تجربة لم أكن أعرفها، درست وعملت وأحييت، وعرفت اليسر

والعسر، ككل الناس، ولكن بمقياس كل الناس. لقد تزوجت وطلقت وأنجبت طفلين أعشقهما. إن حياتي، على إنها، هي قبل كل شيء ما أنجزته خلالها. أنا سيّدة مصرية. أنا ملكة فليست كذلك. في الأربعين من عمرها، وجب عليها أن تتعلم الحياة. وهذا أكثر ما يفرقنا في العمق، هذا البر الساسكن بالنسبة لها والثري باللقاءات والعواطف بالنسبة.»

ومع ذلك نحن قريبتان من بعضنا. ونشعر ملك كل يوم أكثر من ذي قبل. أفهم وجعها، اجعل منه وجعي أجنباً أصبح فاطمة، أمها التي كانت عقوبتها الأكثر قسوة بأرب: لقد حبست مع عبد اللطيف، أصغر أبنائها، لأحد شرعاً دون أن يكون لها الحق في رؤية أولادها الآخرين. لم يكن يوسعها سوى أن تتخللهم من خلال الجدران السمكة للجن. على بعد بضعة سنترات، كانوا يرون انطفاء شباهم، فلم، دون أدنى أمل في الخروج إلى النور. هل هناك عذاب نفع من هذا بالنسبة لأُم؟

لقد نجحت في أن تدسني في جلد كل واحد من إخوتي وأخواتي. أنا عبد اللطيف الصغير، الذي سجن في غير صغير جداً للدرجة أنه حينما سافر رفقة ثلاثة من يكرونه، سيرون بفضلهم إلى عالم يجمله. لم يرق طريقاً ولا بقّة ولا شجرة ولا عمارة ولا حماماً. أو أنه لم يعد يتذكرها. لم يسبح سوى أن يتخللها. وحدها الحكايات التي روتها ملكة تربطها بالواقع.

أنا أيضاً ورؤف، الوحيد واليائس في زنزات الذي يحلم بوالده وبالحيوات التي لن يعرفها. ونحن أيضاً الفئان الثلاث.

ميسي التي بقيت رافدة لسنوات عديدة جراء انخفاض حاد في الضغط والتي تعرف أن تحدّد الوقت، بدون ساعة، لأختها الثانية بالقرب من أسفل فراشها الخشو بالقش؛ وسكينة وماريا، المسجونتين في العاشرة والحادية عشرة من عمرهما على التوالي، والثلاث تنتظران كل شيء من ملكية. علاوة على أنها أختهم البكر، ستكون أمهما والدهما ومرتيهما، ومنارهما التي تضيء ذلك الليل الطويل الذي لا نهاية له، تلك التي توحى بالأمل وتغني الاختيار والاستسلام. تلك التي ترغبك أن تبقى كأننا بشريا.

أخيراً، أنا عاشورا شتا وحليمة عبودي، ابنة العم والخادمة، اللتان لم تشاء أن تتركنا آل أوفقير في منفاهم؛ وتقامتسا طواغية مصريهم، دون أن تتذمرا أبداً.

كل واحد منهم يشبه شخصية روائية. حينما التقيت بهم أخيراً، شق علي أن أصدق نجاحهم ووجودهم. يتحركون أمامي، يفكرون، يتكلمون، إنهم تلقائون. لم يعد كلام ملكة ولا كلماتي هي ما يجعلهم يحيون. في البداية، شق علي بعض الشيء أن ألق ذلك.

حينما روت لي ملكة فرارهم، تمسكت بأرمتي وكأني أمام رواية مغامرات أو فيلم ميهري. تستمر الحكاية أسبوعاً كاملاً. بعد ظهر كل يوم، حينما كانت تحتم حكايتها بعبارة: «أنا متعبة، سنلتقي غداً»، كنت أشعر بنفس الضيق الذي يشعر به من يتعلق بمسلسل تلفزيوني وهو يرى على شاشة تلفازها العبارة القدرية: «يتبع». في الصباح، حينما



استيقظ، أتفاجأ بالبحث عن نظائري على طاولة السرير لأقرب  
تممة القصة التي لم أكتبها بعد...

حينما أكون معها، لا أمل أبداً، أضحك، أبكي، أرتجف،  
أرتعش. ويقلقي تأخرها. يدور الزمن. تتصل بي.

- ميشيل، لقد تغير شارع بيتك هذه الليلة: لقد اختفى  
بيتك.

لعشر مرّات، لعشرين مرّة، جاءت إلى بيتي ولا تزال تخفق  
في العثور على طريقه. أفهقه.

- والمترو؟ ألا يزال موجوداً على الأقل؟

أساعدها بصبر وأناة في استعادة وجهتها. ولحسن الحظ  
أن الهاتف المحمول موجود. إنه بوصلتها، مفتاحها السحري،  
دليها، إنه حصاة بقي بوسيه petit poucet لإرشادها (1)،  
وسيلة الإبقاء على الاتصال مع الواقع، أي نحن، إيريك وأمه  
فرانسواز وبعض الأصدقاء والأقارب.

ولا أضجر عندما أنكبّ على الكتابة. 40 أسطوانة.  
1500 صفحة من المخطوطات. لا بدّ من الحذف والشطب  
والتشذيب. لرُبّما أمكننا أن ننشر ثلاثة أجزاء. اخترنا أن  
نتوقّف بالضبط بعد استعادة الحرية، مع بعض الصفحات في

\* petit poucet: عنوان حكاية للأطفال واسم شخصيتها الرئيسية التي  
كانت تصفّ الحصى لتستدلّ بها على بيتها، وهي للكاتب الفرنسي الشهير شارل  
بيرو (1703-1628) وله أيضاً حكاية ذات القلوصة الحمراء - المترجم.

هذه تعرض السنوات الخمس التي أمضيها في المغرب  
الذي أتوسّل إلى فرنسا.

في البداية، كنا قد استحضرنّا فكرة حوار بيننا، مليكة  
وأنا، أن نكتبها خيالية لدرجة أنني قرّرت كتابتها بصيغة  
الخط الأول لنعطي تجسيدا أكثر للكتاب. خلال تلك  
الأيام الثلاثة من الكتابة، وأنا حبيسة منزلي أمام حاسوبي، بلا  
مخرج تقريباً، غصّية ومنهكة، وبلا اهتمام بأهلي الذين، لحسن  
الحظ، لم يلاحظوا، كنت أنا مليكة.

الغد جعلني الفرد الثامن في عائلة أوفقيز، قلّست  
في ظاهرة التشكي، خلال مخابراتنا الهاتفية الخمسين في  
ألمانيا.

مانويل كاركاسون هو قارئنا الأول. وإذ تأثّر بالقصة في  
الحال، أبدى فضولاً حيال كلّ التفاصيل وحثني على إعادة  
السؤال عنها، كلون فوب وعيني محطّية وقوة سجان. كان  
أدبياً، في دفتر ملاحظاتي، حتّى مخطّط زنزانة بئر - جديد،  
مترجماً ومعلّقاً عليه بخط يد مليكة، لكي أفهم أكثر ما ترويه  
لي.

بدأت أرتعد أمام تلك الجدران الورقية. ذات يوم، كانت  
مليكة. ظلّ القب الذي أشارت إليه برأس القلم لتشرح  
كلمة توصلها مع أمّها، من زنزانة إلى زنزانة، على حاله.

رسمت نموذج جهاز الصوت البدائي الذي صنع من قبلهم.  
كانت تتيح لهم كل مساء الاستماع معاً إلى الراديو، رغم

الحواجز السميكة التي كانت تفصلهم عن بعضهم، وتسمح للمليكة رواية قصص لجمهور عائلي محروم من كل شيء.

وكان مخطط النفق، الذي حُفِر على مدى ثلاثة أشهر بملاحق صغيرة وأغطية علب معدنية، دقيقاً أيضاً. في الليل، عانيت من الكوابيس. هربت معهم. قبض الحراس عليّ ثانية. استيقظت عرقانة لأجد بأنها لم تكن سوى كوابيس، وأنني في سريري في جو حار. حدث لي مراراً أن شعرت بأنني مذبذبة برفاهتي البسيطة تلك.

حتى إذا كانت الصحافية تطالب بالمزيد من الإيضاحات، كان لدي في الغالب الهواجس من أن أفاجأ مليكة بذلك، من أن أوقظ في كل مرة الوحوش. من كل ما روتني، كانت حكاية موت أبيها أكثر ما يلبثها وأثار هياجها. شقّ عليها أن تعيد القراءة. هناك الكثير من الأمور التي لم تروها قط لأي شخص.

خلال كل تلك السنة، شاهدت مليكة تتغير. تستعيد الثقة بنفسها. لا تزال ثقيل وتُسيء التغذية بطريقة فوضوية، ولكنها استعادت وزنها. غالباً ما تضحك. يمنحها إريك الحب الذي تحتاجه لتعود من جديد إلى العالم. لم يعد لديها ذلك المظهر الشجي ولا تلك النظرة الطفولية الناهضة التي تثير الرغبة في احتضانها لمواسمها والممس لها « لن يتكرر ذلك أبداً ».

قررت أن تنظم حياتها: أن تتزوج وتنجب وتقل مسكها

وتزوج. في تشرين الأول من عام 1998، كتبت حفنة من الأشخاص في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة لحضور زواجها. كان جورج كيجمان، محامها خلال الأيام العvisية، حاضراً. وكان الجميع متأثرين أشد التأثر.

تخلّت أبهة الرجيات ويدخها في القصر، وفكرت في ما كان سيكون عليه زواجها في العشرين من عمرها، في المغرب، لو لم يكن قادراً قد انقلب. عرض لي صوراً لها في عيد ميلادها الثامن عشر ملصقة في اليوم من الجلد الأحمر، وهي أحد أشياء الماضي النادرة الناجية من الإعمار. أقام والداها حفلة راقصة احتشدت لها الدار البيضاء بأكملها، وحضرها حتى الأمير مولاي عبد الله، شقيق الملك الحسن الثاني. بذلك النوب الطويل من مراكمة ديور، وشعرها المنظم، وابتسامتها المصنّعة بعض الشيء، لم أعرفها. حقاً أنها كانت واحدة أخرى.

جرت حفلة العرس عند والدتي إريك، في ثانوية راسين، التي كانت مديرتها فرانسواز بوردروي، وهي سيّدة قويّة الشكيمة، لها ابتسامة ساحرة وظرف ابنها. التقيت بتلك المناسبة بأفراد عائلة أوفقيّر الذين لم أكن أعرفهم بعد.

أعجبت بجمال فاطمة الحارق. وهي في الستين من عمرها، لا يحمل وجهها الذي لا زال يحتفظ بشبابها - كأنها الأخت البكر - آية أمارة على منحها. وحده الحزن الأبدي في أعماق عينيها الكبيرتين الكيثيتين يشهد على آلام الماضي.



ومفاعلة أمة تسالفت إليه حتى قبل ترجمته، محطات التلفزة والإذاعة والصحف الفرنسية والأجنبية. وأمثال الطلبات على ملكة وأعمال كلود دالا تور، الملحق الصحافي لدار غراسيه، والسيجارة بين شفتيه، بهمة ونشاط علاقاته بالصحافة. لم يبدأ للعبة. وسعى الكاتب، الذي يحقق أفضل المبيعات على الإطلاق، لأسابيع عديدة على رأس قائمة المبيعات.

في اللعبة التي انخفضت فيها المبيعات، أنعش موت الملك الحسن الثاني الفضول حيال المغرب وستوافق المظلمة وحكاية عائلة أولوس. وكانت تلك انطلاقة جولة إعلامية واسعة، ومن جديد ضربت السجينة إلى رأس قوائم المبيعات. كانت ملكة حزينة بمرارة لموت الملك. حتى معرفة مشاعرها المتناقضة وجدادها. غالباً ما تحدثنا عن ذلك- ربما كنت لاتصور العكس.

ولكن كلا. إن كل شيكها هو ما تبتد معه غائباً، هذه المرة. بقيت مستسرة طيلة النهار أمام تلفازها الذي التقط بث القناة العربية وانفعلت وهي ترى بشروء القصر والمحطات والملك محمد الخامس على صهوة جواده المزّين بالريش. هل ستعش ملكة ذات يوم إلى حل مع ماضيها؟

مع ذلك، سوف تساعدنا المقابلات التي ستعطيها، في فرنسا أولاً، ومن ثم في كل مكان، في التام جراحها. ولو أنها أصبحت رغباً عنها كائناً إعلامياً، ومطلوبة باستمرار من قبل صحف وتلفزيونات العالم بأسره، ومعارض الكتاب وحفلات التوقيع واللقاءات. كما التقت بأصدقاء منسيين، ومعارف

شدت على يد رؤوف الذي أدهشني وقاره وشبهه بوالده.

اكتشفت ماريا، امرأة جميلة، في غاية الأناقة، عازمة على نسيان الماضي، وعبد اللطيف شابٌ وسيمٌ وخجول. وكنت قد التقيت من قبل بسكينة الفتاة المسترجلة ذات الساقين الطوليتين كشادن، والتي تحلم بالنجاح في مهنة الغناء، وميمي، الرقيقة والطيبة، التي تكتب أشعاراً شجية. ونانو الصغيرة، وهي البنية الحازمة والفضولية، التي على الرغم من الرأفة الخفيفة في نطقها، لها رأي في كل شيء، وتوشوش بصوتها الجهوري وهي تحدثك بعينها المدوّرتين كحيتي زيتون سوداوين.

كما تعرفت إلى والد ايريك، بير بوردروري، وهو باحث ذو مظهر وديع وجذاب مثل الأستاذ نيموس، بلحيته وشعره الأبيض الثلجي، وأخته ماريون، شبيهة ايريك الشقراء، وبولو، جدته، وهي سيّدة مسنة مذهشة، ذكية وحيوية. جميعهم يحبون ملكة وعائلتها، يفهمونهم ويعتنون بهم ويحمونهم ويقيمون بينهم وبين العالم الخارجي جسراً من الحبة والعناية. هؤلاء الناس المدهشين يبعثون الدفء في القلب.

كانت ملكة محظوظة بأن جرى تبنيها بهذه الطريقة. وهي تعرف ذلك: فبادلتهم عينيها وأجبت ايريك حباً شديداً. حينما يُنظر إليهما من الخارج، يشكّلان ثنائياً رائعاً، ومؤثراً للغاية حينما تُعرف حكايتهما.

منذ صدور الكتاب في شباط 1999، كان نجاحه "سريعاً

\* الزاظة، هي لفظة الجيم (ج) كحرف الزين (ز)  
\*\* أي كتاب: "السجينة"

قدما لوالديها أو من الفترة التي كانت فيها شابة من المجتمع المغربي السعيد، وتلقت بريداً غزيراً. وبات استخدامها للوقت منفلاً جداً للدرجة أنني قدّمت لها فيلو فاكس بدلاً عن دفتر المدرسي ذا المربعات الصغيرة الذي كانت تكتب فيه مواعيدها. لست متيقنة من أنها استخدمته. ولكن كان ذلك مناسبة للتفكير بيننا من أجندها الجديدة كوزيرة.

خشيت أن يكون ذلك مفراطاً وأن يجعلها تحترق ماضيها سريعاً. ما حصل هو العكس. لفرط ما روت حكايتها، تعزمت ملكية. لا تكل أبداً من تكرار حكايتها حتى وإن كانت جولانها في أوروبا، حيث يلقي الكتاب نجاحاً، لاسيما في ألمانيا، تنهكها أحياناً و تترق طاقاتها.

يرغمها وهنها وضعفها على أن تراعي صحتها. غالباً ما تعاني من آلام غامضة أصيبتها «أوفقريرات» في محاولة مني للتخفيف عنها. تعاني من آلام في الرأس أو البطن. يبقى تشخيص أسبابها مجهولاً وتزول إن لزمّت السرير لبضعة أيام. لقد قضم السجن جسدها من الباطن. الأفراد الآخرون للعائلة يعانون بدورهم من هذه الآلام. وبعضهم يعاني من أمراض أكثر خطورة.

اهتمت السينما بحكايتها. دعتها نانالي مارسيانو، وهي منتجة سينمائية شابة من أصل مغربي، إلى لوس أنجلس حيث تعيش. أبت إلا أن تنتج الفيلم. لن يحدث الأمر في النهاية، ولكن ملكية ارتبطت من جديد مع أمريكا شابها، حينما كانت تحلم بأن تصبح ممثلة.

وجذبها تلك البلاد بشكل حاسم من خلال أوبرا ويغري. التقت المراتن بمناسبة الجولة الأمريكية للمليكة لدى صدور الكتاب في الولايات المتحدة.

أوبرا، «سيدة شيكاغو» التي تسيطر على اثنين وعشرين مليون مشاهد في العالم وتحقق أفضل الأعمال رواجاً والتي ينحاطفها الأمريكيون - توني موريسون التي دفعتها إلى القمة، لدين لها جميعاتها الهائلة - افتتحت بملكية وبالكتاب وجعلت من نادي أوبرا كتاب الشهر من خلال شرائها لستعمائة ألف نسخة دفعة واحدة من الناشر الأمريكي. ولم تفعل ذلك قط مع كتاب فرنسي آخر.

بفضلها سيقى السجينة لأكثر من عشرين أسبوعاً على رأس قائمة الكتب الأفضل رواجاً لصحيفة نيويورك تايمز. وهذا أيضاً لم يحصل قط لكتاب فرنسي.

حينما اتصلت بي ملكية لتزفني الخبر، ذكرتها بأنها، حينما كنا نحن الاثنين محبوسين في مكبي، كانت تتوقف عن الكلام لتسألني بحسرة:

- ميشيل... أجيبني بصراحة. من سيهم هذا الأمر؟

- أنا، كنت أقول دون اضطراب. أنا. هذا يسحري. هلاً

تابعنا؟

أحياناً كنا نتوقف، ونحلم. وماذا لو سار الأمر على ما

يرام؟

حلتها ذات يوم عن أوبرا:

أعزفين، هناك في الولايات المتحدة، ذلك البرنامج التلفزيوني الذي تنتجه وتقدمه تلك المرأة المذهلة التي أصبحت أكثر شهرة من رئيس الولايات المتحدة. إنها قمت بالحبكات الشبيهة بمحايتك. هل تصورين لو..؟

ولكن لم نشأ أن نتخيل أي شيء. ذلك بعيد المنال جداً وغير واقعي تماماً. فواصلنا العمل.

امتدنا أوبرا في أيار 2001 إلى شيكاغو. كانت ملكة ضيقنا الحمة. كان الجمهور عبارة عن هيئة من ربات المنزل الأمريكيات، القادمات من أركان البلاد الأربعة والمنتخبات من بين آلاف المرشحات. هاري من فيسكونسن وسو ايلسن من أتلانتا تجاوزان مع جيسي من نيو جيرسي. كل هؤلاء النساء لأن بلدة Stolen Lives (حيوات مسروقة)، هكذا عنوان كتاب السجينة في الولايات المتحدة.

«لقد أغرمتُ بالكتاب»، أسرنا غريك، مساعد أوبرا.

لقد صممتُ العرض حقاً على الطريقة الأمريكية. قبل البرنامج أظنا الجميع برعايتهم. وقبل التسجيل بسبعة دقائق أجلسنا في الصف الأمامي. نحن، أي ميمسي، أخت ملكة، تيلي مارسيانو وأختها جويل، ميشيل شريكة ناتالي وأنا. أنشأنا قائم على البرنامج الدفء في الصالة.

وصل أوبرا إلى خشبة المسرح، ملكية ومهيبة في ثوبها الأصفر. برحت الموضوع وألقت أسئلة على الجمهور. ثم

جاءت إليها ملكة بجور شديد وسط احتفاء وترحاب. جئت أوبرا ذراعها مستقبلة إياها: «ملكة أنت بطلتي»  
-Malika, you're my hero-

وتم الأمر. بكى الجميع، بين الجمهور وعلى المنصة. وحتى أخت الخمسة، ذرفنا الدموع. استغل أحد الحاضرين بث فيلم عن ملكة فوزع محارم ورقية على الحضور ورحب بهم.

بعد البرنامج الذي كان انتصاراً كبيراً، غادرنا على وجه السرعة. التقطت أوبرا معنا، ومن ثم مع ملكة، الصور التقليدية التذكارية. صفقت تصفيقاً سريعاً وانتقلت إلى الحالة الأخرى.

لدى خروجنا تحولنا من جديد مشياً على الأقدام في "مغيفسانت ديل" الجادة الرئيسية في شيكاغو. بحثنا ونحن لا نزال تحت تأثير البرنامج، عن مطعم.  
قلت:

- ملكة، أجيبي بصراحة. لماذا تشعرين بعد أن كنت الضيفة الرئيسية للبرنامج الأكاذيب شهرة في العالم؟ توقفت. أطرقت في التفكير. نظرت إلي.

- أنا سعيدة. ومريحة للغاية. أنا لا أبا لي بالنجاح والمال، أنت تعلمين ذلك. ما يهمني هو أنني حققت أمنية راودتني في السجن. في بعض الأيام، حينما كان السجن قاسياً للغاية، كنت، لأعين نفسي على الصمود، أرصد مراراً وتكراراً الجملة التالية: ذات يوم، سيعرف العالم أجمع حكايتي. اليوم،



بفضل أوبرا، يعلم اثنان وعشرون مليون مشاهد عبر العالم جري لنا. لقد تحققت أغلى آمياني.

تبين لي بأنه سيمكنني بسهولة أن أكتب كتاباً كاملاً عن كيكاً. مرة أخرى، سأنتهي جانباً وأترك لها الكلام. حينئذٍ كنا تشغل على السجينة كنت أدري بأن تلك الفكرة كانت تراود ذهني.

كان لدى صغيري هيبيرناتا، العائدة من بلاد الموندي الكثير والكثير من المواضيع المثيرة للاستغراب أو الحيرة أو الغضب، وهي تراقب عالم الأحياء، لما كان المجتمع قد آل اليه خلال عشرين عاماً. كان كل شيء يصدمها ويفزعها ويؤذيها. إنها حساسة للغاية. غالباً ما كانت تستخف بنفسها وبصعوبة حياتها اليومية.

ثم آبت إلا أن تروي تجربتها في النجاة التي تشاطرها مع الكثير من السجناء الذين قضوا فترات طويلة في السجن. أمثال نيلسون مانديلا، والتاجين من سجن تزامبارت للأشغال الشاقة، والكثيرين سواهم، والقائمة تطول كثيراً. كيف للمرء أن يتعلم من جديد أن يعيش بعد السعي إلى النجاة؛ النوم، الحلم، التغذية، الحب، المشي... ما يبدو لنا عادياً وما بدا لها، أن أطلق سراحها، أنه لا يقاوم. تقدم من جديد شهادتها. يانسانيها وبفكاهتها المحفوظة.

كيكا الحاضرة بيننا. أنا سعيدة بأن تجدي، أخيراً، هناك في ميامي، بين إريك ونوال وآدم الذي سينضم إليكم قريباً.

هناك الأمن. بيتك الصغير. ركنك الضيق من الفردوس.

هالياً ما أفكر بك. وإن كنا نلتقي قليلاً. رغم مزاجك الغريب الأطوار (ما كنت أبداً متصتعة) أعرف، في الحقيقة، برؤيتك ألف مرة أثناء العمل، أنك من خيرة الأشخاص. مستعدة لعبور الأطلسي لتأتي في غرفة المستشفى، على الأرض وعلى فراش رديء، لأن صديقة مريضة بحالة خطيرة تحتاجك. لم يكن لقاءنا عبثاً. ما بعد الكتاب، هناك ترجمات ونجاح عالمي وإمكانية أن تعيدي بناء ذلك بعد إلقاء هذه الشهادة للعالم، كما أن هناك ما أثره في: الإعجاب بشجاعتك، وصبرك، وإرادتك. وفوق كل شيء ذلك الشغف بالحريّة الذي جعلكم، أنت وعائلتك، في حالة تأهب قصوى، تستردون مصيركم بيديكم وتحفرون نفقاً تحت زنزانكم. هذا درس جميل في الأمل.

لم أتصور قط أن يكون الأمل مخلفاً. لا يصبح المرء بالضرورة صالحاً لأنه قاسى مخناً مرعبة.

ولكنك يا عزيزتي كيكاً، كنت من طينة أخرى. وبقيت كذلك. روح جميلة سامية. امرأة حقيقية.

ميشيل فيتوسي

باريس، كانون الثاني 2006

## الرجل الأول في حياتي

أدم، صغري آدم، حبيبي، حياتي. لقد احتجتُ إلى كلِّ هذه الستين وكلِّ هذه الغن، حتى أولدَ أنا بنفسِي وأسلمَ نفسي. لقد ولدتُ امرأةً في حين أن امرأةً في عمري، تكفُّ أماناً، عن أن تكون كذلك. يمكن لامرأةً طبيعية، إن كانت تعجز عن منح الحياة، أن تنقذ على الأقلَ حياة. إذ كان آدم لكاد أن يموت. ما كان أحدٌ ليعلم بذلك. إنه طفل المعجزة.

في الطابق الأول من مبنى رابطة حماية الطفولة الذي كان الضياء الساطع لمراكش يغمره، أخذتُ الرائحة المشربة بالخليب والسكر والأسرة والأدوية بتلابيبي. كلنا متساوون هنا. امرأة شابة محجبة، باسمة، تلعب على مقربة من امرأة إسبانية تنتظر منذ أسابيع الطفل الذي وعدتْ به. جئتُ أتبتى طفلةً. أنا محظوظة: فهناك واحدة. طفلة رائعة شَبَّك شعرها، إنها الفتاة الوحيدة بين ما يقارب الثلاثين من الرضع الذكور الذين سيكون أو ينتون أو ينامون بوداعة. إنها هادئة. لاشكَّ أنها كانت تأمل قدومي. أخذتُها بين ذراعي. لم أفهم. لم أشعر بأي شيء. لِمَ هذا الغياب للمشاعر؟ أليس ذلك جائزٌ على نحوٍ مرعب؟ شعرتُ أن هذه الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين لن تكون طفلي. تفحصتُ الرضع من خلال الزجاج الواقى لمهودهم. كنت متوترة، على عتبة اللحظة الأهم في حياتي. مدتُ أُمِّي، فاطمة أوفقي، التي كانت تراقبني، كرة من شعرٍ داكنٍ وجلدٍ متغصن. قالت لي بكل بساطة: « هذا هو؛ إنه ابنك. » كيف استطاعت أن تعرفه بيقين كهذا؟ « لا أدري يا أُمِّي، هذا صبي.



نعم، انه ابنك»، قالت متشبّهة برأيها. أخذتُ بين ذراعيّ ذلك الكائن الصغير البالغ أسوعين من عمره، والذي بالكاد يزن ثلاثة كيلو غرامات، وشعرتُ في أعماقي بفرح مزوجٍ بألمٍ وخوفٍ. شعرتُ في لحظةٍ بتمزّقٍ وبأعباءِ الأمومة.

آدم هبةٌ من السماء، لأنّ السماء أنقذته. كمعظم الأطفال الذين يتوقفون في هذا الميّم، لا ريب في أنّه تُرك في مستشفىٍ مراكش من قبل أمّه الأكثر فقراً من أن تستطيع إطعامه. سأعلم فيما بعد أنّه في حزيران 2005، وفي أتون حرارة الصيف، كانت متسوّلةٌ مسنةٌ تحمله تحت إبطها، مجدداً كصبرة قماشٍ متسخٍ، يوشك على الاختناق. للأسف لحقت الشرطة، الخيرة للأسف في هذا النمط من التهرب، تلك التعسة، وأنقذت الطفل، الذي علّقت صورته لاحقاً في إعلانٍ في كلّ مخافر مراكش لمنح الأمّ فرصة العودة عن قرارها. ولكنّها لم تفعل. في تموز 2005، قرّنا، ايريك وأنا، تبسّي ذاك الذي ساستيه آدم. بعد الكثير من الإجراءات الإدارية، لكون التبتّي غير جائز في الشريعة الإسلامية\*، حمل اسمي. اسم أبي. أوفقيو. إنّها طريقي في ألا أنسى من أين أتيت. احتججتُ إلى هذا الطفل - المشعاع. منحته هذه الكنية غير المألوفة، لأزيح كلّ ألمي، لأنسى القتل الذي سرقوا عشرين عاماً من حياتي، بإسنادهم لي إلى الأبد دور الضحية، وبحرمانهم لي من قدر كلّ امرأةٍ الحقّ في الإنجاب. كنتُ أحسُّ بنفسي ضعيفةً منهارة.

\* التبتّي كما نبهت عليه القانون الفرنسي محظور. بالمقابل، يلجأ الوالدان للزواج في تبتي طفل إلى الكفالة. والمقصود هو وصاية أو تفويض سلطة قرابية تتوقف عند بلوغ الطفل لسن الرشد.

أدرك أنّ جزءاً مني ميتور. كنتُ قد تألمتُ كثيراً للعجز عن منح طفلي لإيريك، إلى درجة أننا كنا نصل أحياناً إلى حافة الانفصال. لم أعد أريد أن أكون ضحية، ولا أن تكون لي رسالة أطلقها للعالم. أريد أن أعيش، لا أن أموت.

ليس هذا يسير. كنتُ منذ بعض الوقت وليّ أمر نوال ابنة أختي، التي أحبتها كما لو أنّها ابنتي وهي تعيش معنا في ميامي. ولكن لنوال والداها. كانت نقطة التحول مباغتة وغير متوقعة. كنتُ قد التقيتُ سندس أثناء حملة إنسانية لمنظمة صابدة بلا حدود بينما كنا نعبّر رمال الجنوب المغربي. كانت تكافح حينها التراخوما، وهو مرضٌ يصيب العين. وقد اضطرت صديقتي الوفية جداً سندس، وعلى نحو غريب، أن تخضع في شباط 2005 لعملية جراحية في مستشفى باريسي. كان الموت قاب قوسين أو أدنى من الحياة. كنتُ أنام إلى جانبها كلّ مساء، وكانت تحدّثني عن التبتّي. إنّها هي من أفعني بمدوء أنّ من الممكن مواجهة الأمر. كان حبّ إيريك، وسخاءه وجلده، يدفعني أيضاً نحو ذلك الطفل الذي لم أكن أعرفه بعد. انتظرتُ عشرة أعوام كي أتخذ القرار بأن أكون أمّاً، لأقرّ بأنّه هناك أيضاً حريةٌ يمكنني معانقتها. يمكنني أن أحظى بقدرٍ شخصي. كلمةٌ ذاتُ مذاقٍ غريبٍ على شفتاي، الحرية. حريةٌ مرّة، طبعاً. من قصر محمّد الخامس الذي كنتُ فيه أميرة لا تُمنس إلى السجن الكريه الذي كنتُ فيه شهزاد بين أهلي، ومضى لي أكن مسجينة؟

العقبات والحواجز في كلّ مكان، الحقيقية والخفية،

وخاصة في رؤوسنا. ولكن ليس هناك أسوأ من أن تكوني سجيناً. تفكر على نحو أفضل. نتعلم من الزمن الذي يمر بدأت حياتي الثالثة، بعد السجن في المغرب، والتدرب الأليم على الحرية في فرنسا. أدركت بأنه لم يكن هناك سوى الحب. الحب الذي تمنح، الحب الذي تتلقى. أدركت هذا الأمر البسيط جداً. كان الوقت يحين لذلك.

## الحرية المرأة

وقالتي معدودة، وسوف يعبر الشيخ الثقيل للطائرة 747 سارة الغيوم، فاتحاً أمامي سماء الحرية هائلاً. في جهة ما، على مسافة عشرة آلاف مترًا تحت قدمي، ينتظرني رجل حياتي وعالملي وأصدقائي وحياة جديدة تكاد تكون بكرًا، وكأن تلك السنوات الأربع والعشرين من السجن المعزول لم تكن إلا كابوساً. السماء زرقاء، زُرقة تكاد تكون خيالية، وشعرتُ بنفسي كأنني في عالم آخر.

ابتعدت السواحل المغربية وتوارت، ولاحت إسبانيا. كم من السنوات كنتُ سأحتاج لأصل إلى هنا، في هذه الطائرة المصمتة بجديها، وسط وجوه غريبة...

بدأ كل شيء في عام 1958، حينما استقبلت الفتاة الصغيرة التي كُتبتُ في القصر بناءً على طلب الملك محمد الخامس (1911-1961)، خليفة النبي، وسليل العلويين، لأرتي فيه كأميرة إلى جانب ابنته للأبنة المدللة للملك وللأميرة. كان اسمي يعني في اللغة العربية «الملكة الصغيرة». كنتُ إلى ذلك الحين «الملكة الصغيرة» غمد أوفقي، والدي. وسأصبح على نحو غريب الأميرة بالتبني، الهزلية، البهية والحزينة في آن، لبلاط من القرون الوسطى كانت المخططات فيه يتجسسن على بعضهن، والحُرْمُ تغلق على العيون الكينية للمفضلات، وكان الخدم فيه يصلحون سلوكك مباشرة بسوط. أنا مدينة لشخصي القوية في مقاومة التعليم

En3am

www.rzwitg.com

الأكثر من صادم لجان ريفل، المربية الإنزاسية، المرسلة إلى الملك من قبل كونت باريس. هذه العانس بعينها الواسعتين ذات الزرققة الفاقعة وكرهها للرجال، والتي لم تكن تحبّ لا تناول الطعام ولا التسلية، سوف تعودنا على تناول خبز الباغيت. إلا أنني لن أنسى الضحكات المشتركة والفرحات بعربة الخيل، والقصور ذات الصحن الدوّارة العملاقة وحلبات التزلّج في إيفران المخصّصة لنا وحدنا، متارجمحة بين الشرق والغرب، أتكلّم الفرنسية في بيت أهلي والعربية في القصر، راعيت عبارات لهجة البلاط. أينما أحلّ في المغرب، أسأل باستمرار إن انتسيت إلى

«Dur-el-Mahzan»، أي دار السلطة. ولكنني لست

أميرة، وبقية حياتي، التي قضيتها في السجن، سوف تؤكد ذلك. كنت، ولا زلت، حرونا، على كل شكل للسلطة. تحت طيش طفولة باذخة، كان تمرّد يقيم في أعماق أعماقي. لم أكن أريد أن أكون نكرة. مسبقاً! مذ كانوا يتبنونك في البلاط، كانوا يقطعونك عن ماضيك وعن جذورك، كانوا يفعلون كل ما من شأنه إقناعك بأنّه لم تعد تملك عائلة. كانت السراي تعجّ بنساء لا هوية لهنّ، بنساء مجهولات كنّ يجتمعن حياضاً حزينات في عزلة ترتسم تغصناً على وجوههنّ، بعد أن كنّ قد مجّذنّ محمد الملك، طبعاً، كنت أحبّ الحسن الثاني، أبي البتّي، الصارم، الساخر، قبل أن يصيح الجلاّد الشرس لأهلي. كنت أريد الخروج من القفص، كنت حبيسة، ولكنني كنت أعلم أنّ لي عائلة وأريد الالتقاء بها.

أحلاماً حينما أروي هذه الحكاية الحارقة، أشعر بأنّ الناس لا يدركون. يتساءلون: أخذ طفلة في الخامسة من السديها؟ لقد عثر هذا قاسياً، ولكن كان من المستحيل لوالدي أن يرفضوا. كان يصدر عن ملك يقبّل الناس يده وراعيه، حينها، كان لي سديها. متزوجاً منذ 29 حزيران 1952 من الحسنة فاطمة بنت العلاء من العمر 15 عاماً، ولم يكن قد أصبح بعد الرجل الذي في النظام. كان الفارق في السنّ بين والدي وعشرين سنة. ولد أحمد أوفقي في 29 أيلول 1920 في عين شعير، في إقليم مراكش، منطقة نفوذ البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كان أحمد أوفقي يعني «المفقر». في السابعة من عمره، فقد والده، أحمد أوفقي، زعيم القرية، وقد لقّب بـ باشا بودنيب من قبل الأتباع ليوني: سرعان ما حلّ الجيش محلّ عائلته في حياته. كان متألقاً، ولا جدال في ذلك. في الحادي والعشرين من عمره، تطوّر كملازم احتياط في الجيش الفرنسي، جُرح في إيطاليا، ونال رتبة نقيب في الهند الصينية، ثمّ عُيّن سريعا رئيس مرافقي محمد الخامس. مع تولّي الحسن الثاني للسلطة، الذي أوجّه في 3 آذار 1961، حاز على ثقة الملك الجديد. إبّان الأزمة العvisية لاختطاف زعيم المعارضة السياسية المهدي بن بركة في سان - جيرمان، في عام 1963، اتّهم بالتواطؤ وحكّم عليه بالسجن المؤبد من قبل فرنسا. كان حينها جنرالاً، وزيراً للدخيلة.

كان يقال عنه بأنّه كليّ السلطة. وقد كان كذلك بالفعل. اتّهم النظام بالفساد والاستبداد ومظاهر بذخ ملك



يدعمه الغرب دعماً مطلقاً. بعد انقلاب الصخيرات، غيّر الحرف معسكر والدي. ذات يوم من تموز 1971، اقتحم فوجان من المدرسة العسكرية للملازمين قصر الصخيرات أثناء الاحتفال بعيد ميلاد الملك. قتلوا المئات من المدعوين، ونجا الملك بالاختباء في المغاسل. دافع والدي، الموالي للجيش الثمرّد ولكنه المنعزل عنه، عن براءة 1081 تلميذاً من الضباط وتمّ لسه ذلك. وظلّ متأثراً بقسوة القمع والعقاب. تغيّر أبي واكتساب حلم بحياة جديدة، أكثر بساطة وتحرداً.

مع ذلك، لم يسيق أن ركّز هكذا سلطات بين يديه. بقي وزيراً للدفاع، قائداً لأركان القوات الجوية الملكية. كان يتوقّر على كلّ شيء. امرأة فاتنة، ستة أطفال، منصب في قمة الدولة. هبة جنديّ بوجه مسنون كصل. وسيفقد كلّ شيء، حياته أولاً. أتذكر صديقة، ابنة جنرال قُتل لاشتراكه في انقلاب الصخيرات، غيّرت لقبها، إمّا دُعراً أو جراء خوف مفهوم من أن تعاني من مضايقات النظام. صدمني ذلك القرار. كنت أقول في نفسي: مهما حصل في حياتي، سأبقي على اسمي أوفقي: في المغرب، كما في غيرها من البلدان، كان اسمي مفتاحاً سحريراً، خليطاً من احترام وخشية وحياة خارجة عن المألوف.

إنّ هذا القلب نفسه هو الذي كلّفني الجحيم. كنت في باريس، أحضرت البكالوريا على هواي، بالخروج في كل ليلة، وكنت سأبقي طائشة وقحة جداً لولا حادث السيارة الذي كاد أن يكلفني إحدى عيني. بقيت أجهل آثار الجروح، وكثيراً ما تهيّج وجهي، في السجن، وعانى التشنّجات. كان عليّ أن

أعود إلى المغرب وأن أتعلّق. ولكنّ الأحداث قضت بخلاف ذلك. كما على شاطئ البحر، في قبيلة، كان والدي، العبد الصالح من أي وقت مضى عن الخطّ السياسي للملك، يبدو ضالاً. أتذكره، كثيراً، متطعناً إلى الأفق، ثمّ فجأة راقصاً، مغنياً، لهاها، يحاول التزلّج على المياه، تحيط بجذعه عواصة ضخمة ومحبكة. ذات صباح، ضمتني أبي، الذي لم يكن مفروطاً في الظاهر الحركات العاطفية، بنحو بين ذراعيه. نظر إليّ بحدة. هل

أنت تعلم بما كان ينتظره؟

السادس عشر من آب 1972. كنت في صالون بيتنا في الدار البيضاء، أدرت جهاز التلفاز، فسمعت صحافياً يذيع أنّ الملايا قد وقع، وأنّ الطائرة الملكية قصّفت فوق تطوان. ولم يعرف بعد من هو مدير الهجوم. انخرت قلقاً. في الليل، اتصلت به وطلب مني العودة إلى الرباط. ثمّ اتصلت بي أسي في الخامسة صباحاً، وأخبرتني بصراحة قاسية:

- مات أبوك. خذي حوائجك وعودي إلى الرباط.

لم أفهم. لم أصدق ذلك، بل رفضت الحقيقة حتى اللحظة الراهية التي رأيت فيها جسد أبي، ممسّط الشعر، مغسولاً، تعلو شفته ابتسامة مزدرية كأنّها تتحدّى الموت. وكأنني في كابوس، رأيت آثار الطلقات الخمس في الجسد: واحدة في كبسه، واحدة في رتته، واحدة في بطنه، واحدة في ظهره، والأخيرة التي قضت عليه، في رقبته. يقول القرار الرسمي: انتحار. ماذا يوسع المرء أن يفعل كي ينتحر بخمس طلقات؟ ولا ينمّ ما تلا ذلك عن شجاعة مفروطة.

الذي كان يتولأ لها، وأن الجردان كانت تسير على أطرافنا،  
ودون أن ننسى العلاب والجردان بضحيتهما الجهتسي.

أيمكنني نساي محاولات الانتحار؟ مداعبات السكّرين  
الذين كنا اللحم الطازج لهم؟ إزعاجات ومداعبات الجنود  
الصالة بقدر حاجتهم، وعجرفة النظّار الصغار؟ كيف قامينا؟  
ربما لأننا كنا عالمة، ربما لأننا كنا نحفظ حتى وسط الرعب  
منه من الكاعده لاشك، لأننا كنا قد أبقينا على الأمل.  
كنت سجيّة ناضجة بالحياة.

بقيت زمناً طويلاً في سجن وهمي، مفرد، مُكثب، مُذعر.  
لا تمرّ الدقائق بالسهلة في الطريقة نفسها التي تمرّ بها بالنسبة  
للآخرين: إنها طويلة، متوّعة، غامضة. لقد احتفظتُ من  
الزمن بمنظور مشوّع يمتدني اليوم من أن أكون دقيقة في  
مواعيدي. لقد خلّفت بخمسة عشر عاماً عن الحداثة. لولا  
الراديو، الذي كنا نحيد عند أيّ تفتيش، ما كنا لنعرف أيّ  
شيء عن أخبار العالم. حينما جفرتنا نفقاً بإيادينا الجردّة، وحينما  
اكتشفت الشمس والسيارات والبشر والجمال الأخاذ للبلدي،  
حينما زاد احتفالي بلطافة الطاغية التي كانت قد سرقت منا  
تلك الفروة اللينة للغاية: شباننا. كنا مخلوقات من خارج  
الأرض، مخلوقات من المريخ متفنين إلى كوكب الأرض. يفسّر  
ذلك لي الكثير من الأمور. لقد بقيت لزمن طويل غريبة.

بعد مرورها الذي أعلن عنه في وسائل الإعلام، السذي  
كثف جلازها، ما كان يعرفوا بدورهم منع التعذيب، كنا قد  
أصبحنا مشكلة للملك. فمن غير الممكن التخلص منا، كما من

كان أبي، الوفي بين الأبناء، قد خان، وترغم المؤامرة،  
والآن سينصب غضب الملك علينا. منذ متى وجريمة النسب  
بوجوده؟ منذ متى على الأبناء أن يُعاقبوا بدلاً من أنجيهم  
رجاء بهم إلى الدنيا؟ لم يكن يسعي أن أسامح أبي بالتبني،  
الحسن الثاني، على قتله والذي، ثم كرهته بسبب الطفولة  
البؤرة لأخوتي وأخواتي. كرهته لأننا كنا أطفالاً أبرياء. لقد  
وجدت نفسي مرمية في السجن دون أن أصدق، كمنجرفة، مع  
أخي وأخواتي سكيّة وهرم وماريا، وأخوتي رؤوف وعبد  
اللطيف، اللذان كان لأصغرهما ثلاثة أعوام، واهراتين، عاشورا  
شما، ابنة عم أمي التي تكبرها بعام، وهي كانت مربيتنا،  
رحليمة عيوذي، مربية عبد اللطيف، التي كانت بعمري.  
الضحيتان المسكينتان الراضيتان اللتان سيكبلهما القدر الساخر  
في هذه المساة دون أن يكون لهما فيها أيّ ذنب.

- آنستي، أترغبين بمشروب؟

المضيقة التي انحنت تحوي وعرضت عليّ مرطباً، مبتسمة،  
لا تدري من أيّ حجم أنا عائدة. ماذا عساه أن تتخيّل أن  
أنتي مظلمة كنت هناك حيث عشت، إذ كان شرب عصير  
برتقالة في كأس من البلاستيك يبدو لي ذروة الرفاهية.

رويت في السجينة ظروفنا أثناء الاعتقال: كان يُعتقد بأننا  
كنا مدللين، في مقر إقامة مراقب على الأكثر، ولكنني أتخيل  
رؤوس أصدقائنا - كل أولاء التملّقين الذين كانوا يتجمعون  
إلى مائدة والذي - إن علموا بأنّ البراغيث كانت تنهش  
سيفتنا حتى الدم، وأنّ الفئران كانت تنهب القليل من الطعام



غير الممكن إعادة حرّيتنا إلينا أمام عدسات الصحفيين. أعطيت لنا فيلا مسوّرة بمجدران عالية في طوجا، على بُعد بضعة كيلومترات من مراکش، المكان المفضل لدى الطبقة الرجوازية في الدار البيضاء. لم تكن نخرج منها، ونحن نلتقي ليلاً في بعض الأحيان، وقد استيقظنا مدعورين من أشباح الماضي، أو مرهقين بسُعار مفاجئ. لا نزال نأمل، بفضل محامينا الفرنسيين، بنيل صمة خروج إلى كندا، البلد الذي كانت ندأوة مناخه المرغوبة قد اختلست أرقنا وسهادنا في السجن الذي كنّا نتعفن فيه. الآن بدأنا نلهم! كنا مكبوتين، عاطفياً وجنسياً. لقد جحد السجن رغباتنا، وأطلقت الحرية، وإن كانت مؤقتة، كل غرائزنا الجنسية واندفاعاتنا. أحلنا حاجتنا إلى الحب على القطط العشرة والكليين الذين ربّيناهم. فجأة، ودون أن ينذر أي شيء بذلك، قيل لنا: أنتم طلقاء! اخرجوا من البيت!

هل من الضروري أن يكون هذا جيلاً للغاية حتى يكون صحيحاً؟

في 26 شباط 1991، وأنا أردني بطلون جيت وقيصاً رجاليا، خطوت أولى خطواتي في الدنيا. واحسرتها! سنكون، لخمس سنوات، مراقبين، وثبتت علينا. حُذر على أبواب العمل المحتملين من إعطائنا فرصة للعمل. استجوب كل معارفنا وأحبّتنا وحتى عشاقنا من قبل جهاز المخابرات المغربي. أهذه هي الحرية؟ كلا: أوصل العيش في السجن، ولكنّه ببساطة سجن أوسع، وعلي أن أتدبر أمري بمفردي. لم أعد أعرف أن أفعل أي شيء. لا بد لي من أن أتعلّم كل شيء من

غيره. يشقّ علي أن أفهم وقت البشر، سرعتهم أو بطئهم، وأهمّهم أو أقلهم. يشقّ علي فك رموز العادات، ولا رباط بالعيش من جديد. السعادة كلمة مقصية عن الحياة. لم أعد أعرف أن أكون الحسنة الطاغية التي كانت قبل ميلادها الثامن عشر في حفلة راقصة باهرة. ملكة أولادها! إنها امرأة أخرى.

كنتُ بلا مسكن، بلا ترخيص للعمل، كنتُ شيئاً حتى وإن استطعت، لفرط العناد، وأيضاً بفضل شجاعة نور الدين، أن أحظى بوظيفة في مجال الإعلان، فقد عشت أسير إلى جانب الجدران مخافة. اليوم أيضاً، أنا شيخ، بيد أن الكرة التي أجزّأها بقدمي غير مرئية.

بعد ساعتين، سألتني من جديد، ماريا أخوتي، التي سيمنحي فراها، في 25 حزيران 1996 من المغرب إلى إسبانيا على متن سفينة عابرة، فرصة أن تعود إلى الحياة. إنها هي من استنقرت الرأي العام الفرنسي، هي التي أتاحت لي أن أجد نفسي هنا، قريبة جداً من العالم الحرّ. جواز السفر الذي في متناولي، هي من أدّين لها به. عمري 43 عاماً وأخيراً بدأ كل شيء.

Ensam

www.rzwitly.com

بدا لي الطيران من الرباط إلى باريس زمناً طويلاً جداً، ومع ذلك لست أنا من يطير، بل هذه الآلة الضخمة، التي ترتج تحت رحمة الرياح. من حولي، هناك العشرات من الوجوه المجهولة، العدوانية، رجال ونساء محزّمين في أرائكهم. مضافات في لباسهنّ الموحد، على شفاههنّ ابتسامة جامدة. الصوت

الرتان للكابتن الذي ما كان أحد ليرى وجهه... وحيدة، تائبة على مقعدي كائني في لجة الخيط، ارتعدت لفكرة أن يحدّق بي هؤلاء الناس، ويسبروا أعماقي، ويبدو رأيهم فيّ. أنا غريبة على السفينة، في عالمهم كبشر أحرار، عالم هجرته منذ أمد طويل لأتبحر في خداعهم. ضاق صدري بشعور بالاضطهاد رغماً عني. لنظرة واحدة، مادت عبر النافذة سماء شاسعة بلا حدود.

انفتح الباب أخيراً على الحرية. نفق ضيق من البلاستيك يربط الطائرة بمبنى المطار. في ذلك الممر المتداخل، تعرّفت إلى وجه أختي، غاصة بين الكاميرات والمصوّرين والميكروفونات الممدودة. طقطقت ومضات العدسات والأسئلة الطائشة بنفس الإيقاع. بماذا تشعرين؟ ما أثر أن تشعرين بنفسك حرة؟ ألدّيك مشاريع تفكرين بها؟ بما سيحصل غداً؟ هل لديك ما تقولينه؟

لدي الكثير من الأشياء لثقال، ولكنني، منذ زمن طويل، لم أعد أجد الكلام إلى الآخرين.

عشتُ حيوات عديدة، حياة فتاة ميسورة الحال، وحياة أميرة، وحياة سجنية. يستحيل تلخيصها في بضعة كلمات! فضلاً عن أن حيواني قلماً أثارت اهتمام الرهيط المتليف الذي انتفض علي. انتظروا مأساة، ودموعاً، وشقاءً. في تلك اللحظة، لم يكن لدي لأعطيهم سوى مشهد الضيق الذي أشعر به. لا كلمة، ولا نظرة. لست أكثر مما أنا عليه.

لم أر شيئاً، تقدمتُ بطريقة ميكانيكية. فجأة، تخطى رجل

بين حاجزاً، رفعتي وذهب بي.  
رؤيتي الأولى لباريس، امتلكتها بين ذراعي إيريك.

## إيريك الشرقي

مَنْ أنا؟ هل أنا تلك التي نُقِلْتُ كَصِرة على متن تلك السيارة؟ هل أنا تلك التي أُطلقها للتو ملكٌ مسجّد، مثل أمة في العصور الحديثة؟ نحن في 13 تموز 1996. لا بد لي من أن استمتع بالمرور في باريس هذه، التي استمتعت فيها كثيراً أثناء دراساتي للباكالوريا. لا بد للحياة أن تستردّ حقوقها. لم يحدث أي شيء. كنتُ خاوية، بلهاء، مقفرة. لفرط ما مُزّق قلبي لم يعد يشعر بأي شيء. إنه بحاجة لصدمة كهربائية. أحياناً، في تلك اللحظات الأكثر قتامة من أي وقت مضى، كنتُ أشكّ حتى في مقدوريّ على الحبّ من جديد. منذ وصولنا، مع رؤوف وسكينة، الحرّرين أيضاً، توقّفنا عند خالتي فوزية، شقيقة أُمّي: تذوّقنا لبن الترحيب، كما تقضي تقاليد الاستقبال المغربية. تعانقنا، وتنسّمنا رائحة الحرية. ومع ذلك، كنتُ ساهية في ذاتي. عندما وصلت إلى بيت إيريك، حينها أدركتُ أن السجن في رأسي فقط. شعرتُ بأنني سجانة نفسي. دون الصبر اللامتناهي لايريك، وحده، ودعمه الدائم، لكنتُ قد أغرّت بالتأكيد. إيريك الشرقي.

التقيتُ إيريك بوردروي في ربيع سنة 1995. حينها، ولكوني محرومة من الحقوق المدنية وبدون جواز سفر، انكبتُ باندفاع على العمل، وذلك أولاً بفضل نور الدين عيوش الذي أخذني على عاتقه لدى وكالة للاتصالات كنتُ مسؤولة الإنتاج فيها. ولأنني قلّما كنتُ أخرج، وحصراً لأسباب مهنية، فكان المنطق يقتضي أن أرفض دعوة صديقي مريم وكميل بن



جلّون لحضور حفلة زفافهما، مع ذلك الموكب من النساء المنزليات بالجلي والمترجات يافراط الأمر الذي لم أكن أطقه. كان كلّ ذلك التكلّف الاجتماعي يزعجني. لو أنني رفضتُ الدعوى، لما كنتُ التقيتُ باريك أبداً. كانت مريم قد طلبت منّي أن أساعدها: ما كان يوسعي أن أقرب. في الصباح نفسه، بعد طقس الحماّم، الذي تذهب إليه العروس صبيحة صديقتهما، تلقيتُ مكالمَةً من إحدى قرياتي، وهي عرّافة متواضعة. قالت لي، متحمّسة:

En5aM  
www.rwily.com

- كيكا، لقد التقيتُ به، ذلك القادم عبر الأطلسي، رجل حياتك.

يا لها من ترّهات! لم أصدّق ذلك. من جهة أخرى، ليس لي حرية في أن أحبّ من أشاء بما أنّ الأمن يستوجب بانتظام كلّ الذين يتقربون منّي. كان دوري مع الأجانب يقتصر على اصطحابهم إلى طائرهم. كنتُ أشعر في كلّ مرة بأنني حبيسة ثياب الغوص، أنظر إلى العالم من أغوار عزلي.

حينما رأيتُ إلى جانبي، على المائدة، رجلاً أثمر البشرة، طويل القامة، بشوش الوجه، له عينان بلون كستنائيّ مبهم، فيهما نظرة مأكرة، وحينما أدركتُ أنّه يتكلّم العربية، استسلمت. من أين

أتاني هذا الأمل الواهي؟ ماذا لو كان هذا هو؟ لم تأتني صعقة الحب. شعرتُ بالمزيد من الأمان والمشاركة العاطفين، كدفعٍ كان يشيع في جُدد. كنتُ أخاف طبعاً، وسأحتاج إلى

دوات كي يتلاشى هذا الخوف الخفوف في أعماقي. طيلة عام، عدّها كان مراقباً يجري التحري عنه، وبالحق، كان إلى جانبي كلّ يوم جمعة، وحينما كان يغادر، كان شعورٌ مربعٌ بالإهمال يهكني ويضني. كان له الجسد في أنيساريني في أهوائي ورويات هدياني، وأن يروضّ الفناء الصغرة المتكررة في هيئة امرأة ناضجة في الأربعين من عمرها، العائقة الكنومة التي كانت تحرم نفسها من اللذة بالإثم. كان يفهمني من الداخل.

ذات يوم، قلتُ له: «ليس لك من الرجل الأوروبي سوى المظهر الخارجي. لك قلب الرجل الشرقي. أنت رجل شرقي.»

لقد ورث ايريك التسامح من عائلة بروتستانتية عريقة متجذّرة في "نيم واريج". والده شخصان غير عاديين. والده، بيير بوردروي، عالم آثار، باحث في التراث القومي للبحوث، لقّبته بالجيولوجي الذي يعثر على كلّ شيء. إنه رجلٌ مسكونٌ بعاطفته، أحياناً إلى حدّ غير واقعي. مع أنّ ايريك قد وُلد في ستراسبورغ، فإنّه كان في الثالثة من عمره حينما وصلت عائلته إلى القدس الشرقية في زيارة دراسية، ثمّ كبر في لبنان حيث كانت حماي فرانساو مديرة ثانوية بيروت البروتستانتية. يا لها من امرأة! جعلت منها شجاعاً واستغفنا المعنوية امرأة تتحمّل مسؤولية دور متميّز أثناء الحرب في لبنان، وتواجه مختلف الأطراف المقاتلة، مسيحية وإسلامية. بل وفنحت مدرستها أمام الفلسطينيين ووجد شقيق عرفات ملاذاً فيها. حينما جاءت إلى مراكش لتقابل خاتمة ابنها، عرضتُ كلّ

مفاتيح لأغربها. كنتُ على فارق إحدى عشرة سنة فقط منها! إنَّها تعرف حكايتي، وتدري أنَّ الأمر لن يكون سهلاً أبداً. تزوجنا في 10 تشرين الأول 1998 أمام بعض الأصدقاء المقربين، في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة، في باريس. شعرتُ بالانقاص بعض الشيء: زواجٌ على عجل، شاهدان، والحيلة كانت قد وقعت. ولكن هل كنتُ قادرة على شيءٍ آخر سوى الارتجال؟ كنتُ قد أنجزتُ ما هو جوهري: دفع إيريك إلى أن يطلبني للزواج!

مراراً عديدة، اختيرتُ إيريك، محرّضةً إياه على هجراني، أنا الآتية بعدم منح طفل، وبعدم كوني من تلك الزوجات المثاليات اللواتي يمنحن النسل. قاربْتُ حينها اللُبحج. كان باستطاعتي التمدد طيلة ساعات، ساهية، غير قادرة حتى على مشاهدة التلفاز. أثناء رحلتنا الأولى، في تموز 1996، إلى ساحل العاج، نزلنا في فندق إيفوار، لزيارة أحد أعزَّ أصدقاء إيريك، الذي كان مهندساً معمارياً مثله. لقد كان المكان كالفرديوس، على الأقل من حيث المظهر. وقفتُ في الشرفة. كنتُ عاجزة عن الكلام وعن توزيع انفعالاتي. كنتُ أرى العشب الناعم، الغزير، فجأة، توجَّهتُ إلى الله، أسأله: ما جدوى هذه الحرية؟ ما جدوى إخراجي من زنزانة، طالما لم يعد لي رغبة في العيش؟ سيعيني إيريك على إعادة للممة تحوم الحياة، تلمَّساً، ويشجعني على الخروج من الخفاء، من هذه العتمة التي طالما كرهتها. لم أكن «شخصاً». سيحتني على أن أتكلَّم إلى العالم، وأروي الرغبة الذي عاشته عائلة لعشرين عاماً. كانت لدي رسالة. ستكون مغامرة السجينة.

ولكن لابد من العودة إلى الواقع العادي. الخروج، تناول الطعام، النوم، ووضع قدمٍ أمام الأخرى.

«البيسي، يا كيكا، سنخرج لتعشّي.» إيريك ذواقٌ وشهيتة مفتوحة، هل نسيت أن أذكر ذلك؟ للأسف لم أعد أعرف متعة الطعام ولذته.

في "الكوبول"، المطعم الشهير في مونبارناس، حيث كنتُ قد تناولتُ العشاء آخر مرة في عام 1972. كان إيريك يعلم، بتدبيره هذا العشاء الأول كعاشق، أنه يحقّق أحد أحلامي في هذه السنوات الأخيرة.

En3aM  
www.rzwily.com

أكان قد توقَّع صمّي المطبق، ذلك الفراغ العميق جداً الذي يجمّد عظامي بصقيعه ويمعني من التفوّك بكلمة؟ أشك في ذلك، ولكننا جلسنا إلى المائدة هناك، وبذلت أعظم الجهود كي أخرج من وهي. ولكن عبتاً. طاقم الخدمة في المطعم بسترأقم البيضاء، طنين الأحاديث، الألوان الحامية، الأنوار، الأطباق المثلثة... لقد أstenي الحرية وتمشّني من الداخل. لقد فات الأوان على كل شيء. أو ربما تحطّمت إلى الأبد. حال كوبول كحال كل الأشياء التي نحيطها بمالة لزمن طويل جداً حتى تفقد بذلك هويّتها الخاصة. كان المكان يُخصّني في الحلم، كنتُ قد تناولتُ العشاء فيه أكثر من مرة، أرسم عن ظهر قلب تقاطيع لم أعد استرجعها في ذاكرتي ذلك المساء.

في ختام العشاء، حل الخوف مكان التعب: نختُ أحد

مديري الخدم يحول على الطاولات ويتحقق بدقة من كل فاتورة. في يده جهاز صغير غريب. انتابني أفكار سوداء، صور اعتقال. بيدي المرتجفة، أمسكت بيد إيريك.

- انتبه، أعتقد أنهم يبحثون عن أحدهما، ربما عن مزور. انظر أنهم يبدقون في جميع الفواتير.

قبل أن يتمكن من إجابتي، توجه المدير نحونا، وعلبه الصغيرة في يده. يادرفي إيريك بابتسامة مطمئنة، ومدة إليه بطاقة، وضعها الرجل في آله. للحظات من الصمت، كنت معلقة

إلى حكمه. أخيراً، خرجت تذكرة من الجهاز مصحوبة بصريخ خفيف، بينما أعاد إيريك بطاقته إلى جيبه.  
En3aM  
www.rzwitq.com  
- شكراً، يا سيد.

نظرت، غير مصدقة، مدير الخدم يغادر، ممسكاً بعلبه العجيبة. إذا كانت قطعة صغيرة من البلاستيك تُدس في علبة يمكنها شراء طبق من ثمار البحر، فإن العالم الذي عرفته قد تلاشى تماماً.

رجعت، وحيدة، إلى ذلك الحى، سان جيرمان دي بري، بحثاً عن هويتي المفقودة. بعيداً عن محق شخصيتي، كان الاعتقال قد حافظ عليها، ربما أعاد تشكيلها، ولكنني كنت موجودة. أما الحرية فقد حرمتني من كياني كسجينة، جعلت مني واحدة من هذه الأشباح المجهولة التي تقيم على وجهها في شوارع باريس بالآلاف. جعلني الخارج خاوية وبعثري، أشعر وكأنني

سفينة من الرمل في مهيب الريح. ولكن ذكرى سنوات السبعينات، ذكرى الصبية التي كنتها، تراود ذاكرتي. ذلك السبح الغابر الآخر، أمل أن أستعيده في الأمكنة التي كنت أرتادها آنذاك، أرضة الحى اللاتيني، اختلات الباذخة في ساحة سان سيليس... تلقائياً، سرت نحو جادة سان جيرمان، تائهة في ذكريات لا أنجح في للمتها وترتيها. ها أنا ذا في محل، إيف سان لوران ريف غوش، كما لو أنني لا زلت فتاة ذات مقام رفيع، لا مبالية، منغمسة في البذخ والرفاهية. للحظة، كان باستطاعتي أن أعقد بأن كل تلك السنوات لم تكن سوى غمرة عابثة، وأن الزمن توقف في هذا المحل، هناك حياة سابقة. بفصل دقيق: لم أعد تلك الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعاً، المتعرجة، الواثقة من فنتها، ذات الشعر الطويل المتسوج، والتنانير القصيرة بقياس تذكرة المرور، التي كانت تبتخر وهي تمر أمام المرايا. لقد مضت الألوان الوردية والزرقاء الفيروزية بعيداً مع الموضة، ولكن بشكل خاص مع رغبتني في الذوبان داخل المشهد. ألبستى بألواناً، لون الأرض، اللون الداكن، الأحمر والرمادي، تروي الكثير عن السنوات التي انقضت بعيداً عن هذا المحل.

- سيدتي... هل يمكنني مساعدتك؟ لدينا هذا النموذج باللون الأسود أيضاً.

أعادي الاهتمام المتكلف للبانعة إلى الواقع. دُعرت فجأة، وضعت الألبسة التي كنت قد نزعتها عن علاقتها، وترجعت. غمرني شعور بالخجل. كذبت. زعمت أنه لا بهد لي من استشارة زوجي قبل أن أشتري أي شيء.



الماضى وغير الضروري يتسبط أمامي. على مدى البصر.  
الريدة... لوحدها تشغل برآداً بأكملها. ذات الملح الخفيف  
والمملحة، النورماندية، 50% مراد دسمة، سهلة الدخن،  
بالحليب الطازج... هناك الكثير منها بحيث تُهتُ بينها.  
عشرات الأنواع، بأغلفة متنوعة، من ورق الألنيوم البسيط إلى  
العلب البلاستيكية، وكلها مزينة بألوان زاهية، ذهبية وفضية  
وجراء. والحليب، المذكور بدوره في قائمة لا نهاية لها: الكامل  
الدسم، الخالي من الدسم، والنصف دسم، والمكثف،  
والمسحوق، في غلب، وفي قوارير، والمجمد في قوالب... لا أتجرأ  
على لمس أي شيء من هذه البضائع التي كانت محرمة في  
الأمس، والتي فاضت فجأة، بعد أربع ساعات من الطيران من  
سنواي الأربع والعشرين في الحميم والمظهر.

— خذي ما تريد، قال إيريك.

ما أريد؟ ليس يوسعي أن أريد شيئاً. يشلني فعلٌ ماضٍ يدي  
إلى هذه الكنوز. أخشى أن أشاهد، في أول لوح من الزبدة،  
ظهور مخبري الأمن الذين قد يتهموني بالسرقَة ويجرحوني إلى  
السجن. كانت دُمى السبت، من حولي، تنزود بلا حشمة  
بالمنتجات التي يرمونها بلا مبالاة في عرباتهم حالما تقع عبوهم  
عليها.

بعد أن زال انهاري، استباحني شعورٌ عميق بالتمرد،  
وأخذ بتلابي. ماذا يفعلون بكل هذه المنتجات الكاسدة  
المنتبهة الصلاحية؟ لم أضل أن هناك في باريس كلها ما يكفي  
من الكروش لانهام نصف كمية هذه الألبان. ما الذي

لم أرجع أبداً إلى ذلك <sup>التي</sup> ذكرى المراهقة  
التي كنتها آنذاك. لو كان <sup>أبداً</sup> أن يضرب صفحا عن  
الماضي، أعقد بأنني سأكون كنت عن ذلك منذ زمن  
حلول.

تقضي الأيام وأنا أراقب دُمى العالم الحر. من الاثنين  
إلى الجمعة، جميعهم في الصباح <sup>وعن</sup> تنفتح الأبواب  
في يوم السبت، يوم التوجه إلى القطر، منقصة على  
المحتاج. لأنه لا بد من التوجه إلى أسواق بأي شيء،  
وع فراغ المراكز التجارية لك، بيسد احتياجات الأسبوع  
المتالي. بدأ إيريك يحملني المدة بعبارة أخرى، يسمح لي  
بالتيك أنضم إلى فيض الأهالي الذين المهاجر. إنه يعرف  
العالم الغريب الذي يمتلئ ذلك، تأثره الناس على إحساسي  
البحر الجريح. ولكن طريق المعافاة، ورغم تحفظاتي، انتهت  
إلى أن أتبعه إليه. عاجلاً أم آجلاً، إنه بمفردي، لطالما  
رصدت ذلك على مسامعي. وكما انتهى إلى الاقتناع بذلك.

سوف لن أنس زيارتي للمركز التجاري، مغارة  
عليها على بابا الاستهلاكية تلك. من الرضائع والألوان  
والصنوبر والموسيقى. كانت أغلًا كل الجهات، كان  
ذلك تلك مغرراً ومبهراً في آن، وتلك أسد وأهرامات وأكواماً.  
نعم، معجج الأدراج المبردة، ويكثف السامع بضائع طازجة  
وغنى خلباً وأكياساً صغيرة... الخ. ذلك كل شيء وبكميات  
وفيرة هيرة.

طيلة حياة كاملة، حُرُّوا ضروري، وما هو

سيحدث هذه الأكساد من الزبدة ذات الملح الخفيف والتي لا يرغبها أحدٌ ربما لأن البقرة الحمراء التي تزين غلافها أقل جاذبية من تلك التي إلى جانبها؟ لم يُحسن ايريك أن يجيبني سوى بالقول؛ ربما سترى البضاعة أو تُصَفَى، لا أهمية لذلك مادامت هي هنا. من من الزبائن، المتزاحمين من حول البراد، يعلم فقط أن قالباً من الزبدة كان يملأ لي، قبل أقل من أربعة أعوام، قَمَّة الرفاهية؟ بدأ زحام العربات وكأنتها تقلد السيارات في الخارج، أصبحت بدوار، فويْتُ أن أجلس.

لمرتين، عدتُ إلى المتجر مع ايريك. ولمرتَين نظرتُ إلى البضائع من بعيد دون أن أتجرأ على الإمساك بها. في المرة الثالثة، ذهبتُ، بناءً على نصائحه، بمفردي، عازمة على أن أقوم بعمل، أن أملاً عريق بنفسي، وأن أقف في الطابور أمام الصندوق، مجهولة بين الحشد. انقضت بضعة دقائق، وأنا أجول بعربة فارغة ببطء أمام المنتجات ذاتها لمرتين وثلاث. بدوتُ لنفسي كَرَبْ أَسْرَة محترم يحوم حول موسم. فجأة، حصل تحولٌ مفعلي. اشتريت. اشتريت كل شيء، مأخوذةً بشهوة مجنونة. انتريت كل شيء، أو الأخرى كل المنتجات الضرورية للحياة، كل تلك، وفقط تلك، التي حُرمتُ منها كثيراً خلال تلك السنوات للاعتقال. وخلافاً للألبان التي كانت يُعلن، نباه، عن احتوائها على 50% على الأقل، من الدسم، لم أكن قادرة على القيام بالتدبير المؤقت. طفحت عرقي بمنتجات محفوظة، وبزيت وزبدة ومسحوق للغسيل. كانت أصغر علبه كورن فليكس، وأكبر صينية فضية للمشروبات، موجودتين

بقطعتين بين بضعتي لذلك اليوم. إن حدث. إن حدث وأنقص المرء شيئاً. من الصعب التخيل بأنه يمكن للمرء أن ينقص شيئاً أمام هكذا عرض للبضائع، ولكن من يدرى؟ مَرَّت بقسري امرأة، يجلس طفل في عربتها. ضبطتُ نظرهما الحاطقة على عرقي، التي كان محتواها أجدر بلجاً استعداداً لاحتمال حرب عالمية ثالثة من مطبخ منزلي.

تساءلتُ للحظات حول أفكار تلك المرأة، حينما لحثتُ صدفَةً طرداً من علب الجبن عليها عرض تخفيض للسعر. حين بورسان بالثوم والطيب، عرض استثنائي على عشر علب. القيتُ نظرة ذات اليمين وذات الشمال، ولحسن الحظ، اكتشفتُ أنه لم يسبقني أحد على تلك الفرصة التي لا مثيل لها. يا لها من صفقة، عشر علب بثمان خمس... لا يهم أن تكون بالثوم والطيب، عادية أو باللفل الحلو. بسرعة، وقبل أن تستولي مديرة منزل أدهي من غيرها، عليها، دسستُ ثلاثة طرود في عرقي، أي ثلاثين علبه من بورسان. وابتعدتُ بإباء، أمله ألا أرغم عند الصندوق على إعادة بعض منها، مراعاةً للديمقراطية.

لدى العودة إلى بيت الأسرة، ملأتُ الفلاجية بعلب بورسان، التي شغلت بصعوبة مساحةً ضيقة جداً بالنسبة لها. واختفت بعض قطع الحلوى التي أحبتها، سهواً، خلف علب الجبن، في العمق وكادت ألا تُرى. إنه رد فعل قديم، لا شك أنه سيكون من الصعب جداً أن أقول عنه: الحفاط على ما يخصني، لأنه لا شيء أكثر هشاشة من الملكية.

الآن أنظر، بتفاخر لا يُخفى، عودة الرجل الذي أحبّ،  
بغية أن أعرض له غنيمي.

- ما كل هذا البورسان؟ هتف ايريك متعجباً، حائراً.

- كان عليه عرض تخفيض الثمن. أحزر بكم اشتريته!

من خلال ابتسامته، أدركت أن عالم دُمى السبت لا يزال  
غير ملانم لي تماماً. وانغلق باب التالّجة على ثلاثين علبة من  
الجبّنة.

www.rzwity.com **الخوف من الآخرين**

إنّها شاحنة صغيرة بيضاء اللون، مركونة أمام سور  
العمارة، مضادة واجهتها بوميض برتقالي اللون. كان السائق  
الذي لم أتّين منه سوى ظهره، مشغولاً بفتح مزلاج الباب  
الخلفي للمركبة، ليخرج منها « البضائع » الضرورية، تلك  
العلب الكرتونية المعبّأة حتى حوافها بالعلّة والبضائع النافهة.  
تُرى من هو الرجل الذي في الشاحنة؟ أهو جارّ، أم مسلم  
بضائع؟ إنّه رجل قصير سمين، رقبته غائرة بين كتفيه، جمجمته  
صقيلة، في الأربعينات من عمره.

لم يشاهدي، وباقترابي منه شيئاً فشيئاً، تساءلت إن كان  
لن يلتفت فجأة نحوي ويطرح سؤالاً أو يلقي التحية عليّ أو  
يتسم لي. ليست هذه المرة الأولى التي أعود فيها بمفردي،  
ولكن حتى الآن، حالفني الخطّ في ألا أصادف أحداً. أو تكون  
هناك امرأة جسورة، تسبقني فاقدي بها وتشجّعني بإشارة من  
رأسها. لبعض الوقت، تساءلت عن الخطوة التالية، مترددة  
بعض الشيء في تركه يفرغ شاحنته قبل أن أعود إلى العمارة.  
كم من الوقت سيلزمه؟ خمس دقائق وربما أكثر. ولكن عليّ أن  
أغلب على مخاوفي وأن أتعلّم العيش مع الآخرين. بعد خطوات  
من الحيرة والتردد، استأنفت سيرتي، عاقدة العزم على أن  
أواجه بمساراة الجاملات المألوفة.

فتح الرجل صندوق سيارته، لم تكن تحوي مواد غذائية،  
كما ظننت، وإنما ثلاثة كلاب ضخمة، تسبح نباحاً يفتّت



الأكباد. لا بد أن الجوَّ حار في الصندوق الخلفي في السيارة، فتصرخ الحيوانات، المحرومة من الهواء، على أمل أن تُطْلَقَ من سجنها. أنا أعرف ذلك الشعور، لدرجة أنني شعرتُ بنفسي قريبة من تلك الكلاب الثلاثة أكثر من أيِّ كان. فضلاً عن ذلك، كان الزجاج الخلفي محمياً بشبك - مرةً أخرى قضبان السجن -، كياب سجن مؤقت، ترى الكلاب من خلاله مناظر باريس المخطورة عليها كالحداثق والأشجار والمرتبات العشبية الصغيرة، التي هي الفردوس الفردوس المتواضع للكلاب المدن.

يبدأ الرجل مزعجاً من نباحها، فصرخ بدوره بقوة بحيث غطى للحظات على ضوضاء الكلاب الثلاثة مجتمعةً.

- كفى! اخرسوا!

شَلَّني الضجيج، توقفتُ جامدة على مبعدة بضعة أمتار من المركبة. حينها أصبح المشهد مرعباً: أمثال السائق، ممسكاً بعصا، ضرباً على يمانه، بقوة وعنق بلا تحفّظ. استحال النباح أنيناً، هسيساً خفيفاً مكبوتاً. كان أنين أحدهم حاداً وكأله نواح رضيع يبكي، وطفعت السيارة فجأةً بالألم. ولا زال الرجل يضرب، بعزم لا يلين، تحت النور الساطع لمغازات سيارته. تسمّى هذه مصابيح الخطر؛ وهو اسمٌ على غير مسمى.

هكذا في عالم الناس الأحرار، يسوّع الألم مجاناً، بلا حساب. لم أعد أحمّل أكثر أنين الكلاب الدليلية، فاقربتُ، يحتاجني شعورٌ من التمرد والخوف الممزوجين. التفت الرجل فجأةً ونظر إلي، مستكراً، والعصا في يده.

- أتريدون صورتي؟

كلاً، لم أرد صورته، أثارت النظرة الوحيدة إلى وجهه اضطرابي وسوف تلازمي طويلاً. سال العرق من جبينه، وتوعدتني عصاه المرفوعة بشكلٍ قاطع.

- ليس هناك ما هو للفرجة، انصرفي.

تردّدتُ للحظة. أردتُ من أعماق كياي أن أنقضَّ عليه، وأنزع سلاحه منه وأرمي بعيداً أداة العذاب تلك، وأطلق الكلاب وأضع نهاية جلسة العقاب بالجلد. ضغط الخوف على بطني، ليس الخوف من الضربات، وإنما الخوف من التوقيف والاستجواب والسجن لتدخلني في شؤون الآخرين. ربّما يكون من حق ذلك الرجل أن يستدعي الشرطة، ويقدم شكوى ويوقفني. فظننتُ إليه مرةً أخرى، قبل أن أترك الحيوانات لحصيرها.

- قلتُ لك، انصرفي.

ارتجفتُ من قمّة رأسي حتى أخضع قديمي، سلكتُ طريقي ودلّقتُ إلى العمارة، مغلقة الباب من ورائي. شعرتُ بنفسي بذينة. في الخارج، عاد النباح والأنين. ولم أستطع منع نفسي من تصوّر ذلك الرجل في شقته الباذخة، يناوب المداعبات وضربات العصا حسب مزاجه اليومي.

- نستطيع استدعاء رجال الشرطة لأجل ذلك، قال لي إيريك.

En3aM  
www.rgwlty.com

عبارة « نستطيع » تعني « أستطيع ». ربّما سيكون

مقدوري. يبدو أنه يمكن للمرء أن يبلغ عن رجلٍ حرٍّ يضرب كلابه... وغالباً ما يكون العقاب ضيلاً - غرامة - ولكنّه يؤدي أحياناً إلى إنقاذ الحيوانات من جلاّدها. وماذا يفعل بها بعد ذلك؟ لا أحد يستطيع أن يقول لي ذلك. تُرسل إلى وِجارٍ للكلاب أو إلى جمعية الرفق بالحيوان حيث تنتظر، في أقفاص، أن يأتي رجلٌ حرٌّ ويبتاعها. أو أن يقع اختيارٌ طفلٍ عليها: أمسي، أريد الكلب الصغير الأبيض. أو في نهاية المطاف، إن لم يتمكنوا من إطعامها، تُحقن بمحقنٍ بضعة نقاطٍ من السمِّ تنقلها إلى عالمٍ أفضل.

En3aM  
www.rgwlq.com

حتى ان عرفت، وان أردت، ما كنتُ لأستطيعُ استدعاء الشرطة في ذلك المساء، ولا حتى في مساء آخر. فالزّي العسكري يصيبي بالتركّز. إنه يرمز إلى القانون والسلطة والقوة الوحشية. يرمز إلى السجن. إن هؤلاء الرجال والنساء الذين يجولون، وهم يحملون على أحزمتهم الترسانة المدهشة من المسدّسات والأغلال والمراوات والقنابل المضادة للاعتداءات، يشكّلون هديداً في كل لحظة. مع مرور الزمن، طوّرتُ مناورات إستراتيجية حقيقية مُخصّصة لمخادعة بقضة الرجال الذين يرتدون اللباس العسكري. كان أغثير الرصيف بدون أيّ سبب حينما أتّره في الهواء الطلق، ويمكن لهذا الأمر أن يتمّ عندما يكون انتباههم منجذباً، ولو قليلاً، إلى مكان آخر. أو أن أفعل ذلك بسرعة فائقة كي لا ألفت الانتباه. هذا هو ما أجهد للقيام به عموماً، حابسة أنفاسي، أملة ألا أصع صغيراً حاداً قد يستترّي في مكاني.

- يا! أنت من هناك!

أتخلّل نفسي، جامدةً وسط الشارع، مصدومة بالخوف، مرفوعة اليدين. حركة سينمائية شاملة، ومثيرة: النسخة الباريسية من Midnight Express.

حينما لا يكون هناك من مفراً، اختار التوجّه إليهم مباشرة، ربّما لتهديئة ريتهم، أو لأضع نهاية للخوف الذي يؤلمني: إن كانوا يريدوني، فليقدوني إلى السجن. لقد مللتُ الفرار. هكذا وجب عليّ التوجّه إلى أكثر من نصف رجال شرطة العاصمة، بالحجج الأكثر تفاهة. أفقطني الخوف حيلسي: أسألُ كيفما كان عن الطريق وعن الساعة وعن درجة الحرارة، وعن أوقات إغلاق أبواب أنفاق المترو. وأحياناً، أسأل عن كلّ هذا في الوقت ذاته. غالباً ما يجيبون عليّ، وهم يفرسون في كحيوان فريد.

- هل أنت بخير، يا سيدي؟

سأكون أفضل حالاً من دوغم، ولكن ليس بوسعي أن أقول لهم ذلك. ولا بوسعي أن أعترف لهم بأن هذه المرّة الثالثة التي أسأل فيها رجالاً باللباس العسكري عن طريقي. نفس الطريق. ونفس العنوان، وكلّ واحد يجيبني بنفس الاهتمام، بحيث يكاد أن يعزّز ريتي. فليس لديهم وسيلة فضلى لخداع العدو، مثل جعله يظنّ بأنهم يبذلون أقصى جهدهم ليظهروا لياقتهم. وحتى إذا كانوا من يبدون بأنهم كذلك، فيوجد الزّي العسكري، لم أعد أفكرُ؛ فأنا خاوية، أنا وعاءٌ للغمِّ، أنا أشبه بكلِّ أمام عصا.

- إيه، ما الذي أصابك؟

كانت شرطة متطوعة شقراء قصيرة وكبيرة الفك، وتساءلت أن كانت غالباً ما تستعمل ذلك المسدس الضخم الذي يكاد أخضه أن يبلغ أسفل صدرها.

جاء أحد زملائها لنجدتها، ساعدي في استعادة توازي، وناولني حقبي التي سقطت أرضاً. راقبتهم بنظرة قلقة ساعة إلى أن أكتشف في عوهم وميضاً للبربرية التي لا توجد فيها.

- هذا من عدم الانتباه يا سيدي الصغيرة، ألم تري أن الإشارة كانت حمراء؟

في معرض ردي، اندفعت في خطبة طويلة ملتبسة ومعسولة، مزيج من التبريرات والابتهاج المزعوم والتملق. اعتذرت عشر مرات. تكلّمت حتى أفكهنهما. تبادلنا نظرة مفهومة، قبل أن تقاطعني السيّد بلطف:

- كوني أكثر احتشاشاً، بعد الآن. أتعرّفن كم دراجاً يُقتل سنوياً في باريس؟

ها أنا ذا أنطلق من جديد، مصابة بدوخة خفيفة. تركت متعة الدراجة مكانها لتوتر خفي مصبوغ بانفراج خفيف. أغلّدت، وكأنني في السينما، تقيل المشهد الذي ينتمي الآن إلى مجموعة ذكرياتي... وشعرت بالخجل يعتريني، واهرت وجنتاي. في تلك اللحظات، كرهت تذلي، ذلك الميل الجامح إلى تلميع أحذيتهم إلى أن أجد صورتي فيها. عاودتني كلماتي، مشوشة، طفلية، تثير الرثاء. استعرضت اعتذاراتي وأعداري. كم وددت

- إلهم هنا لحمايتك، تردّد صوت في رأسي، ولم ينجح قط في إقناعي بذلك.

En3aM  
www.rgwlty.com

بعدني من مارايه، حيث تناولت الغداء في حي صغير هادئ جداً كان كما لو أنه خارج من ذكرياتي، ركضت بأقصى سرعة نحو البيت. بدا لي وكأن السيارات والدراجات والمشاة جميعاً يحومون من حولي. أحب الأحاسيس التي تسببها لي السباقات على الدراجة، ذلك الشعور بالنزج على الزفت بلا قيود ولا إكراه. في السيارة، أكون حبيسة. مشياً على الأقدام، أكون محكومة ومراقبة ترصدي الأعين. عبرت على الدراجة، مسرعة بحيث لم يُنح لأحد الوقت الكافي لمعاينة وجهي. تحرّرت من قوانينهم وأنظمتهم، لم أفعل سوى المرور بعالمهم. ولكن عند أول ملتقى طرق، أمسك بي الواقع من جديد، بشكل خاطف جداً بحيث كدت أن أفقد حياتي هناك. أبعد من ذلك بقليل، قطع شاحنة صغيرة للشرطة الطريق، حاجبة عربة أخرى مركونة بالعرض. مرة أخرى إلهم هم! تدافعت الأفكار وتصادمت الكلمات في ذهني، تكاد تفقد معناها. توقّف، توسّط، جريمة... نزل أربعة عناصر شرطة من الشاحنة، بينهم امرأة. يبدو أنهم يوقفون أحداً. أو ربّما تكون مجرد مراقبة، لا أدري. ولكن المسألة هي أنني لم أشاهد الإشارة الضوئية، وأني انقضضت عليهم، ضاغطة بقدمي لمقابض الكابحات. بالكاد تباطأت دراجتي، عبرت ملتقى الطرق وسط جوقة من التزمير وألّحت جولتها إلى جانب شاحنة الشرطة، محدثة دويّاً مزعجاً بارتطامها بصفيحها.



أن أكون متكبِّرةً ومتعطرسة. كم وددتُ لو أنني كنتُ ندًا لهم. لو أن الحرف كان ينحصر في الزيِّ العسكري، لكنتُ الأكثر معادة من بين النساء. بسطت باريس أصام ناظريَّ مشهد عنوانيتها، حرب الخنادق اليومية لسكانها الساخطين. لقد قضوا سنوات في الاستعداد للقتال وتحويل الأطفال الذين كانواهم إلى راحدين متطلبين، رافعين عاليًا ألوان حروبهم الصغيرة. لم يهينني أيُّ شيءٍ لذلك.

على أوصفة المقاهي، يُرعبني التَّذُلُّ الباريسيون المشهورين، المحرَّمين بزِيَّهم الرسمي الأبيض والأسود، أكثر من رجال الشرطة. يجرّد فكرة ذهابي للجلوس في مقهى، أخشى نظراتهم القليلة المزودة. كم من مرّة طلبتهم بصوتٍ خفيضٍ ناعمٍ؟

- من فضلك!

عمرُ الطريق، وهو يكاد أن يمسي، متظاهراً بعدم رؤيتي.

- يا سيّد، من فضلك...

- انتظري دقيقة!

أكثر من أيّ كان في باريس، انتظرت. انتظرت لسديقتين، لعشر دقائق. انتظرت من الدقائق ما لا يحصى. معظم البشر الأحرار يحافظون على علاقة تبعية أليمة لساعاتهم ومتبهاهم، وهذه الإضافة التي تكاد تكون مادّية تدفعهم إلى جمع كلّ ثانية كما لو كانت الأخيرة. لديّ الوقت الكافي. ولكن يرعبني ذلك

السقاء الشقيف، تلك العيون الخالية التي تعبر من خلالي كما لو كنت نافذة مشرعة على العدم.

جنح الطريق نحو طاولتي على مضض، بعد أن خدم الدنيا بأكملها وتحدث في السياسة مع بائع صحفٍ.

En3aM

www.rewily.com

- ما الذي حدث؟

ما الذي حدث؟ ليس مهمًّا. فمهما كان الأمر، سوف يمثل له باثمنزازٍ وغيظ. على الحفاظ على هدوئي. هناك شيفرة ضمنية غريبة بين نادل المقهى الباريسي وضحيتي، علاقة هيمنة تعكس الأدوار. أدفع المال لكي أكون مجهولةً، لكي يُصرَّخ في وجهي. أدفع لكي أعامل باستعلاء، لأرى بأنني لا أقدر إطلاقاً. بعد ذلك بسنوات، سأعلم من خلال التواصل مع الأجانب، أولئك الأناس الأحرار القادمين من بلدان أخرى، بأن هذه الظاهرة النموذجية خاصة بالعاصمة الفرنسيّة، وأن نادل المقهى أيضاً رمزيّ هنا كرجل يفيل.

منذ ذلك الحين، أخشى المواعيد في المقاهي التي أصل إليها دائماً قبل الموعد بنصف ساعة، حيث أن فكرة وصولي متأخراً لا تُطاق بالنسبة لي. حتى قبل أن أجلس، أستعدُّ للمواجهة، أستعيد أنفاسي وأركز تفكيري. وكأنني ملاكٌ. ماذا لسيّ لمواجهة العدوانية السافرة للسكان الأصليين؟ تربيتي الإنزاسية في القصر، الراسخة في ذهني والتي بقيت متجذّرة بقوة في أعماقي.

- كوني أكثر عدوانيةً، قيل لي. لا تنهائي.

ولكن لا تزال أنظمة حياتي الجديدة تفوتني. لدي القليل من السيطرة على الأحداث بحيث لا يمكنني سوى ابتلاع كيرباني ومدة خذي الآخر. هذا ما يفعله المسيحيون، على الأقل نظرياً، ليظفروا بالفردوس. وإذا كان هكذا يُظفر به، فقد ظفرت به ألف مرة، وأستحق أن أجلس إلى عيني الله وأعني مع الملائكة لأنني لقاء كل صراخ، أعطيت ابتسامة مهذبة، ولقاء كل حساب مرمر في وجهي، شكرت، ولقاء كل تعليق مستفز، تركت بخشيشا.

شيئاً فشيئاً، غدت باريس مدرسة للعدوانية. تعلّمت فيها أن أعد ترتيباتي، وأنا أراقب بعناية الناس الأحرار الذين يتورون لأدنى مضايقة يتعرضون لها. عاجلاً أم آجلاً، سيتلاشى خوفاً وسأرد الصاع صاعين. على الأقل هذا ما أتمناه، لا أحد يستطيع العيش إلى الأبد مع الخوف، ولا حتى أولئك الذين عذبهم الخوف طيلة صباهم.

سيكون المتجر الكبير (السوبر ماركت)، تلك الرحبة العملاقة لمقاتن الاستهلاك الظافر، بمثابة الملعب الأول للتمريض. عند نزولي من السيارة، أدركت أنني أدخل الحلبة. لدى المستهلك الكبير (هكذا لقبّ المستهلك بالجملة) فكرتان رئيسيتان في ذهنه: الانجاز السريع، وعدم السماح بتجاوزوه. وليس للإنسان الحر، مع أنه حر في الذهاب إلى حيث يشاء، ومتى يشاء، وكيفما يشاء، سوى هاتين الفكرتين في ذهنه. بسرعة دائماً أسرع. فيما مضى، أثناء فرارنا، ونحن نعبر الأحياء الشعبية للدار البيضاء، كان الميكانيك المجنون للمشاة

كانوا يسرون دوغما هدف قد أذهلني، ولو لم تكن حياة في طرف مأسوي، لكن قد قهقته ضحكاً. كانوا يسربوا الفلين ورووسهم مثل العمال المستيرين في فيلم شارلي شابلن امرأة الحديثة.

في اللحظات الأولى، سحرني مشهد أولئك النساء المرحلات في سياق حقيقي للعربات دون أن أستطيع الدخول في الدوامه. كانت العربات مشبوبة إلى بعضها، مربوطة سلسلة لن تفك إلا بوضع قطعة نقدية في غلبة صغيرة. من حسن الحظ، أدركت الحيلة بسرعة، بما أن حشداً كاملاً قاموا تحت ناظري. يتدافع الناس، وتجر العربات بقوة كبيرة تدفعها صريراً يفتت الأكباد. أبعد من ذلك بيضة أمتار، يجلب مسهلون كبار آخرون عرباتهم، ويشبكونها بصخب جيتن بدوري، تفقدت محفظتي، وتشبكت بقطعتي النقدية كما لو أنها ليرة ذهبية (قليل لي كثيراً أن أحذر اللصوص)، وحاولت بناء أن أمتلك مركبتني لأخطف في السياق.

جرت سباقتي بشكل أكثر من جيد، حتى أنني كدت أن ألهو بالاسترخاء. إنه أمر سهل جداً أن يقود المرء عربته بيد ثانية وأن يتوقع حركات التدفقين من كل الجهات ويستيقظها لم يعرف السكان الأصليين، المنهكين في سباقهم المضموم، الفاتم، ولهذا فقط، كنت سعيدة بمجيئي. أغمتني التجاهل بالتأكيد، ولكن على نحو أقل من المواجهة المخطمة مع الأهالي، وواقع أن أجند نفسي أمام ضرورة رفع الصوت وفتح طريقي في الزحمة. حينها، كانت الأمور تسير سراً ألياً بحيث ظننت

نفسي على <sup>من</sup> انسللت إلى موقع متقدّم في الطابور، حينما ظهر <sup>من</sup> في يهولة عربية خدمة غاصّة بالضائع، قافلة حقيقين تتقدّم طلائعها امرأة ضخمة بثوب مزهر بلا تباين تلك الكومة المائلة من الأطعمة دون تباطؤ عند <sup>من</sup> وصدمت رجلي ساقى لدى مرورها. كان الألم حينها بعض الشيء. رفعت نظري، مضدومة، <sup>من</sup> لم تتوان عن صغي بنظرها. ثار سخطي، ولذّة، انقبضت معدتي وأسبلت عياني. كانت تلك <sup>من</sup> بالنسبة للمرأة البدنية التي استفادت منها لتعجل <sup>من</sup> من جديد، ومؤخرة العربة، هذه المرة، صدمت ساقى <sup>من</sup> شديدا جدا إلى درجة أنّه جعلني أرتعد. وتلا ذلك <sup>من</sup> أخرى، ولكن لم تنفك حتى مجرّد كلمة اعتذار <sup>من</sup> المضمومتين.

حينها <sup>من</sup> في داخلي، هيروشيما مصقّرة كنتس - مؤلّث - شكوكي وخاوفي وترددي وحيرتي. أخذت أشتبه <sup>من</sup> بالعربية، بشراسة شديدة بحيث شعرت أنّي سأطعن <sup>من</sup> مرة واحدة، لم أتعثر في كلماني، فضلا عن أنّها تدفق <sup>من</sup>، سيلا عارما، دفقة حمض حارق، ولا يهمّ <sup>من</sup> لم <sup>من</sup>. في نظري، وجب على السخط أن يخلّي مكانه <sup>من</sup> نبالا - أكان يجب انتظار الذهاب إلى متجر كبير <sup>من</sup> بالكراهية؟ إلى درجة أنّ المرأة انتهت إلى الترام.

- هذا غثّ لابة من استدعاء حارس، صدر صوت شائخ <sup>من</sup> جهة الطابور.

هذّاني التعلّيق على الفور، وكأنّه قد ألقي عليّ دلو من الماء البارد. من جديد، فكّرت بالسلطة والزيّ الرسمي والجنّة، والاستجواب، كلّ تلك الأشباح التي تطاردني منذ أن وضعت قدمي خارج سجن. نصب سيل الشتائم في فمّي، ويجهد جهيد، لم أترك مكاني في الطابور، هذا المكان الذي ظفرت به <sup>من</sup> عنة. أهو انتصار جيّد؟ أجهل ذلك. ليس هناك ما يُحسد عليه المرء في أن يشبه دافعي العربات. ولكن خالطني شعور غامض بأنّ ايريك سيكون فخورا بي، لكوني للمرة الأولى، سوف لن أعيش عار <sup>من</sup> الحّد الآخر.



## هيبيرناتا في باريس

عدت من جديد، إلى مقهى لو فلور، عش الذكريات، حيث أستعيد كما ليس في أي مكان آخر، الذكريات الغامضة تلك التي كان بمقدوري أن أكونها فيما مضى. اليوم، أنا مختلفة جداً بحيث يبدو لي أنني قد أراها جالسة هنا، إلى طاولة بجانب، دون أن أعرف إليها، دون أن أعرف إلى نفسي. ولكن، وأنا في لا فلور، أكاد أكون كاملة بلا تغيير، متجددة، خليطاً، لا أمل دون التحام فرضوي لطيش الماضي وعُصاب اليوم. هذا الملهي، الذي لا يزال غائماً بالدخان ومكتظاً بالناس، بالنسبة لي بقايا نكهة حلوى مادلين... إنه صلة وصل بين عالمين.

في المرة الأولى التي وجدت فيها ديكور لا فلور، فاضت الدموع في عيني. جلستُ بخجل، طلبتُ فنجاناً من القهوة كما كنتُ أفعل إبان تلك الأيام الهائلة، وارتشفته برشقات صغيرة، مستلذة بطعم مرارها. لوقت طويل، بقيتُ ساكنة، تأنهتُ تَهَبُ ذكرياتي. كان الهواء مشبعاً بدخان السجائر، كما في السابق. قلماً كان الصخب المكتنف، المصم للآذان، يضيقني، ربما لأنه كان ينبعث من الديكور. كان الجميع أشبه بالطياريق أكثر قبحاً من أي وقت مضى، السياح الذين يتدافعون ليحاذوا أشباح سارتر، ومثقفو الحى الذين يأملون أن يحذوا حذو أجدادهم، والطلاب الأثرياء، وعابرو السبيل المذهولين بكل هذا الصخب المثار في المقهى.

En3aM

www.rqwity.com

\* لقد استخدمت الكلمة هذه إشارة إلى "البيات الشتوي" أو "البيات" أو "التخفر" وهو النوم الشتوي لدى بعض أجناس الحيوانات.

En3aM

www.rqwity.com

كانت حلدو ، لئود الصالة وفية بالله كراي بحيث بدا لي  
وكانَ الزمن قد توقّف بمقهى لولم، لئاما مثلي، وكأنه عاش  
بإيقاع الأزل دون أن يأتني أن يضحي بغير نصر غريب علي. وكـم  
كان مؤثراً ذلك القلعة القدر من التضام، صعدت السلم باتجاه  
المغاسل، ويدي تزلزلت لتتعلق على الدرابزيني وكأنها تداعب  
كف صديق قديم. وأهم. ولكن لدى ابرون المغاسل، أخذ  
الصديق القدم يضرب ضحك هازناً. لأنني أن أغسل يدي، ولم  
يكن هناك لا صنوبر البينور الماء الدافئ لانسور الماء البارد، ولا  
حتى خلّاط عجيب سب على شكل مشبك في مغطس ايريك.  
« لا داعي للذعر، هـ »، قلت في نفسي، أبحث من الجهتين عن  
المغسلة التي كان فيها ينفضها الصنوبران به.

ولكنهما لم يكونا ليكونا في آية جهنم بالضيق، تحققت من  
أن لا أحد قادم قبل ١ ليل الالهماك في تدهصكة. أتكون هذه  
الأزار على الحائط؟ أظن؟ كلا أنها لوليا يديرها أحد قط  
للحصول على الماء. هـ. هناك أيضاً قبة، مغرزة بساق يعبر  
الحائط. لا شك أن المكان الأمر يتعلق به جديدة: تُسَدُّ نحو  
اليسار للحصول على يغلى الماء الساخن المين للماء البارد.  
وما أن طبقت نظريتي، بقيت، حتى وجدته يدي امتلأت بالصابون،  
لأن الكرة السحرية لم آتية لم تكن سوى سنان مرسيا اللدي. وأنا  
في تلك الحالة من الحيرة والمهانة، فله زبونة أخرى ابتسمت  
لي بشروء، فرددت عن عينا بإيامة مرسيا مخفية يدي الملتين  
بالصابون تحل ظهري. يبري.

شاهدتها تمرّ يديها يديها تحت الماء، بكلهما بالصابون بعنف،

لم تدخل الحمام. سمعت، غير مصدقة، الباب يغلق بينما لا  
يزال الماء يوشح. هكذا يسيل الماء للآخرين ولكن ليس لي...

بقي لي القليل من الوقت قبل أن تخرج الزبونة من الحمام.  
من جديد، انخبت، وقفت في المغسلة ومحيطها. أين يا سري  
« سقطت » أيكون هناك دواسة على الأرض؟ لا يمكن للماء  
إدراكها، أو ربما أخضع الماء الذكي. بعد نفاذ جميع الوسائل،  
جنوت على ركبتي لأفشف في أسفل المغسلة. أيكون هناك زر  
مخفي فيها؟ لن يفشي لي سر الصبورة السحرية سوى أنبوبة  
كنت أتبعها كخط توجيه. منهكة في اكتشاف مثل هوارد  
كارتر في اكتشافاته حول آثار الفرعون توت - عنخ آمون، لم  
يسعني الوقت لأفحص حينما خرجت الزبونة من الحمامات  
وألتفت علي نظرة ملتها الاندهاش. تلعنمت، وغمغمت،  
واختلقت لنفسي قرطاً ادعيت فقدانه لأبرر وضعي. انخبت  
السيدة الكريمة، متعاطفة معي، بدورها متظاهرة بالبحث عن  
قرطي، رغم احتجاجاتي.

- شكراً يا سيدي، سيكون الأمر على ما يرام، سأعثر  
عليه.

استغلت السيدة ذلك لتتحقق من أن قرطتي في أذني،  
مرغمة بإي أن أغوص في كذبي. جاثية في حمامات عامة لمقهى  
من مقاهي سان جيرمان، اختلقت في الحال زوجاً آخر من  
الأقراط، ادعيت أنها كانت موجودة في حقيبة يدي، الحقيقة  
التي كانت قد فُتحت سهواً، وسقطت منها على نحو مفاجئ  
قطعة مجوهرات كنت أخص بها اختي. فحُضت الزبونة، مقتنعة

أصاعده العالم في اختراع موزعات الصابون، كان من الممكن أن يستثمر في إطعام الجياع، أو اختراع الخلاصة الأساسية من الحزر أو رفق طبقة الأوزون. ولكنني لم أبلغ نهاية مفاجئ. فما اعتقده من النادر، هو، ببساطة العالم كما هو عليه الآن...

لم يزل شيء يدعي أن أقترض أن ملوك العبيث قد عاشوا في باريس تغييراً إلى حد أن المدينة ستحول بالنسبة لي إلى ديكور من خارج الأرض، غير قابل أن أخلص منه بدون دليل طريقة الاستخدام. أهو الافتان أم الضيق، لا أدري أي من أحاسيسي اتباني أولاً، بيد أن أمراً واحداً كان واضحاً: أنا طفل، وليد جديد في جسد امرأة بالغة؛ بعد قليل، ربما سيكون علي أن أعلم استخدام شوكة الطعام.

ترعى الدولة - الحامية أدق شؤون حياتنا. لقد أبلغت أن كل نفقات أمراض، الخفيف منها والعضال، سيتكفل بها، من الآن فصاعداً. «الضمان الاجتماعي» وهو جهاز إداري هائل، يسدد لقاء قليل من الوقت ورقة ثبوتية تقدم إليه، كل التكاليف، حتى قيمة القطرات التي يقطرها المرء في أنفه بين عطستين.

- عليك الانتساب إلى الضمان الاجتماعي، قيل لي، دون التجزؤ على الإفصاح بأن السنوات التي قضيتها في السجن قد جعلت حالتي الصحية سيئة بالتأكيد.

لست الوحيدة التي تعاني. لا نزال نحمل على أجسادنا آثار تلك السنوات الرهيبة. تعاني ميمي من نوبات صرع ترديها

إلى حد ما من خلال سيل الكلمات، ومتشعبة بالفواصل، ألقت علي نظرة ارتباب، ثم مررت يديا تحت الصنوبر. حصلت المعجزة للمرة الثانية، وأخذ الماء يسيل. وأنا جاثية على الأرض في وضعية التلميذ، أدركت بالله يكفسي أن تمرر يايدي تحت الصنوبر كي يأتي الفرج.

عادت الزبونة إلى طاولتها، وبقيت وحيدة من جديد. هطت يداي بالصابون الخاف، وتلبس الخجل كامل كيائي، خلفاً كبريائي بكفن سميك. مررت يدي بجلود تحت الصنوبر، بانساب ماء فاتر يتلذذ بين أصابعي. يا إلهي، هل انقضى قرن لكي يتخلى العالم عن الصنابير، لكي تراك المغاسل من تلقائها أنت قادم؟ هل بقيت وقتاً طويلاً جداً في حالة سبات؟

تساءلت مطولاً عما تكون قد آلت إليه الدنيا في الخارج، إذا ما ساكون قادرة في وقت ما على أن أتلام مع العقليات الجديدة، وأندمج في المناقشات، وأفكّ طلائسم لغة العاعة الاختصارات والمصطلحات المكتوبة بالأحرف الأولى. ولم أكن أدري إن كان أبناء جيالي لا يزالون مناسين لي، إذا ما أثيرت كبرياتنا المشتركة. هل سيكون بمقدوري أن أهتم من جديد بالأخبار والسينما والسياسة؟ كل هذه الأسئلة، طرحتها على نفسي لمئات المرات. ولكنني لم أهتم فقط بمستقبل الصنابير. لا يكن لأحد أن يتصور بأنه سيأتي يوم يسيل فيه الماء من الصنابير بقاءياً.

فالعالم قد تزين بكل أنواع الأدوات والأجهزة، ولم يطلع أن أمتع نفسي من التفكير بأن كل هذا الوقت الذي



أرضاً، وأصبحت ماريا بالسرطان، ويعاني رؤوف من التهابات رئوية انتانية، وأصغرتا عبد اللطيف، وروحته هي التي أخذوها قبل كل شيء.

الانضمام إلى الضمان الاجتماعي مسألة بسيطة، مجرد بعض الإجراءات. ساعدني إريك في ترتيب أوراقه، الأوراق الشهرية للسكن والميلاد والكهرباء والتلفزيون، أي شيء إداري، إذا صح القول. تكدست كل تلك الأوراق في محفظة، هي عبارة عن خروج بلاستيكي يحوي كل ما أنا عليه، مترجماً بالأرقام والرموز. يشبه مركز الضمان الاجتماعي، الذي يقع في طريق غير نافذة ويتوارى خلف الأحرف الأولى من اسمه الذي لا يُلْفَظ، هو محطّة. لم أعد أبداً على الكتمان، وفي الحال، أخذت بتلابيبي رائحة التشوش والضوضاء والانتظار والضغط النفسي التي سامت وتوعدت. ماذا كنت قد تحيلت؟ مكتب صغير، حال، بعض النباتات الخضراء، مضيئة بانبساط ودودة، واسمي بحروف كبيرة على بطاقة دعوة...

المكتب الصغير العادي غير موجود. عوض ذلك، توجد غرف زجاجية فردية يستقبل فيها موظفون بدا عليهم الإرهاق الناس بين بابين. يجلس الزبائن - أيقال الزبائن بالنسبة للضمان الاجتماعي كما بالنسبة للمتجر الكبير؟ - على كراسي مستقيمة استقامة العدالة، وهم يقيمون الحجج ويتلوون، ويقومون بحركات مبالغ، ويدوسون على حقائبهم الـ تاني

\* استخدمت الكتابة عبارة aquarium لتشير إلى المكاتب المستقطعة بالواحد من الزجاج والخشب داخل مسألة كبيرة، وهي مكاتب صغيرة ومفتوحة تستخدم اليوم بدل المكاتب الكلاسيكية المولدة من غرفة منتلة

وأن يتبينوا ذلك. ولكن قبل بلوغ المكاتب هناك صالّة، صالّة فسيحة مفروشة بأرائك زرقاء يستسلم فيها رهط حقيقي الرياضة المفضلة للناس الأحرار: الانتظار. شعرت بأن العيون اعاني، إلى درجة أن خدتي أحمر: لماذا أنا الوحيدة التي أمكت والهة، متشبثة بجرحي النفس؟ كلما بقيت جامدة هنا، كلما أزعجني ثقل النظرات. سرى خدر غادر في ساقي، وصعد إلى أعالي الشوكي. بدا لي أنني سأتحجر هنا، وأزّين إلى الأبد هو الضمان الاجتماعي، منصوبة على قاعدة، سئبت عليها شاهدة لبر تخليد لذكرى المشردين عديمي الجنسية.

دوى رنين خفيف، في الحال، اتجه ثلاثون زوجاً من العيون كعين واحدة نحو ساعة حائط، تترع في أعلى المكاتب، أعلنت عن الرقم 164. قام شخص لم يُنادى باسمه، عبر البهو ودخل إلى مقصورة.

164... إنه أمر محير، تساءلت عما يمكن لهذا الرقم أن بناظره. أليكون المقصود دعوة في ساعة محدّدة؟ هذا مستبعد، بما أن الساعة هي الآن 11 صباحاً، وأن الرقم 164، وإن فكّك بكل الاتجاهات، سوف لن يعطي سوى الساعة 16:04، لا بل 16:40، وهذا لا يتوافق مع الرقم المعلن. تبقى نظرية الأرقام الخدعة، الخاصة بكل «زبائن» هذه المؤسسة المحترمة. ربّما يكونوا قد رُغموا، ودُمغوا كسجناء - لقد قيل لي بأن رقمي المستقبلي للضمان الاجتماعي سيُبدل كجواز مرور في كل إجراءاتي المهنية. انقبض قلبي: ماذا لو كان لهم جميعاً رقم، وأنا ليس لدي؟

الجميع: الأم، البنت، الأبناء، الأعمام، الأجداد! ليس لديهم حتى الأوراق الأصلية، وتسددون لهم المستحقات كاملة. ومن الذي يدفع؟ أسألكم أنتم عن هذا؟

العربية التي هي أنا، تنظر باحتشام في ركن من الباب الذي خرج منه «الزبون» المسلوب مختالاً في غطرسته، ليس دون توعد الموظفة بصواعق الجحيم بل وأسوأ، برسالة مسجلة. أثار الفتاة شفتي، تصوّرت نفسي في مكانها، وقد أشيعت شتماً من قبل وغد دون وجه حق. وإن لم يكن الأمر سوى هذا: كيف تصرف هذه المرأة الحرة لتقضي ثمان ساعات يومياً تحت لمة نيون، في مقصورة وردية اللون مزججة، حيث يأتي كل واحد يحملها كل مصائب المؤسسة؟ أخذتني حاسة مفاجئة للضمان معها، فشعرت بمخاوفي تكاد أن تتلاشى، وبلطافة عفوية كافأها بعبارة: صباح الخير يا سيدي العزيزة، والسعي بالكاد جعلتها ترفع عينها.

- 190 -

شأنني السؤال في الحال.

- عفواً؟

أشارت بضيق إلى المعلن.

- 190. إنه أمامك.

ويتأثر تربيته السليمة، شرحتُ أنني، لسْتُ الرقم 190، ولا أي رقم آخر، وأني ببساطة جئتُ أنتسب إلى الضمان

حينذاك، غادر زبون إحدى القصورات واتجه نحو المخرج. وفي الحال أعلن الحاسب عن الرقم 165، مع نفس ذلك الرنين الخافت. نهض الشاب الرتدي لسترة رياضية، مرّ من أمامي ملقياً عليّ نظرة تحدّ، دون أن يخفض صوت مسجلته المحمولة. لقد اتضح كل شيء... إنه الزبون رقم 165، لا يهم كثيراً إن كان في اليوم، أو الصبيحة، أو الأسبوع. ولكن، كيف عرف ذلك؟ ربما، اعتادوا على أن يحسبوا فيما بينهم، ولذا كانوا جميعهم ينظرون إليّ بظفر العين. كنتُ، بلا شك، وأنا واقفة وسط العدم، أخل بحسائمي. جلستُ، بذهن مشوش، عازمة بثبات على أن أدهمهم جميعاً يمزون. ولكن للأسف، كلما ينصرف بعضهم، يصل آخرون إلى الصالة، وتالت الأرقام على الشاشة دون أن يعرني أحد أدنى اهتمام. واقفة، كنتُ موجودة. جالسة، لسْتُ سوى أثاث. 170، 180، 190. رأيتُ أناساً يذهبون، ويأتي آخرون. كنتُ كعامل حقيقي في مرفأ. وإذا أصبح ذلك فوق احتمالي، جازفتُ بالاتجاه نحو المرايا سعياً للإشارة إلى حضوري. بذلك أقسى جهدي لأخفي تشنّجي، وانتظرت. انتظرت طويلاً. انتظرتُ أن يشرح «زبون»، طيلة خمس عشرة دقيقة، الفاجعة المرعبة للبريد الذي لم يتلقاه أبداً، والذي - على ما يبدو - سيحرمه من الدفع الذي يحقّ له. كلاً، لم يرسل شكوى. كلاً، لم يحتفظ بنسخة ورقة الرعاية خاصته.

- ولا أتحدّث عن العرب، الذين لم يعملوا قط بحسائهم، والذين ليس لديهم أيّة مشكلة في استيفاء حقوقهم. هؤلاء أناس من أعرفهم. يُعطى لهم هذا - أشار إلى معصمه - ويتنهدون بأن يأخذوا منك يدك كاملة. ولا يكتفون بذلك، بل يقبضون عن

الاجتماعي، ولم أبلغ قط بأنه كان هناك حاجة إلى رقم، وأنني سأكون ممثلة لها إن أرشدتني إلى فن وطريقة أن أكون مدموعة بدوري، كنور في المسلخ.

نظرت إلى الأتيلية\* بلا قلق، دون أن تتخلى عن برطمتها المشتتة.

— لا أفهم شيئاً. ألم تأخذي رقماً؟

— لا، يا سيدي.

— خذي رقماً، قالت لي مشيرة إلى آلة في المدخل، لم أكن قد ميزتها عن مُطْفِئَةِ الحريق. وانتظري إلى أن يُنادى لك.

يوجد الوجه الآخر للعالم المعاصر تحت أقدامنا. مساحات شاسعة من المعارض والمزاريب والأنفاق ومداخل المشرو ومواقف للسيارات تحت الأرض، تغوص بعمق مستويين وثلاثة وأربعة وأحياناً خمسة مستويات. لم أستطع الامتناع عن التفكير بذلك، حينما تجولت في طول جاذات العاصمة المكتظة بالناس. إنه عالم حقيقي يمد بضعة أمتار في الأسفل، عالم من الظلمات يجهل أشعة الشمس الصيفية. سرعان ما لاحظت أن البشر الأحرار ينفرون من المهيوط إلى تحت الأرض، كما لو أنهم قضوا فيه قسراً كبيراً من حياتهم. تبلور السرايب مخاوفهم وقلاقلهم، كطفل يرفض أن يُطْفَأ مصباح سريره، التراس الأخير في مواجهة العتمة، الترو، والأفنية، وموقف السيارات، والكثير من الديكور حيث يحوم شيخ الاعتداء — وسواس

\* نسبة إلى جزر الأنثيل — المترجم.

بامتياز لكل مدينٍ يحترم نفسه — متوعداً.

ومع ذلك فإن باريس مدينة هادئة نسبياً، حتى لو كانت غابة، بماذا ستكون الألفية أقل أماناً من أزقة منطقة الهال حيث يتشقق شبان محطّمون المخدرات تحت أرتاج العربات؟

باختصار، أنا التي أخاف من كل الناس ومن كل شيء، لا يصيبني أدنى خوف حينما يتعلق الأمر بالتزول إلى تحت الأرض. بل يتملكني هناك شعور غريب بالعدوية والسكينة. بعيداً عن الضياء وعن هياج الخارج، أنغلق على ذاتي. على السطح، أكون في حالة عرض. أراقب أفعالي، ممتة ذعراً. تحت الأرض، استغرق في التفكير، في القراءة، يهدهدني الطنين المخنوق للمетро.

لم أفهم قطّ لماذا تشلّي الحشود في الخارج، بينما لا ألاحظها في عربات المترو. باستثناء ساعات الذروة حيث يتحوّل البشر الأحرار إلى سلك سردين، وحيث يشعر المرء بأنفسه جواره قريبة

جداً بحيث أشعر بالغثيان، فإن الناس الذين يشغلون المشرو مختلّفين — في النهاية — بالنسبة لي. هل أعيش من أجلهم؟ أجهل ذلك، ولمرة واحدة، لا أطرح على نفسي السؤال. كرسني بمقعد متحرك، زاوية مقعد، وإذ في مبحرة في رحلة أريدها بلا نهاية، موزونة بإيقاعات الرجات المسكنة للقطار المنساب على السلك. هناك، تحت الأرض، أستغرق في القراءة، وأتخلص من رتابة الحياة اليومية. من حين إلى آخر، أرفع ناظري، لا



لأعابن المخططات المتتالية بل لأرسل نظري في عتمة الأضفاق. في محطة ريو مور-سياستويل، أدركت أن جماعات من صغار الفئران كانت تعيش في البني المعدنية للمقاعد التي يقرأ المسافرون عليها جريدتهم بانتظار المترو. لا أحد من بينهم استدار أبداً لرصد الحواطم الخجيرة التي كانت تعبر بحسورها صغيرة، لأنه ليس لديهم سوى هم واحد: أن يروا النور بأسرع وقت. حدث لي وأن دسست بعض قطع البسكويت في الجحور، وأن شعرت بأنها بهوشة من الداخل. يجري الحديث كثيراً عن الجرذان التي تغزو الأقبية، أما أنا فلم أر سوى هذه الفئران الصغيرة، التي لها قدرة غريبة على البقاء في عالم من الإسمت.

كما أن هناك رجالاً يشكلون هذا العالم، لاسيما عندما يحل الصيف محل الصقيع والبرد. وقد تبين لي بأنه إذا كانت المقاعد، على الأرصفة، قد بُدلت عن بعضها ما يقارب النسر، فذلك ليس كما كنت أعتقد، لتتاح لي القراءة بهدوء، وإنما لمنع هؤلاء الرجال من النوم عليها. فالتاس الأحرار لا يكونون مشهود بؤس الآخرين. وبحال الفئران، لا يمكن هؤلاء الذين يسمون بـ «من لا هاري» الاندساس في الجحور، اتقاء للبرد ولنظرات الآخرين.

أحبّ مواقف السيارات، ربما أكثر من سواها، لأنها دائماً مقفلة. نلتقي فيها بأشخا تلامس الجدران، باحثة بئاس عن سيارتها بالنظر. بالنسبة لي، فهي عبارة عن مساحات شاسعة من نصايح النيون المنمّلة، وسيارات فارغة مترافقة على مدى البصر. لدى مرورها، تحلّت قصة لكل منها،

نائفاً، عائلة، هؤلاء الناس الجردين الذين لن يخيفوني أبداً، اللهم نناج تحلي، إنهم ينتمون إليّ.

لزم طويل، تحلّت شخصيات وحكايات. أخذت عائلي إلى استراحة مع حكاية ذات أحداث غريبة، حكاية استغرقت من سجناء الشاق حكاية عاشت وتقدّمت وشاخت معنا. وكشهرزاد في الأسر، لأحد عشر عاماً، كنت، ليلة بعد أخرى، استكرت حكاية تجوي في روسيا القرن التاسع عشر. كانت «البدائف السوداء» تصف بدقة مُلغزة، سيما وأنني لم أكن قد وضعت أبداً قدمي في روسيا، قصور سان بطرسبرغ، وأعمال القوزاق، والزهاد بالزلاجات على ضفاف القولغا المتجمّدة. كان عدي محبلة غنية في الخارج، كان سعي الليالي المغربية، ولكن كان في قلوبنا طُوف جليل متخيّل. كان كل واحد منا حلم، وكان رؤوف يصفر حينما لا يعود يسمع القصة.

لفرط ما سردتها، غدا أبطالها مألوفين جداً بحيث بدا لي وكأنني عشت إلى جانبهم؛ هكذا يصبح المرء كاتباً أو حالماً أو مفصّلاً في شخصيته. ثمة شيء قليل من تلك الحكايات في الطوابير الطويلة للسيارات التي تشغل أقبية سرايب باريس. إنها علب فارغة، تروي القصص التي يُراد لها أن تُسمع جيداً. إنه عالم مصنوع على مقاسي، عالم لا يريد أحد أن يحكمه، لأنه لا يوجد فيه أحد.

## حينما كان المال ملموساً

على مدى ما أتذكر، اتسعت محفظتي لثروتي. ولكن، كان المال بالنسبة لي شيئاً ملموساً، مفهوماً يمكن جسسه والذي كان يندرج في جيوبي لحساب خياطي الضقة اليسرى. كنت أحيله أحياناً من ديور أو سان لوران، ومصاريف عند كاستيل أو ريجيني، وعطلاً رائعة أقضيها مع أمي في نيو يورك أو لوس أنجلوس.

في عالم البشر الأحرار، تغير شكل المال نفسه. فيعد أن بقي سليماً مستقراً على مدى قرون، لم يجد ما هو أفضل من أن يتغير ويتحول، خلال سنوات، في الوقت الذي عدت فيه إلى الحياة. ألا بد أن يهرب مني كل شيء وكأنه يعاقبني على كوني غائبة لأمد طويل جداً؟ طبعاً، لا تزال الأوراق المالية، كما القِطْع المَعْدِنِيَّة، المُسَمَّاة بالبيضاء أو الصفراء، حسب قيمتها، موجودة، ويمكن للقدماء أن يتشبثوا بها، مثلما هو الشيك العجوز الطيب الذي يبلغ مفهومه من العمر ما يقارب مائتي عام. وطبعاً، لا يزال هناك أناس يتكلمون بالفرنكات القديمة، وبملايين الستينيات. ولكن الحقيقة هي أن المال قد غير وجهه. لقد أصبح مجرداً، عائماً، يلعب به مثلما يلعب بالفيس في الكازينو.

En3aM  
www.r2wity.com

تشغل ثروتي من الآن فصاعداً قطعة صغيرة من البلاستيك، والتي يمررها المرء إلى النادل دون التفكير بها، وهو

\* Jetons (فيس): تستخدم بدلاً من المال في ألعاب القمار في الملاهي، وتقتصد أن المال النقدي الملموس نثر وحلت محله هذه القِطْع البلاستيكية الممثلة - المترجم -

يتابع حديثه. قبل أقل من ثلاثة أشهر، كنت أندھش من الآلة السحرية لقيّد الحسابات المصرفية، وأنا أقسم بأقدس ما عندي على أنني لن أسقط أبداً في التجريد. أن أدفع هكذا بالهواء غير وارد. لا بد أن أرى نقودي، أن ألمسها، أن أحصى الأوراق المتبقية معي، وأن أجري في مخيلتي الحساب الذهني للنقود التي أعيدت إلي، وللبخيش الذي تركته للنادل. تُكرّبي بطاقة الائتمان، تفصلني عن الواقع. ومع ذلك... وحرصاً منه على ألا يراني أعيش في الماضي مثل أولئك المستين الذين، رفضوا رفضاً قاطعاً تداول الشيك، في زمن البطاقة المصرفية، استخرج ايريك لي بطاقة زرقاء، برّاقة. تحمل اسمي بحروف مذهّبة، لم أكل عن النظر إليها. قيل لي بأنني، بهذا المفتاح السحري، لن أكون أبداً في ضائقة: يمكن استخدامها في كل مكان، لدفع ثمن المشتريات، وأينما رُفِضَت البطاقة، هناك أجهزة صرف الآلة تحول البلاستيك إلى نقود، إنه حلمٌ خيميائي حقيقي. يجمع الناس الأحرار، من حولي، هذه البطاقات بخيلاء ظاهر... حتى المحافظ قلّدت الآخرين، تاركة الجزء الجميل منها لبطاقات الائتمان. غالباً ما تحتوي المحافظ البطاقات ذات المصراع الواحد ثمان أو عشر بطاقات منها. كانت علامة النجاح، في ما مضى، هي ترك حزم الأوراق المالية تظهر للعيان، أما اليوم، فأفضل علامة لنجاح المرء هي التره وقد عُجّت محفظته بكل ألوان القوس قزح. يوجد منها ما يناسب كل الأذواق، وكل الصُّرر، الأمر الجوهري هو رصّها بما يكفي للشعور بوجودها. لأن العالم كما وجدته لا يعترف بأبائه سوى من خلال شبكة عملاقة، كل شيء فيها وقفٌ على بطاقة الائتمان.

في الفترات الأولى، ظلت يطاقي الزرقاء في قاع محفظتي، لا تجدي نفعاً سوى في تغذية خوفي من أن تُسرق. هذا الشيء الذي يُفترض به أن يسهّل الحياة، لم يتوان عن إفساد حياتي، مضيفاً حمماً إضافياً إلى همومي، كنت بغنى عنه.

— وإن سُرقَت متي؟

— لن تُسرق منك، أجابني ايريك. في أسوأ الحالات، وبمخاطرة هاتفية، تقدّمين إبلاغاً.

إبلاغ؟ لن أتصوّر، في أحلامي الأكثر طيشاً، أن أضايق المصرف في عمله لأصرّح له بشفقة عن فقدان يطاقي الزرقاء. بالتأكيد، سيستجوبني، ويكرهني، وربما سيوقع عليّ غرامة. كنت أحمل ذلك العبء كما تحمل صبيّة مفتاح البيت حول رقبتها: أشياء كثيرة تقوم على شيء صغير جداً، فلمجرد فكرة فقدانه، يكون نهارها فظيعاً.

لحسن الحظ — إن تجرأت على قول ذلك — أن بطاقة الائتمان، بخلاف المفتاح حول الرقبة، محمّية برمز من أربعة أرقام سحرية لا يمكن للمرء من دون الأرقام أن يفعل بها أي شيء، على الأقل هذا ما أظنه. وقد نصحت بالخاح أن أحفظها عن ظهر قلب، ولكن ماذا لو نسيها؟ ثلاث محاولات عقيمة وتُفقد البطاقة — لا تسألوني بآية معجزة —، وتصح غير قابلة للاستخدام.

ماذا يحدث في هذه الحالة؟ لا أريد حتى أن أعرف ذلك. على الأرجح يُستغفر المصرف، وقد يستدعي التجار الشرطية:



بطاقة بلا رمزي هي بطاقة مسروقة. وهكذا احتلت أربعة أرقام حياتي، وشغلت كل مكان، مستذكراً ذاكرتي القويّة قدر الإمكان. سجّلتها على ظهر مفكّرتي الصغيرة، على ورقة مطوية أربع طويات في قاع محفظتي، على دفتر مذكرات في البيت، على لاصقة خلف البراد، وحتى على تجويف معصمي، بقلم من حبر سائل (فوتر). لفرط ما ردّدتها، أذكرها كما لو أنّها تاريخ ميلادي، ولكن من يدري، ربّما ننسى صدفّة، وهكذا يمكن تحبّب الكارثة.

- من التهور أن تتجول مع الرمز، قيل لي في النهاية. ففي حالة السرقة، سيال الشخص كل ما يلزمه، وسيمكنه أن يفرغ حسابك.

www.rzwitg.com

لأمد طويل، تجنّبت استخدام أجهزة الصرف الآلية. كان تنظيم مشترياتي، وطعامي، وكسائي، وتبضعي بواسطة قطعة البلاستيك تلك يصبح بالنسبة لي أمراً يمكن احتماله بل ومألوفاً. ولكن سحب السيولة النقدية من آلة وسط الشارع كان شيئاً مختلفاً تماماً. كان الإحساس المزعج بالخطيئة لسطو يتناوب في كل مرة كنت أقياً فيها لاستخدام الصراف الآلي، وكنت أعود واهنة العزم، ممسكةً ببطاقتي كمّن يصوب سلاحه ويحول بلا كليل من حول مصرف دون أن يتجرأ على دخوله. تتناثر في باريس أجهزة صرف آلية كثيرة، مثل CCF، CIC، كريدلي ليونيه، الشركة العامّة، BNP، ...، تلزمك باختلاس المال منها. تميّز كلها بلوحات مضية، ويد تدس بطاقة، إنّها دعوة إلى الفجور. تشكّل هذه اللوحات جزءاً من المشهد،

الحس طريقة «مواقف الحافلات» الجديدة المرقّشة  
En3aM  
www.rzwitg.com

ولما كان المرء لا يفلت من قدره، وجدت نفسي ذات صباح جيل في طابور الانتظار أمام صراف للشركة العامة، في مكان من أطراف محطة ليون. لم يكن من الممكن تفاديه، كنت بحاجة إلى ما يكفل لي الاستمرار، ولم يكن لديّ لا الوقت ولا الإمكانية للمرور بالبيت، ولا كذلك بالمصرف. على ميعدة بضعة أمتار، كان صراف بالأسود والأخضر ييسط يديه لي، وانتهى بي الأمر أن استسلم له. ولكن ليس بلا عناء... لمّتين، ولداث، مررت أمام الآلة، أرمقها بطرف عيني بارتياح. انتهيت إلى الاقتراب منها، بانحراف، لأنّها كما لأعتاد على الفكرة. في جوف معدتي، كان يولد ذلك الإحساس الذي أميزه بين جميع الأحاسيس: الخوف، القلق، مزيج من المشاعر لا يحمل، حقاً، اسماً. إذا كان لا بدّ من تسميته، فسأدعوه تناذر العالم الحرّ.

الآن، في الطابور الذي تشكّل أمام الكوة الآلية، أنتظر دوري. وتدافعت كل أفكار العالم في رأسي. هل سأحسن التعامل مع سير الآلة؟ لا شيء مؤكّد. هل ستعرّف إلى بطاقة، مثلما يتعرّف صنوبر مقهى لو فلور على أيادي الزبائن؟ ألسن يُطلّب منّي رمز غير رمزي ورقم حساب والضمان الإضافي لموئي، ورقمي في الضمان الاجتماعي؟ الأسوأ هو أن الطابور قد طال من خلفي الآن: كانت امرأة وخلفها عامل باللباس

الطراز ذات اليسار وذات اليمين، مذهولة بفكرة أن يستطيع أي شخص أن ينقض علي ويتزع في بضرة واحدة كل ثروتي. الفتى إلى الورا: ربما لهذا رفضت المرأة التي كانت تليني أن تأخذ مكاني. ولكنها لم تتحرك قيد أنملة. فتشيت حقيبتها بإتقان. فبدست بطاقتي في الصدر، ولكن حينما شعرت بما خطفت، تشيت بها، رافضة تركها تحضي. عجباً! كان يتهاً لأن يتلها. وماذا لو رفض أن يعيدها إلي بعد ذلك؟ وماذا لو اختفت إلى الأبد دون أن تترك أثراً؟ الأمر الأسوأ هو أن تُلغظ من الآلة بعد ذلك بساعات، وأن يستولي عليها أي كان ويغير على الحالات على نفقة الغير.

للحظات، قاومت هم الصراف الآلي، قبل أن أنتزع منه بطاقتي. تنفست، وعدت إلى رشدي. القليل الذي أعطته إياه لم يكف لتحديد هويتي: استمرت الشاشة في عرض «أهلاً وسهلاً بك» وأسمعي العامل تأقفه وسخطه من جديد. سينبغي إذاً أن أدع ثروتي الأعلى تذهب إلى أعماق هذه الآلة التي تبدو أحشاؤها للعان... للمرة الثانية، قدمت بطاقتي باتجاه مبك الصراف الآلي، الذي شغلها دون أن يستعيد أنفاسه. رغمًا عني، وكعاشقين افرقا قسراً على رصيف محطة، أرميت قبضتي وتركت بطاقتي تعيش حياتها. سمع صوت آلي، وبعض الصغير، ثم تغير لون الشاشة.

«تفضل واكتب رمزك السري.» أكتب رمزي السري، هنا؟ وسط الشارع؟ من جديد التفت إلى الورا.

- هل ستقضين الليلة هنا؟ توجه إلي بجفاء الرجل ذو بزة

الأزرق الخاص بالعمل ينتظران دورهما بتذمر. وقد بدا عليهما علامات التوتر العصبي، لأن الشخص الذي يستخدم الصراف لا يستعجل الأمر الذي أصبح، في سنوات التطور هذه، إثماً قاتلاً. تنفس العامل نافعاً، ونظرت المرأة إلى ساعتها. راودت ذهني فكرة أن أهرب، ولكنني أدركت بأنه لن يكون الحال في مكان آخر مختلفاً. فالوقت منتصف الظهيرة وبباريس تعج بالناس. لن أغير في حي مزدحم هذه الدرجة على آلة تركها كل الناس بحيث سيمكنني أن أنطلق دون تحفظ في إجراء الاستكشاف حيث سيمكنني أن أطلق العنان لنفسي، دون تحفظ، في إجراء أبحاث الاكتشاف.

جاء دوري. تجرأت بالكاد أن أنظر خلفي: زاد شخص آخر على الطابور. وإذا لم أعد أحتمل، التفت نحو المرأة التي تليني:

- أتريدين المرور ربما، يا سيدي؟
- كلاً، من فضلك، أنت كتبت هنا قبلي.

تتمت بكلمات شكر لم تصل، قبل أن أستدير نحو الوحش. أعلنت لي شاشة ملونة بتهكم

"أهلاً وسهلاً بك" وكذلك «تفضل بإدخال بطاقتك». إن حدث وعجزت عن معرفة التعامل مع الآلة، سيقظني رسم صغير، يمثل يدي وبطاقتي وماخذ البطاقة، وحتى الحانة الرقمية في الأعلى تماماً.

بهدوء، أخرجت بطاقتي مثلما طالب الصراف الآلي، وأنا

فرنك، مرة، مرتان، ثلاث. 600 فرنك! مذكورة، نظرون إلى أوراقي، حبستها، وحسبتها من جديد. لقد أخطأت الآلة، أيا والقة من ذلك، وأعطني أموال شخص آخر. كدت أن أوزع الورقتين الزائدتين على الشخصين الذين كانا ينتظران، فريسا أن هذا المال هو لهما.

في أول غرفة هاتف صادفها، اتصلتُ بياريك لأروي له مغامرتي المزعجة، لأرجوه أن يتصل بالمصرف، ليبلغني بأن ورقتين من فئة مائتي فرنك، سُحبتا من حساب غير رسمي، انسحبنا تلقائياً، أنا مستعدة لإعادتهما، في الحال إن لم أتمكن، لئلا هذا الصراف اللعين كان يرضى بأن يعمل بسلامتي. ويتبع الأوراق المالية مثلما يزدرد بطاقات الائتمان.

— لا تشغلي بالك، أجباني رجل حياتي، مطمئناً، بعد أنك قد ضغطت على الزر غير المناسب...

على ما يبدو، أن الكوآت الآلية لا تخطئ أبداً، وأصنور لا فلور منع الماء عن زوج من عشرة من الأبياد، رئيساً ضغطت حقاً على الزر الخاطئ، واخترت السهم الخاطئ، ربما انقلبت المبالغ. في كل الأحوال، هذه الموزعات الآلية، أوراق المالية، هذه الوحوش الباصقة للأموال التي تحل محل بونفي الكوآت ليل نهار، لن تعطيك أموال الآخرين. مطلقاً، تلك الاطمئنان الغامض، سأنتظر بعد ذلك على الأقل خمسين يوماً والخوف من مخالفة القانون ينهش أعماقي، حسرتي كشف حسابي، الذي ذكر بوضوح سحب ستمائة فرنك في نفس ذلك التاريخ الذي واجهت فيه واحداً من أشباب

العمل الزرقاء، مسروراً للغاية بملاقة نظري.

غمغمت بكلمات وكانني أبرر موقعي. تلوت وحاولت أن أشرح بوجهي عنه وطرقته أرقام الأربعة باضطراب. حتى أن الجهاز كافاني بعبارة « رمز غير صحيح، كرر من فضلك ». جددت رعدة عظامي، بحيث استحالت الأرقام التي طرقتها أنجماً صغيرة. عدت الوسيلة لمعرفة ما إذا أخطأت. وأنا في ذروة الذعر، أعلنت الشاشة محاولة ثانية. محاولة ثانية، الآن؟ أعلم بأن في المحاولة الثالثة، سأكون مفلسة؛ وبطلاقي معي.

تحققت من الأرقام الأربعة المخفية في قعر محفظتي بإلقاء نظرة عليها. لم تتغير، لا يتغير الشيء، قسراً، في دقيقة حينما يكون رقماً. لحسن الحظ، نجحت المحاولة الثانية بفضل عيون الآلة، التي كافتني بشاشة جديدة. 200، 400، 600، 800. غير ذلك. كيف يمكنني الحصول على 200 فرنك؟ حاولت أن أضرب الرقم 200 على ملامس الآلة، ولكن لم يسفر عن ذلك شيء. ضغطت، يائسة، على أحد الأسهم المحيطة بالشاشة، متسببة بعبارة « تفضل بالانتظار » المشؤومة. نسأل مصرفك، أعلنت الآلة، وتوقف قلبي. لماذا يسألون مصرفي؟ ليس هناك ما يؤخذ علي.

« تفضل واسترد بطاقتك ». استولت على ثروتي كطير جارح، وأخفيها بعزاء في قعر جيبي. لقد مرّ الأصعب. سمعت ضجيجاً معدنياً جديداً، ارتفع مصراع، وانزلت نخوي أوراقاً مالية جديدة جداً لدرجة تغير الشكل في أن تكون مزورة. 200



لهذا، لا يمكنني العزم على قبول مبدأ الائتمان. تربيتي وقيمي والغياب الطويل الذي حذف مني أشياء من العالم، كل هذا يجثني على رفض الميل المعم إلى إنفاق أموال لا وجود لها. حبست نفسي لزمن طويل مرغمة لئلا أأكل نفسي طواعيةً بقلقل الائتمان وهوميه. يغربونا بالكثير من الأشياء، بالكثير من الكنوز التي تعمّر أحلام أولئك المستعدين لأن يتكفلوا لعشرة أعوام، لعشرين عاماً، بحكم بلا استئناف في سبيل سيارة جديدة عادية. ماذا لديها أكثر من غيرها، هذه السيارة التي تدفعهم إلى اقتراس بنسبة مئوية تُدعى تفضيلية؟ مقاعد من الجلد، وهواء مكيف، ولون زاه، وإطارات من الألمنيوم للعجلات؟ يا للمهزلة! لو أن الأمر لم يكن يتعلق سوى بي، لكنا عشنا عشرين عاماً بنفس سيارة بيجو العتيقة، ولكان كل سنتيم مقتصد من سيارة مرسيس سيضخم حساباً مجمّداً، لفصول الشتاء العvisية.

ليس لحالي كمستكشفة في عالم مجهول الكثير من الفوائد، اللهم سوى هذه: لن تكون حاجاتي أبداً نفس حاجات الأحرار. أنا أيضاً، كنت شابة، طائشة، ضحية الدُرَجَة (الموضة) والدعوات إلى الاستهلاك. اليوم أعرف أموراً قضى البعض أحياناً حياة كاملة كي يفهموها: جوعي لم يُسد بعد.

لابد من القول بأنني، منذ عودتي إلى الحياة، مذهولة بالحيز الذي يشغله الآن الإعلان في دنيا أمثالي. قبل سنوات، كان يجري الحث على الاستهلاك، ولكن عدا عن أن السجن قد قرض ذكرياتي، لا شيء كان يضاهي الصخب العشوائي

لإعلانات اليوم. جدران المدينة مغطاة بإعلانات تبسط عليها البان والبسة وعطور. التلفاز عبارة عن أسهم نارية للإعلانات، كثرتها أصبحت بدوّار: قبل الأفلام، وبعد الأفلام، وخلال الأفلام. بين الأخبار والنشرة الجوية، يُدسّ متجر كبير أو محلّ للنظارات. العديد من البرامج «قدّمت لكم» من قبل معلّن. في المجلات، كل صفحة من أصل اثنتين تغري الناس الأحرار بحاسن ومنافع ما لا يملكونه. قيات رشقات في الخامسة عشرة بجسم خال من العيوب يمتدّن مزاييا مرهم مضادّ للجعايد. صورٌ لبحيرة مرجانية مياها فيروزية تنير ممرات المترو، مدموعة بـ «غرض خاص» يثير الأحلام.

رحلات طيران بأسعار مخفضة إلى آخر الدنيا، حواسيب مكتبية، ستريوهات، دراجات رياضية، هناك من العروض ما يناسب كل الأحلام وكلّ الأعمار. حتى المستين الذين يُسمّون العجائز لأنّه لم تعد الأشياء تُسمّى بأسمائها الآن، هؤلاء المستين الذين من المفترض أنّهم قد بلغوا حالة الرزانة والحكمة يجري إغراءهم واجتذاهم بفضل كراس يمسّدين للجلوس وحيدين ببلاهة أمام التلفاز، أو بأثاث الحديقة، الذي سوف يرتبون بهناية، تحسباً لليوم الذي قد يقرّر فيه الأطفال، الغائبين منذ زمن طويل، زيارتهم. الأسوأ من هذا، يُباع لهم مآتم وصكوك تأمين على الحياة وأمكنة في المقابر، تجبّ لأن يزعموا الآخرين حينما تأتي ساعة إقلاعهم الأبدي عن الاستهلاك.

## البؤس

أبهر صديقي، ومع ذلك فهو ليس صديق أحد، لأننا غرُّ  
من أمامه دون أن نراه، إنه جزءٌ من المشهد، كأعمدة الإشارة  
أو الحواوية في ركن من الحى. لم يُعد يُقال متشرّد - بطلت  
العبارة في أثناء غيابي - وإنما « بلا مسكن ثابت »، وخاصّة  
SDI، كسباً للوقت. ومع ذلك فهو لديه مسكن، يكاد يكون  
لابتاً، بسقوط الليل، في زاوية قصيّة، أسفل واجهة مخزن لبيع  
الأحذية. تحت خفاف ثمنها مألتي يورّو، يضع حوائجه البسيطة:  
كيس نوم، وسادة مرّجلة مكوّنة من سترة ملفوفة اسطوانياً،  
وكأس ماكدونالد مُلقى على الرصيف، إن حدث وحاول أحدٌ  
ما أن يتخلّص من القطع النقدية الصغيرة التي تشوّه جيوب  
البزّات الأنيقة. ينام أبهر هناك كلّ مساء، عدا ليالي الشتاء  
الأكثر قسوة حيث كانت حافلات بيضاء تحمل من لا مسكن  
لهم لتجنّبهم الموت برداً. لمرةً أو مرتين، اضطرّ إلى حزم متاعه،  
مطروداً من قبل الجيران الذين كانت الرائحة تزعجهم، أو من  
قبل مدير المخزن العائد لتدقيق حساباته. كما أنّه هوجم، ذات  
ليلة صيفية، من قبل مجموعة من الشبان الذين أوسعوه ضرباً  
اعتباطياً، بسبب الرياضة.

أبهر صديقي، وليس هذا على سبيل الكلام فحسب.  
وإذا كنتُ أَسعدُ بإملاء طاسه بين الفترة وأخرى، فما كان  
يدفعني إلى ذلك الشفقة. هذا خطأ. فبخلاف الناس الأحرار،  
أشعر بنفسي على ما يرام صحبة المتسولين. أفضّل حتّى من  
صحبة الذين يملكون المنازل الذين يوقظون بالضرورة أحزاني

كأكياس القمامة، لغرض وحيد هو أن يَحْيُوا. أنا أيضاً أدركت ذلك، هذا السعي الحثيث إلى العيش حتى اليوم التالي، دون أن أعرف حقاً لماذا، هل غريزة البقاء، أم هي الأمل، وقوة العادة؟ أجهل ما يدفع اليائسين إلى التمسك بالبقاء إلى أقصى حد.

كل يوم، تلتاشي نقودي مدراراً في المترو، تلتقيها كل دواعي العالم السفلي. مشردون، متسولون، موسيقيون، بائعو الصحف أو الحلوى... يمزون خلصة في حياة أولئك الذين يسبلون عيونهم لدى اقترابهم، يتابعون بلا كلل كأنهم يعدون الركاب، منتقلين من مترو إلى آخر. طفل جانع، سقّف من أجل الليل، ما يكفي لوجبة ساخنة، بعض القروش لدفع الإيجار. من هو الصادق بينهم؟ لا يهم إن كان الكل صادقاً أو لا شيء من ذلك، فأنا أشعر بعوزهم فطرياً. في انتظار من يلبيهم، يتجولون في المقطورات، وهم يمدّون يدهم في الممرات أو على السلاّم، تحت الشمس الحارقة. تتمعّقت لازمنهم في السلوك إلى حدّ لم تعد تثير اهتمام أحد إلا نادراً. لحظة خطايهم، تشنّج الوجوه خفية، وتقطّب الحواجب، تشدّ العيون إلى الجملات أو كتب الجيب. لقد أصبحت قدرة البشر الأحرار على غضّ النظر عن بؤس الآخرين فطرة ثانية. إنهم ببساطة يغلقون على أنفسهم. وأنا أراهم غارقين في قراءتهم أو في التأمل في أحذيتهم، تراودني شكوك بشأن الصّفة التي يغلقونها ثانية عند اللزوم. هل يتصنعون اللامبالاة لينسوا بأنهم قد ينضمون، ذات يوم، إلى ألبير في عالمه الرتيب؟ ربّما يحافظون على كمال محفظتهم فقط؛ فلكثرة ما يتخفّف المرء من قطعه

وقلاقي. أمّا الذين لا مأوى لهم، فلا يعيشون ولا يحدّون. إنهم لا يتغيّرون، وأجد نفسي في طريقتهم الساذجة واليائسة في التوجّس من العالم. كم من الوقت أمضيته مع ألبير وأقرانه في الحديث بتواتر عن كل شيء وعن أفنه شيء، عن العالم وشقائه؟

En3aM  
www.rewity.com

لم أعد أدري. ولكن يبدو لي أنني كرست لهم من الوقت أكثر مما كرسته لأصدقائي. لا تؤثر فئات الإعلانات عليهم، كما عليّ؛ إذ كيف يمكن الانسياق للاستهام على الموقع الجديد، عندما ينام المرء خاوي البطن؟

لألبير أربعون عاماً وماضٍ فوضويّ قاده إلى أسفل عمارتي. أحياناً، يروي لي سنوات تشرّده. وأحياناً أخرى، يتدفّق بوحاً، يتكلّم عن أيامه التي لا تنتهي، وعن الطاس الذي يصعب من أن يمتلئ... ويهتّم بي، بلا تملّق، بلا مجاملات الناس الأحرار الذين يبذلون الكثير من الجهد لإثبات أهميتهم للآخرين إلى حدّ أنهم يسهون بذلك عن الإصغاء إليّك. لا أحبّ أن أدرس نقوداً لألبير؛ فالاستجداء يضايقي. والغريب، بينما هو يعفّ عن الاعتقاد بأنّ التسوّل ينجّل ويستحي، كنتُ أنا من أتضايق لفكرة رؤيته يمدّ يده للآخرين. بين الحين والآخر، كنتُ أحاول أن أعطيّه القليل من المال دون أن يفهم من ذلك أنّه صدّقة... أو، أوفّر له قليلاً مما يهمّه، قليلاً من الطعام، قارورة، وجريدة.

فليأكلوا، ويشربوا، ويدخنوا، ويحششوا، فإنّ ألبير وأقرانه يعيشون على هامش عالم البشر، مرميين على الأرصفة



النقدية الصغيرة، يجد نفسه مرغماً على صرف ورقة نقدية، حينما يقرر شرب فنجان من القهوة.

من جهتي، أعطي بلا تمييز ( غالباً خطأ، إذا صدقت أقوال أصدقائي، الذين يعلنون لي بأن مافيا حقيقية للتسول تعيشُ فساداً في باريس )، بعض القطع النقدية الزهيدة والتي قلّما أشعر، بخلاف أغلب الناس، بأن قطعتين أو ثلاث قطع مرمية في قبةٍ تنقلهم من مشكلتهم مع عذاب الضمير.

بتأثير ألبير وآخرين، شعرتُ بأنني أعود ناعمةً، وأنني أنسى غصابي النفسي لأمةٍ يدي إلى أولاء الذين ينامون تحت المطر. وهكذا، وبكل براءة وسذاجة، اتجهتُ طوعاً إلى خدمة مجانية في مؤسسة SAMU، الاجتماعية. ربما لا يلدُ لكل واحد أن يجد هناك هدوءه وتوازنه. وقد لا تكون الوسيلة الفضلى لراحة الضمير سلسلة من الجلسات الاستيطانية التي تستغرق الواحدة منها نصف ساعة لقاء مائي يوررو. بقوة هذه القناعة الجديدة، رحّتْ أبذل مساندتي للمفوضين من المجتمع. ولكن شتّان بين الأفكار العظيمة والواقع. ذات ليلة، سارت بباريس غير منتظرة، شرسة، طافحة بالغور والأوباش تحت أبصارِي. من خلال الزجاج المعتم لنوافذ حافلة SAMU، ارتفعت أنوار المدينة كنجوم خافتة... ووددتُ أن أعود إلى بيتي. راحت قراري الكبرى، وغمّتي حديقة العهد، وورعي هياء. انطويت على نفسي، مذهولة بالكثير من الحزن. شعرتُ بنفسِي أضعف بكثير من أن أحتمل المزيد، ونقضتُ وعدي. بعد ليلة حزينة من الخدمة، وما يكفي لتغذية كوابيسي للسنوات القادمة.

— هذا لا يهّم، قالت لي مسئولة الوحدة، معظم الناس لا يقاومون الصدمة.

شقّ علي أن أقول لها بأن قلبي يتقبض، وأن جُني يتقل على. الأسوأ هو أنني أعلنتُ بصوت عال وقوي لمن كان يريد الإصغاء إلي بأنني كنتُ أقتحم ميدان العمل الإنساني، عاتبة حتى على الأكثر فوراً لعدم بذل أي جهد للتخفيف عن الثعساء. كفتني ليلة واحدة لأدرك بأنني لم أكن أملك رباطة الجأش والجلد الكافين لأواجه ضيقاً آخر غير ضيقي... لعدة أيام، قمتُ بدورة طويلة لأتجنب واجهة تاجر الأحذية. مجرد فكرة النظر إلى صديقي ألبير، الأخ في المصيبة لذلك الرجل الذي شاهده يموت على رصيف، بسبب ليلة صيفية طويلة جداً.

En3am

www.rewitt.com

في محطة سان لازار، يُيدي اليأس وجهها جديداً. إذ تمثّل في ذلك اليوم، اتخذتُ في قسمات وجه سيّدة عجوز، وتصدعت ببطء إلى الرصيف. تجرّ حقيّة ثقيلة وقفّة وعصا، وكان من الواضح أن لا أحد ينتظرها لحظة وصولها. حذاً منها مهترئ، وحقيتها رقة، وثيابها رمادية وبالية على صورة السنوات التي تنقل كاهلها. شاهدهما تتقدّم، شبحاً بانساً محمّياً في المدة البشري النازل من القطار. أهي عائدة من رحلة أم أنّها، كغيرها، تقيم في ركن معتم من الخطة؟ لا شيء يتيح تأكيد أي احتمال. كاد المسافرون يطرحوها أرضاً، وهم يتجاوزونها من اليسار ومن اليمين، ويصدّون عصاها لدى مرورهم بها. سبعون عاماً في وادي الدموع هذا تنتهي وحيدة، متشبّهة بامتعتها...

العالم الذي أتيتُ منه بعيدٌ عن أن يكون مثاليّاً، ولكنه

علّمني احترام العجائز، ونقل المعرفة والتقاليد، ومعنى العائلة. لدي ذكرى سهرة حيث كانت نساء يحملن على جباههن تجاعيد وقورة يتربعن صدارة المجلس، وهن يروين قصصاً لم أكن أستمعها. في المجتمعات الشرقية، لا يمتنى أيّ كان الموت قبل أن تدركه الشيخوخة...

من جديد، أشاح البشر الأحرار بنظرهم. يوماً بعد آخر، تزداد دهشتي لقدركم على إشاحة وجوههم عن بؤس الآخرين، وقد تفسّر ذلك العناوين البارزة للصحف، التي يصعب عليّ أحياناً تصديقها. يبدو لي أن عبادة التعة الفردانية بلغت خلال عشرين عاماً ذروتها.

بمشاهدة تلك العجوز التي تسير وحيدة إلى مصيرٍ يَحِيدُ عنه المارة، تذهلني المفارقة اليوم على نحوٍ خاصّ. قد تموت على هذا الرصيف دون أن يقترب أحدٌ منها. في أحسن الأحوال، قد يستدعي شخصٌ ما رجال الإطفاء أو رئيس المخطّطة. أهو الحجل أكثر منه اللامبالاة ما يدفعهم إلى الإشاحة ببصرهم، إلى الاستغراق في أحاديثهم، إلى حثّ خطاهم؟ كم سيكون بسيطاً الأخذ بذراع هذه السيدة العجوز، ومبادرتك بابتسامة، ومساعدتها في حمل أمتعتها... شاهدتُ لامبالاة الآخرين، فأسبلتُ ذراعي. عاتبتُ الحشد على ما لم أفعله أنا نفسي. ولكنني لسْتُ بين الحشود. لا أزال لا أشكل جزءاً من عالمهم. الشيخ، الشاهد الشفاف، وهو من يحكم. أبحث عن قوى لأجل الفعل دون أن أعثر عليها. إذا كان عليّ أن أستيقي واحدة منها، فهي قوّة التألم، قوّة الترف من الداخل.

- سوف لن يمكنك قط إيواء كلّ الكلاب الشاردة، قيل لي.

أعرف ذلك، لدي من المهموم ما يكفي لئلاّ انشغل بهموم الآخرين. ولكن هذا أقوى منّي: الضيق يستجوبي. بل ربّما ويجذبني.

## الشهوة

أنا قادمة من عالم لكل كسرة خبز فيه قيمة. طيلة سنوات، لملت الكثير من تلك الكسرات وحفظتها بحيث لو رادفها في صف متواصل لرسمت خطأ بطول طريقي من هنا حتى المغرب. في حكايات طفولتي، كان بيتي بوسيه petit poucet يستعِض عنها بالخصى ليتهدي بها إلى سبيل منزله؛ أما من جهتي، فساكون قد أعطيت كل شيء كي لا يُعثر عليّ أبداً، كي أترك خلقي البيت الذي كان غول مُتَوَجِّح قد فرشته بالألم والمعاناة.

لا قيمة للفتات عند الإنسان الحرّ، ولا حتى للخبز الذي تنتج عنه هذه الفتات. فهو يُقَطَّع على عجل وبلا عناية، وتُرمى قطع منه في سلة وإذ به يذهب لتزيين المائدة. في أحسن الحالات، سُمِّعَس في طبق فارغ أو سُمِّقَصَم، مسقيّاً باخردل، في انتظار وصول الطعام « الحقيقي ». الخبز هنا للتسلية، لأن الجلوس إلى المائدة يكاد أن يكون لعبة. لعبة لها قوانينها وأنظمتها ومجاملاتها البسيطة وسلال خبزها التي سَتُفَرِّغ في حاويات ضخمة حالما تنتهي الوجبة، مثلما تُفَرِّغ منفعة سجان.

لقد عانيت الكثير لأتعود على المخازن وعلى مصاطبها لغرض البضائع والتي تطول لكيلومترات، وعلى مائة صنف من الأرغفة الطويلة لخبزها، بحيث بدا لي العالم بمعزل عن الإصلاح محنة جديدة، لا مناص منها طالما أن المائدة هي محور العالم الحرّ.



كل شيء يمر من خلالها، الصداقة، الحب، الأعمال، العائلة؛ فتناول الطعام هو جواز مرور لكل شيء.

En3aM

www.rgwlty.com

- سنتناول الغداء حينما تشائين، يا عزيزتي.

تناول الغداء... أي أن يجد المرء نفسه في مطعم، وسط حشد جاء هو الآخر من أجل الكلام أو التفاوض أو التحطيم أو الإغراء، أو رؤية الذات في فراغ العيون، أو توقيع عقد أو الاتفاق على أمر.

من يهتم بطبقه؟ الشرهون، الذواقون، لا طائل من المياقة، أولئك الفخوريين بدفع سعر مرتفع جداً لقاء «تشكيلة صغيرة» من الفضلات الكمالية تنبسط على المائدة في زخرفات يصعب على المرء أن يميز فيها بين ما هو للأكل وما هو لتزيين المائدة. هنا جرز مقطع على شكل دوارة الرياح من قبل فتان حقيقي... هناك، كمية من الصلصة مثيرة للاستفهام، دقيقة للغاية بحيث يُعتقد أنها منسوخة بعناية من قبل معلم ياباني. هذا الداعي للخضار الدقيقة المعدة على شكل نجمة أو الورقة المولدة التي تزين كل شيء؟ الأمر عصي على القول. وإذا تنابى الخيرة، ساعد الكل في زاوية من الطبق. لأن «المطبخ الكبير الجديد» يدعي أكثر حيرة من المطبخ الصغير.

الطعام في «المطبخ الكبير» فخري وشرفي، ولكنه مشير للخبرة أيضاً. وإذا كان، في حارة الزاوية، هو ذريعة للإصراف إلى الفرقة، فإنه، في المطاعم الكبيرة، يتيح للأكثر ثراءً أن يخلدوا إلى مراسم هيبية حقيقية. أنظر إليهم يتخذون

أوضاع متكلفة، ويستغرقون في قائمة الطعام هيئة شاعر متأمل. «مقارض الزيزان البرية (أو المتوحشة)، عصير الكرّكند المعصور بالهليون الأخضر، وتفاحقا الصغيرة الجليدية من زيلندة بقشرة ملحية». يجب انتظار مدير الصالة ليأتي ويطلب لي طبق باحترام وتقدير كما لو كان يحمل طفل الله وهو يحمل: «ثلاث فطائر صغيرة من الزيز البحري مع قليل من الصلصة والبطاطا».

بلقمة واحدة، سيتلاشى هذا الزيز البحري. وسيُضاف إليه الطبق الأول والجبن والحلوى والخمر والقهوة والمضام، لتبرير فاتورة حساب فلكية. مائة وخمسون يورو للشخص الواحد، وربما أكثر (لم أر الأسعار سوى بطرف عيني؛ إذ لا يُعطى للنساء سوى قائمة طعام بلا أسعار). بماذا يقات فوج من هؤلاء SDF (من لا مأوى لهم) الذين ينامون على بعد مائة متر من هنا، والذين سيقعون بطعام بلا مواصفات، لا بري، ولا جديد ولا صغير.

ولكن الأكثر غرابة يبقى هو الوجبة قبل الوجبة... أثناء الاختيار من القائمة (لابد من الاعتراف بأن رؤية الأسماء التي لا تنتهي لكل طبق، جعلتنا نقرأها بأسرع من قراءة الكتاب المقدس)، جلب لنا النادل صينية من المسليات، مغطاة بقطع صغيرة من المعجنات والحلوى واللحم الصغيرة. يوجد عليها كل ما يمكن تصوّره بل وأكثر، بنماذج مصغرة، كوجبة عيد في بيت للدمى. سمك، لحم، كعيكات فاكهة ملحة، قشدة، رغوة،

صلصة، خضار، قُرْدِس، عجينة موزقة، عجينة مقطعة، عجينة بيتزا. كل هذا على صينية من فضة.

طيلة عشرين عاماً، أكلتُ لأبقى على قيد الحياة. في سجننا، كانت الفئران والجردان تأكل حينما نجوع، ولكن ليس نحن. لقد اعتدنا، بالقوة. وما عُدنا نأكل لتتسلّى، أو لتبادل الرؤى حول العالم.

En3am

www.rzawitg.com

بلا خطورة، وبلا قلق. بينما كان الناس الأحرار يسامون حول قطعة لحم من الضلع، كان لنا، عائلتي وأنا، الحق في لسر من الزيت شهرياً، وشعّة واحدة لكل شخص، واثنتي عشر بيضة لكل خمسة عشرة يوماً. اثنتا عشر بيضة فاسدة متعفنة، شكّلت لأمد طويل كِزاً مطبخياً بالنسبة لي...

بالنسبة لمن يضدّ البيض «الحيوي» في عربة أو يطلب طبقاً من عجة البيض على رصيف مقهى لا فلور، يكون مبدأ التعفن نسبياً تماماً. فيالنسبة لي، لا تكون بيضة فاسدة حينما تتجاوز رتبة تاريخ صلاحيتها، بل حينما تظهر على قشرها، التي طالما عرفها الناس الأحرار ببيضاء أو شقراء، طبقة مخضرة. طيلة عشرين عاماً، لم أعرف البيض إلا بهذا الشكل، كدث أن أنسى أنه كان فاتح اللون... أخي الشاب، الذي كُبر في السجن، لم يرَ أبداً قبل إطلاق سراحه اللون الحقيقي لبيضة. لم يكن بيضاً أصفر ولا أبيض، وإنما أسود كالجبر، كعممة الجحر الذي كُنا نتعفن فيه.

ولكوني مكلفة بإعداد الوليمة التي كانت تزين، كل

عشر يوماً، مائدتنا المشتركة، كنتُ أكسر ليلاً قشور البيض المخضرة لأدع السائل الأسود يتزل في قصعة. كانت مروح من تلك العجة الكابوسية رائحة ننته تنتشر شيئاً فشيئاً عبر الليل، بما يكفي ليصبح ذلك البيض، الذي لن يُطعمه أحدُ الكلبة مخافة أن يتسمّم بها، قابلاً للأكل. وهكذا يغطّس قليل من الخبز البائت في الخليط، وبإضافة قبضة من الحليب المسحوق وقليل من السكر وملعقة من حساء الزيت إليها، كنتُ أعدُّ نوعاً من «الحلوى»، فطيرة ضخمة مشوّهة كنتُ استلذّ بها. كانت رائحة القلي التي تعلو الزنازين عيلاً لنا، كانت تساوي في نظرنا كل الريزان البحرية في الدنيا.

أما الخبز، فكانتُ ننظفه بدقّة خلال جلسات تنظيف مطوّلة حيث كنا نحاول تخليصه من طبقات العفونة ومن بعر الجرذ أو الفأر، حسب الأيام. لأننا كُنا نخفي ذخيرتنا من الخبز تحت بلاطة، بنأى عن جولات التفتيش اليومية، وبذلك يمكن تسمية الجحر الترابي بالمخبأ حيث كانت الجرذان تأتي لتنازعنا عليه، ملوّنة إياه ببولها، وقاضية ما كان يوسعها. مثل البيض، كان أسوداً... إن الألوان الفاتحة بخصوص الغذاء هي، كما اعتقد، دليل على الحرية. كانت كل قطعة، كل كسرة منه نفيسة لأنّها كانت تزيد ذخيرتنا. كان ذلك مخزننا الكبير الخاص بنا، مطبخنا الكبير والصغير، حسب المقادير التي تنزود بها. اليوم أيضاً، وبعد مضي كل هذا الوقت، أغضب لرؤية أناس، منخرطين في أحاديثهم، يصنعون تلقائياً كريات من لبّ الخبز تنتهي مرمية في النفضة. كم شخصاً منهم، ما أن يفرغون من لبّ أول قطعة خبز، يتناولون سواها دون التفكير في تحويلها كلّها إلى فئات، دون وضع قطعة صغيرة منها في أفواههم؟

النظرة المذهلة التي ألقها على كل واحد وعلى كل شيء لا يمكنها أن توضع طالما أن المقارنة ستجرى مع ماضي أنا. ولكنني يشغل أغلبية حياتي. وحياتي بين هؤلاء الناس غريبة إلى متى سيعبر رد الفعل هذا صفاتي وحلمي؟ في السدنة أمل الوصول إلى العالم الحر يستحوذ عليّ الآن في العالم عن المقر... والأمل.

المرأة التي تقابلني معي تبلغ الأربعين من عمرها. أو ربما أكثر. أعتقد أن تكلم على المائدة لأنني كنت قد عانيت من الجوع بأشرفين عاماً.

- سيكون ثمرة الغداء أكثر متعة وألذ، قالت لي عبر الهاتف، بينما ألهتني أبدأ من قبل.

ألذ وأكثر فائدة قرية بعض الشيء، لأن الصحافيّة ما كادت تصل حيث أمام قائمة الطعام، وتلفتت لأن بيتزا التونة ليست الأنشوا، وفتت لو أنهم يستبدلون لها الفليفلة بالبصل إلا تحب الفليفلة، على الأقل المشوية منها - لا بأس من المملحة؛ أرادت أن تعلم إن كنت أحب الفليفلة المالحا، فستضمن ذلك مقالتيها. بدأت أفهم لماذا لم أقرأ جريدته.

مررت ما يقارب دقيقتين من التفاوض مع البائدة، التي لم تكن متيقنة من أنني أسيكون عليها أن تسأل الطاهي...

- في المرة التي تكون البيضة ناضجة بما فيه الكفاية،

أصابت الصحافيّة. إن نوع الشيء هو ما يجعلك مريضة لنهار كامل.

- لا تقلقي يا سيدي، سأبلغ هذا للمطبخ...

En3aM  
www.rwity.com

- آمل ذلك!

والآن تتحدثني شاهدة، وتردد بأن بيضة نيمه تنقل على المائدة، وطلبت موافقتي ولما لم تلها، انتقلت إلى أمر آخر، ثائرة لهباب المنفضة، ولكون مياه يبريه فاترة وهذا ما لا يُعفى. أريد مكعبات من الثلج؟ كلا، لا تريد، إنها تعطي طعماً غريباً.

- فلتحدثت عنك، قالت لي فجأة، ببررات عالم نفسياني.

تحدثنا عني، بينما هي تشرح البيزا بتقرّر. بعناية فائقة، فرت، وضعت جانباً الحواف (السميكة جداً)، البيضة (الناضجة جداً هذه المرة) حبات الفطر التي تستغرق إزالة نواتها وقتاً طويلاً وبعض حبات الفطر التي لم تكن تستعيفها. اعتذرت:

- لا أفهم، عادة ما تكون لذية جداً.

وافقتها على أمل أن تغير الموضوع. ولكن إذا كان الأمل يُحبي، فإنه غالباً لا يصنع المعجزات.

- هذا مستحيل، لا بد أن صاحب المطعم في عطلة.

لم أستطع منع نفسي من النظر خلسة إلى طبقها، أرى فيه الكوميكيات التي كانت تديرها في الطبق بشوكة وهي ساهية:



— حلوى (كريم بروليه) عندهم رائعة.

لم أأخذ تحلية. كما أنني لم أكن جائعة لدى وصولي، ولأنني لست بمن يمكنهم تناول الطعام دون جوع... فلا بد لي أن أحسن بتشتجات المعدة، وأشعر بالدوار والخواء قبل أن أجلس إلى المائدة. لأتناول الطعام، لا بد لي من أن أكون في حالة حرمان منه، مثل مدمن. الشيء الوحيد الذي ينقص البشر الأحرار الذين أشكل جزءاً منهم الآن، هو بالضبط الحرمان. ولكنني كنت أنسى بأن ليس لديهم الوقت ليكونوا محرومين.

للمرة الأولى، أدركت أن حدة حكمي قد هدأت. ربّما أنا الآن على السكة الصحيحة... ذات يوم، سأجيد فهمهم، بل وربّما أدافع عنهم. ربّما ذات يوم، سيليقي عليّ شيخ ذات النظرة التي ألقياها عليهم. إنَّها مسألة وقت. هذا مضحك، نحال المسائل دائماً إلى الوقت...

آنذاك، فكرت بروية، في طعم البيتزا ذاك... وددتُ لو أخذ كل شيء إلى البيت، ما لم أكله وما لن يأكله الآخرون. فالتخزين يبقى عندي فطرة ثانية. كل تلك الصحن نصف الفارغة المحكومة بالرمي في الحاوية أيقظت في داخلي غريزة حيوانية. لقد أصبحت كالسنجاب، أكون، يوماً بعد يوم، متخبرات لهود الحرمان. وإحال أن تلك العهود لن تأتي أبداً، على الأقل في الوسط الري الذي أعيش فيه. وهكذا تنتهي مخزناي المخفية في زوايا البراد أو قاع الخزان، عاجلاً أم آجلاً، إلى الحاوية. المواد المخفية، النصف قطعة من حلوى كيش، ما تبقى من سندويش، الحبز بالزبيب المخدوش، بقايا العجين، كل

تلك التي ستذهب إلى حاوية القمامة، وتلك التي تعرف منها بين الفينة والأخرى لتغذى، وثالثة قيد الفرز، التي تمون الاثنين الآخرين. للحظات، زاعت بأبصارها عني لتحكم بالتشريح؛ فلكل جزء مصيره الخاص. حبة زيتون؟ إلى الحاوية. عرقاً طويل من جينة موزوريللا؟ في الكومة «المخصصة للأكل». إنه أمر لا يُصدق ما يمكن للبشر الأحرار أن يفعلوه ببطي بسيط من البيتزا...

أما طبقي من البيتزا، فلم ألمسه أو أكاد، شعرتُ بأنني لست على ما يُرام، مركوبة جنباً إلى جنب مع زبائن آخرين يتكلمون بصوت عالٍ ويضحكون ويشربون ويدخنون. قلّ الهواء من حوئي ولم أستطع منعي من التفكير بكل ذلك التذير، بكل ذلك الطعام الذي سيؤول إلى حاويات ضخمة للقمامة، بكل تلك الصحن الذاهبة إلى الفرز من قبل زبائني يستسيغون هذا ويعفون عن ذلك، زبائن لا يعرفون معنى الجوع، فيجدون البيض غير ناضج.

دفعت الصحافية جانباً صحنها المليء ببقايا العملية المفوَّحة على البيتزا، قبل أن تعلن بأنّها لا زالت جائعة وتشتهي «تحلية صغيرة».

— تمام؟ سألت النادلة.

— ممتاز، رذت الأخرى، التي تكلمت، في نصف ساعة، عن البيتزا خاصتها أكثر مما تكلمت عن سجن.

ثم توجهت إلي:

ما خزنته بعناية ولا يُسَمَح لأحد بمسّه. هذه المُوْن ملكي أنا! ليس لأحد الحقّ لا في التصرف بها ولا في رميها؛ فهي محزّنتائي، مؤنّي تحسباً للشّقاء.

- أرجوك، ارم بقية البطاطا المقلية هذه، قال لي إيريك متوسلاً، إنّها تتعفن إذا أعيد تسخينها.

رفضتُ بشدّة، وأنا أعلم مع ذلك بأنّ مصير البطاطا المقلية خاصّتي محسوم. التخزين أقوى منّي. بعد ذلك ببضع سنوات، سأكتشف الولايات المتّحدة، فردوس السناجب ذاك حيث يختصّ كلّ شخص وهو يحمل الـ « doggy bag » خاصّته حقبةً قلماً تكون، رغم اسمها، مخصّصة لإطعام الكلاب.

في بيتي أيضاً، أعاني أمام صحتي من نفس الحاجة لعدم إفراغه تماماً، للإبقاء على شيء يسير سيزيد مذكراقي. لا أرمي شيئاً، فالرمي تمزيق.

كلّ يوم، أرى مجموعات من المراهقين عند خروجهم من مطاعم الوجبات السريعة، وأذرعهم محمّلة بأكياس ورقية مليئة إلى حوافها بكلّ شيء وبأبّ شيء. الماك الفلافي، والتروك ماك، يأخذون منها أكثر ممّا يحتاجون، ويضيفون بعض اليورورات للحصول على وجبات « ماكسي » والكوكا بالحجم الكبير، والبطاطا المقلية المنقوشة، والتشيزبرغر الإضافي. إنّما أن ينهوها أو لا يبالون بها أبداً؛ فنظراً للفارق الزهيد في السعر، كثيراً ما يؤخذ كلّ ما هو بالجملة ويُرْمى كلّ ما هو فائض. علاوة على ذلك، حينما تحقّق للمرء شطيرة مجانية، يكون مبدأ العصور

الحديثة هو التالي: هذا عرض؟ سأخذه إذا. رغم احتمال رميه. ورغم احتمال تعفيره. يشعرون بارتياح بالغ من رؤية أي شيء بلتّم لهم مجاناً، من ألا يضعوا أيديهم في محافظهم، لدرجة أنّهم قد يفضّلون الموت على أن يرفضوا عرضاً. مع أنّ ذلك الرفض هينٌ على القول، وقد قلته بنفسي: «كلاً شكراً، لستُ جائعة» فما يكفي لتناول التشيزبرغر الإضافي. « ونظّر لي كحيوان فضولي.

En3aM

www.rgwlty.com خذيه، إنّه ضمن الوجبة على كل حال.

رأيتُ وجبات هامبورغر بالكاد قُصّمت، مرمية في الحاويات أمام مطاعم الوجبات السريعة، وشطائر لم يُقطع منها سوى لقمة واحدة لتذوقها، قبل تركها هناك. والغريب في الأمر، أنّه حتى (من لا مأوى لهم) SDF لا يقربوها. نظرتُ، حائرة، إلى الناس الذين يتضورون جوعاً ولكنّهم يرفضون القنطار وجبة هامبورغر مخدوشة، وكأنّها تحمل كلّ فيروسات العالم. في وقت ما، كانت هذه الشطيرة نفسها، مقضومة أو غير مقضومة، لتشكّل بالنسبة لي وليمة حياة... حملاً تعيش في مملكة التبذير، التي حتى يؤسّاءها يشمّنون من الطعام. ولكنّه صحيح بأنّ من لا مأوى لهم يشربون النبيذ أكثر ممّا ياكلون... وذلك ليتخادروا، ليتدفّأوا، ليلبّوا اللذة من الباب الضيق.

الحمار، سوف يقولون لي. إنّها مهنة مستقلة تماماً، بالإضافة إلى أنّها ليست في متناول الجميع.

آه حسن...

إلى ذلك، أدركت سريعاً حقيقة أنّ SDF ليسوا  
الوحيدين الذين يشربون؛ ففي المسرح الغنائي الكبير، يأخذ  
الكحول الدور الأول على الدوام. أيّاً كانت المائدة، من مطعم  
فطائر الحمي وحتى لو غران فيفور، تناول الطعام يعني احتساء  
المشروب. بين المشروب الفاتح للشهية، والنبيذ والبيرة  
والهاضم، يُعَمَّرُ أيُّ غذاء بالكحول. وجبة بلا كحول تُعَتَبَرُ  
كثيبة؛ لم أفهم بعد لماذا تكون وجبة مريّة أكثر هناءً إلى هذا  
الحد، ولكن لو كنت قد فهمت ذلك، لما غدت سجينة مُطْلَقٌ  
سراحها بلا معالم ولا جذور.

النبيذ، على نحو خاص، يتركني في حيرة من أمري. فهو  
يُرَاقَب، ويُرْتَشَف، ويُنْظَرُ إليه بشغاف، ويُعْثَرُ فيه على نكهة  
هنا، وعلى نغميّة هناك، يُعْتَقَدُ بأنّه يمتاز مع السمك، أو  
مضحك مع الحلوى. يلزم قاموسٌ جلدولة أوصافه، وشهادة  
بوليتكنيكي لل فراغ من دقائقه. ولأنّ كلّ إنسان حرّاً لا يودّ  
الاعتراف بجبهله، في أيّ مجال كان، يغطّ أحدهم نفسه في  
الزجاجة ليديّ بتعليقه القصير على النبيذ. بشكل عام، يُسَكَبُ  
القليل من النبيذ في قعر الكأس قبل تقديمه للرجال. لابتة من  
تحريك هذه القطرة في قعر الكأس لسبب أجبهله، وشمّها بعمق،  
ومن ثمّ احتسانها، يتمزّر، واتخاذ هيئة وقورة وموحية. ثمّ يأتي  
التعليق، الذي ينتظره كل من على المائدة وكأنّها كلمة السني.  
إنّه جيد. لم يفحّ بالرائحة بما فيه الكفاية. له رائحة الكشمش.  
إنّه مجفّف. إنّه لاذع. إنّه فاتر. إنّه ممتاز. إنّه أقلّ جودة من المرّة  
السابقة. وسيفاق أكثر رزانة بمزّة من الرأس، وهو الرضا

الصامت الذي كان النادل ينتظره، مزروعاً وقارورته في صمت  
ورع. فيما يبدو لي، إنّ نتيجة طقوس الترحاب هذه هي دائماً  
ذاقاً: يُقدّم النبيذ ويُشْرَب. لم أر قط قارورة تُرفّض، ومع ذلك،  
بقي ذلك الطقس متبعاً.

ما أن تنتهي كلّ هذه الحركات الاستعراضية، يُزْدَرَدُ  
المشروب النفيس دون أن يُعار أدنى اهتمام، جُرعة مع السلطة،  
وأخرى أكبر مع لحم الفخذ، وفي كلّ مرّة فرغ كأس، يُملأ لي  
دون أن أسأل إن كنت ظمّانة.

لا أهمية للظما والجوع، فالمرحح اليومي للمائدة يقتّم  
ظهوراً ومساءً المسرحية ذاقاً، والتي تأخذ فيها دوراً أعقد بكثير  
مما ينبغي. وإذا كان لايت من إسناد ذلك الدور لي، كنتُ  
ساحيله دوراً بسيطاً، أن يأكل المرء حينما يجوع ويشرب حينما  
يعطش، الأمران اللذان، على علاقتما، بدوا لي لزمانٍ طويلٍ  
نفيسين.

ككلّ المقتلعين عن جذورهم، انبهرتُ بجذور الآخرين،  
إلى درجة أنني أحسد أحياناً الباريسيين الذي ألتقي بهم، والذين  
أكبر مغامرة هم هي أن يغيّروا الدائرة التي يقيمون فيها. لا  
شك أنّ هذه الطقوس الموروثة من التقاليد تجري بسهولة  
بالنسبة لهم. الحبز والنبيذ، هم لديّ فرنسا هذه التي يشقّ عليّ  
كثيراً أن أجِد نفسي فيها...

المائدة الوحيدة التي استمتعتُ بها حقّاً منذ إطلاق سراحني  
( إذا أمكن إطلاق تسمية مائدة على حصيرة مفروشة مباشرة



## الكتابة شهادة على حياة

النجاة. كنتُ مذبذبة بالنجاة. إثمٌ غريب. وحلداً إمكانية أن أهلي بشهادتي، أن أقول للعالم أجمع بأنَّ المغرب لم يكن في الحقيقة تلك الديمقراطية التي يساندها الغرب، وخاصة فرنسا. لا بد أن تُكشَفَ هذه الحقيقة المقتعة بالملكية للجميع. إذ يمكن الرواية حقيقتنا، التي شاركت في الكشف البطيء عن مصير السجناء السياسيين، أن تساعدني في الماضي قديماً. بكتابتني لرواية السجينة، التي لم يكن يوسعي تقييم مستوى نجاحها بالتأكيد، كنتُ أعزِّم الماضي، كنتُ أفرّج منه جزئياً، ولكنني أيضاً كنتُ أعاني من عبء دور محدّد: دور الضحية. إذا شاء المرء أن يرى الأمور بتفاوت أكثر، لا يزال صدى كلمات أوبرا وينفراي يرنّ في أعمالي: «لقد ولدت لتكوني رسالة». لقد قضيت وقتاً طويلاً حتى أطلقت رسالة، وقد حرمني ذلك أحياناً من أن أعيش حياتي. منذ أن حصلتُ على آدم، عرفتُ بأنني تخلصتُ من أن أكون ضحية. ولّى الماضي، وأصبح المستقبل يعني.

En5aM

www.rewityq.com

الكتابة. لسنوات طويلة، كنتُ دون كتابة، لانعدام الورق والقلم. حفرتُ كلَّ كلمة في ذاكرتي، تحسباً ليوم قد ألدها فيه من جديد، بعيداً عن السجن. قُطِعاً. على ورق حقيقي، وبقلم حقيقي. بحيثُ أعطيتُ أخيراً حياةً مادية للكتب المترددة المتطايّرة في داخلي. نضج كلُّ واحدٍ منها بأناته، على

\* أي اكتب تعويذة أو رقية

على الأرض) هي في صحراء الأطلس. هناك في الصحراء، يقتاتُ بدوّ ضنينون بالكلام في صمتٍ على حفنة من البلح، ويبدو لي أنهم قد فهموا كلَّ شيء بحسِّ الحياة. أنا، ابنة البربر وحفيدهم أشعر بنفسي أكثر هناء وسعادة في الزهد في المأكول من أن أكون في طقوس العريضة العبيّة. أشعرُ وكأنني أيضاً بدوية مثل أهل الكتبان أولئك. فليعطوني قليلاً من الماء، ويضع حيات من البلح، وشيئاً من الرزِّ أيام العيد؛ وسأكون أسعد امرأة في العالم.

En5aM

www.rewityq.com

مدى عشرين عاماً. فهمتُ منها الكثير، قصصاً، وأقاصيص، وحكايات، ومراسلات، مقاطع من حياتي وحياة الآخرين. تعلّمتُ بكلِّ واحدة من تلك القصص، بكلِّ شخصية فيها، بكلِّ لغزٍ يكتمها، وبكلِّ خاتمةٍ تنتهي بها.

كان من الطبيعي أن تكون من بين أولى المتع السقي انسجمتُ معها، متعة زيارة معبدها المقدّس: المكتبات. وما أكثرها في باريس. ولكن، في العالم الحرّ، ها هي الكتب بنفسها قد تغيّرت.

دخلت صدفةً، متظاهرة باللامبالاة، إلى مكتبة ضخمة على الضفة اليسرى وطلبتُ كتاباً بنبرة مازحة. ماذا كنتُ أتوقع؟ ربما مكتبة أحلامي، محلّ جيل يألوان نضرة، ورفوفٌ من خشبٍ أصهب، ومكتبيّ بشوش، يكون قد قرأ إلى آخر سطرٍ كلِّ عملٍ يعرضه على رفوف المكتبة. رجلٌ يشعر أشيب يكون قد عرفني، وربما سيكون قد علّق بدقّة وكفاءة على نزاي وعيوب شهادتي. لا أدري إن كان المكان موجوداً قبل ولادتي الجديدة، أم إنّه ليس سوى ثمرة خيال ممسوس بالمقدّس. يبقى أنّه لا بدّ من البحث جيّداً على الطاولات. المكتبيّ المشالي موجود، ولكن لديه الكثير مما ينبغي فعله، غارق تحت عبء الإصدارات الجديدة والصحافيا اليوميين، والنائحين والمعجرفين. هل أنا في حالة منافسة؟ للأسف، نعم. لا أريد أن أبيع مصيبي، ولكن قانون السوق هو الأقوى. علي أن أبلغ مكانتي. الكتب في كلّ مكان وليست في أيّ مكان، فالعرض فائضٌ بكثير عن الطلب.

كم هو عددنا نحن الذين نشهد ونسروي ونضحي وكشف عن آرائنا؟ أمتنع عن الإحصاء.

الكتب كبقية الأشياء: ثمة الكثير منها، يجتار المرء حياته. ليس هناك من سياسي أو مسرحي أو شخصية عاقبة إلا وكتب مذكراته أو أفكاره أو رؤاه أو مختاراته المفضّلة من الأغاني الفرنسية أو ألومه للصور العالمية. أكاد أشعر بالخجل من الانضمام إلى هذه النخبة: لقد دخلت شهادتي ضمن الكمّية التي لا يمكن الإحاطة بها من الإصدارات الجديدة.

قلتُ في نفسي، حانقةً، إن ألمي فريدٌ من نوعه. من سيمتلك الجرأة على أن يأخذه عليّ؟ إن ترجمة هذا الألم هي التجربة التي تتطبّب القوة. ومن جهة أخرى، كان ابتكار هذا الكتاب ولادةً مزية. تسعة أشهر من العمل، إلى جانب صديقي الصحافي ميشل فيتوسي، أفضت إلى حكاية لا أنجح لي إقناعي بأنني بطلتها. تسعة أشهر طويلة وقاسية، كنتُ أنظر حالها إلى الأمام، دون أيّ التفات. لثلاث مرات في الأسبوع، رويتُ لميشل أيام العزّ والشقاء. تكلمتُ بلا حدود، بلا حظور، بلا تنقّس. بدناً أحاديثنا بالخراف من أن نكون مراقبتين، وأودعْتُ تسجيلاتنا حالاً في مأمّن عند الناشر، وكأنّها ستكون سرّية. أكان ذلك ذهاناً هذائياً؟ ربما، ولكننا كنّا مقتنعين بأنّه يتمّ التنصّت على هاتفنا. كانت بيننا رموز سرّية: «الطاجن» أو «الوصفة» كانتا تعيان بأننا سنستأنف العمل معاً. سكوت! الأذان المعادية تنصت إلينا. بعض المشاهد المخجلة، التي نسيتهما أنا بنفسني، طفت على السطح. ذكرتُ

الداخل الذي يفتح، وسجّاتين خارجين من جهات مجهولة،  
الذين يبحثون عني لأقضي مزيداً من العقوبات على جرائم لم  
أفكرها. لا شك أن البراءة تولد إنعاشها الخاص، تولد في ذاتها وفي  
لعل الآخرين الشهادة.

إذا، اخترت بوعي تام أن أعود إلى الجحيم، أن أقود  
ميشيل إلى كسر هذا الباب الذي اقتضى متي أربعة وعشرين  
عاماً لأجواز عبته. أنا بلا هوية أو أكاد.

في اللحظة التي أبدأ فيها بالاعتراف، لا أعود أعرف من  
أكون. لمن أستطيع أن أبوح: كلاً، لم أحلم باني، لقد حملت  
بالحسن الثاني. حينما كنت أستيقظ، كان يعتريني الخجل  
والعار. لم أكن أستطيع مشاطرة ذلك مع أهلي: سوف لن  
يفهموا موقفي. لم يكونوا قد تربوا في القصر، مثلي. وكنت قد  
افتنعت أحياناً بأن الملك لم يكن جديراً، وبأنه كان قد عجز عن  
الوفاء بمهمته كأب متين وحام، حينها أكون قد كرهته! كانت  
ميشيل، المختلفة عني جداً، تجيد إعادة الثقة إلي، وامتصاص  
تلك المشاعر المتناقضة، كمؤلفة كلمات. كانت شرقة احتمى  
بها، ملجأ كنت أصل إليه أحياناً محبطة واهنة العزيمة. كنت  
نشر شياً وكان الطفلان، ليا وهوغو، يقاطعنا بفرح.  
كانت الحياة قد انتشرت من حولي، تشيع نواة عزلة.

أحياناً، كنت أصل، مسلوقة الشعور بالاتجاه أو بالوقت،  
إلى بيت ميشيل متأخرة، مَغِيظَةٌ لأن باب بيتها يكون قد غُيِّرَ  
مكانه، أو أن موقف الحافلة كان قد غُيِّرَ خلسة من شارع إلى  
آخر. حينذاك، لقبستي ميشيل «مونغوليسا». «أوقفي

للمرة الأولى طفولتي المزدوجة، المتواطئة مع الطغيان، والحادمة  
له. انفتح القصر الملكي لأحلامي كغلبة بَندور. وهكذا، ألم  
يكن معلماً للقرآن، الشيخ ذو الهيئة الشاححة، الذي كان  
يرغبنا على تقبيل يده، ذلك الرجل الولي الذي كان يؤمن  
بالجنّ ويقرأ السور القرآنية، هو أول من نظر إليّ كامرأة؟ إلى  
أي مدى ذهب حينذاك؟ أحفظ منه بالإحساس الغامض  
والخجل لرجل أثارته فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها. دعيتني  
ميشيل، سرّاً، أن أستمير عالماً مختصاً بالجنس. الذي سيُفهمني  
الحقيقة، المكبوتة، المحبوسة. إلى هنا تعود مخاوفي المسبقة من  
العلاقات الجنسية، المقرونة بفكرة الهيمنة. طبعاً، أتذكر ذلك،  
ولكنني أردت أن أنسى.

بعداً عن شعوري بالتخفّف من خلال شهادتي، يتنامى  
الخوف الذي يصاحبني منذ أربع وعشرين سنة خلت: الخوف  
من الانتقام، الخوف من جلاّدي، الخوف من عنادهم في  
حرمانني الأبد من ركن منير، الخوف على أهلي، الخوف من  
الحياة. عبثاً أجد نفسي بعيدة عن سجّاتي، في منبج تام خلف  
ترس وسائل الإعلام، يبدو لي أن كل شيء قد ينقلب في رقة  
جفن. ثم أخاف، واقعياً؟ أخاف الكثير من الأشياء كي لا أجد  
فيها سوى سبب وحيد. بعض الأهوال راسخة في داخلي عميقاً  
جداً بحيث تعصى على المنطق. أستيقظ أحياناً في منتصف الليل،  
في ساعات باهتة، حيث لا يعرف المرء تماماً إن كان لا يزال  
يحلم، بمَقْدَرَةٍ أنني أسمع وقع خطي على الدرج، وصرير باب



أوفقيري باتك»، كانت توثيخي بابتهاج. كنتُ أتكلّم كثيراً، دره إعطاء الإيضاحات المتعلقة بالحدث والتي كانت ميليل توليها أهمية؛ فكانت تقول لي، بين الابتسامة والصوران: «Only facts». كانت تعرف حالتي: كنتُ قد فوجئت بحادث غير متوقّع. كنتُ مرّيجّة عابرة سبيل. مع ميشيل كنتُ أضلّحت أيضاً، إلى أن تجري دموعي، باستحضار ما كنّا قد عانيناه في الإبقاء على روح الفكاهة. أحبّ الضحك ولكن لا بد من شخصين على الأقلّ لأجل ذلك. هذا الكتاب مثلاً، كنّا نبتكره لكي أتوقّف عن أكون ابنة الجنرال أوفقيري، الضحية، كوزيت السجينة، الأميرة المقتلة من رقاد القصر. كنتُ في حاجة إلى أحد ما، لأنني، بمفردي، لم أكن لأتجح في ذلك. مع ذلك، كنتُ قد حاولت الكتابة، لمئات المرات، من خلال مقتطفات، ولكن كان من المتعذّر تجاوز العقبة.

ميشيل امرأة ماهرة، ناضجة، وهي صحافية ملتزمة وروائية وناشرة لأعمالها، أمّ لطفلين ناجحين. ورغم مسيرتها الصحافية حينما كانت في سنيّ، فقد ألّفت حياةً وحقيقيةً، في انسجامٍ كاملٍ مع ذاتها ومع خياراتها ومع أنوثتها. لديها كلّ ما أعدمه. إنّها تلك التي كان يمكن لي أن أكونها في ظروف مختلفة.

بعد الكتابة، كان النجاح. نجاحٌ فرنسيّ أولاً، وأوروبيّ ومن ثمّ أمريكيّ، أي نجاحٌ عالمي. حينما كنتُ أصل إلى دار ناشري في شارع سان بير، كان باستطاعتي أن أقضي ربع ساعة أمام الواجهة: كنتُ أرى كتابي، تتوسّطه صورتنا نحن الستّة،

الاشغال في ريق العمر، عيونهم داكنة. لم يغيّرني النجاح، بل على العكس من ذلك، ولكنّه أخرجني من الخفاء. القراء، ورود الأفعال، المؤتمرات، كان كلّ شيء يأتي بلا ترتيب، أمواجاً من الأيدي الممدودة. أ جاء ذلك بعد فوات الأوان؟ لماذا لم يستجب كلّ هؤلاء، من كاتب افتتاحيات، ورجل سياسة، وحركة نسائية محتكة، ميكراً، حينما كنّا بحاجة لهم؟ نعم: لماذا؟

بالفكر العميق بذلك، لا أدري حقّاً ما الذي أثره لدى فراني: أهو تعاطف، أم مجرد نزوع إلى المعلومة، أم فضول، فليل من التلصص الحاي الذي يساعد الناس في أن يقارنوا مصانهم بمصيتي. في صالونات الكتاب، بينما كنتُ خلف طاولتي الصغيرة، كان كلّ واحد يأتي ويحتك بمصيتي. في مونتيليه، لا زلتُ أذكر رجلاً مغرباً مستاً، أخذ به الحنين إلى ما كان يعنيه لقب أوفقيري، أهداني سجادة! في مدينة أخرى، كان الناس يسألوني، وكانني الأم تريزا، كانوا يطلبون الوصفة السحرية للتخلص من الشقاء، التعويذة المضادة للشقاء. وفي مدن أخرى أيضاً، كان ضحايا آخرون لأنظمة أكثر فساداً ينادونني في قلبي بكلمة! متى سيُفهم أنني لا أشارك في مارتون للألم؟

هذا النجاح، لا أنظر إليه ككتابة وإلّا ك امرأة؛ فأنا أعرف أفضل من أيّ شخص أن كتابي قد يتحوّل فيلماً أو ريبورتاجاً أو مقالةً في صحيفة. هذه شهادتي المهمة، وإذا كانت

أرصة أن أدري قصتي. الآن أيضاً، وطبعاً في المغرب، نددتُ لي ابن التقي باناس يتسمون لي، يتقربون إلي، ويقولون لي بساطة: شكرًا. لا أدري ماذا أقول، ولكنني مازلت متأثرة، زكّيتها المرّة الأولى والوحيدة.

تتالت البرامج، ورغم كلامي الذي بقي في العمق هو نفسه، إلا أنها لم تتشابه. طوال ساعتين خلال نفس طويل، تكلمت وأجبت بتواتر على أسئلة، ورويت من جديد وباستمرار ما قادي إلى هنا، أمام جمهور جالس باحترام وكأنه في عرض مسرحي. النقاشات أقل تأثيراً من مؤثر لحافي ( تلك الجلسات المطوّلة التي يتحدث فيها المرء بغيره بقلبه صمت كاتدرائية)، ولكنها في المقابل تشلني بإمكان عدائية محتمة من المتحاورين معي. ماذا كان سيجري لو أخذهم أخذ يدني، ويدافع بقوة عن قضية جلادي، بل وشكك في كلامي؟ كنتُ سأعدهم وسائلي. أعلم أنني كنتُ سأعدهم وسائلي. لحسن الحظ، لم يحاول أحد حتى يونساني يجعل تقني الهشة قهقري.

دائماً، تكون اللحظات الأولى مفزعة. يلم المشاركون الآخرون، يسترخون، يرقبونني بطرف عينيهم وكل يعرفون مسبقاً ما سيسألوني عنه. بالنسبة لهم، البتة الباعجود لعية، أما بالنسبة لي، فهو حفلة تعز أمام الجمهور، نزل العلاج النفسي بالصدمة. ككل مرّة، راودتني الرغبة أن أنكر الميكروفون والحضور والمناقشة هناك لأعتزل ليدة عن النظرات... وحالاً تناسب كلامي متتالية، تكاد أن خارج

تتبر ضجة، فذلك لأنها تكشف أهوال سلطة ثنولية والقسوة المائلة للملك. حاولت - وان كنتُ هب القلق والرعب - أن أسئلة بانتقائي. شعرتُ أنني قاتلة ملك، آملّة لو أن الحسن الثاني قد حظي بالوقت الكافي ليقرأني قبل موته. حتى وإن لم يقرأني، ما كانت مخابراته السرية لتختلف عن إعلامه بأن تلك التي اعتقد بأنه أفاها إلى الأبد تُسمع صوّها للعالم. بالمعنى الحقيقي مثلما هو بالمعنى المجازي.

للمرّة الأولى التي عبرتُ فيها عن آرائي أمام الجمهور، أبعد من الكلمات، مذهولة - كمثال حقيقي - كنتُ مفتونة جداً بسحر أن أسمع صوتي للناس.

بدا لي صوتي، وهو يسير في مكبرات الصوت، غريباً، وثائياً، دون أن أعتبر بأنه صوت طفلة مرتجفة خجلاً. التوت يداي في كلّ الاتجاهات وانعقدت معدني. ولكن السحر فعل فعله بعد كل حساب. أصاح المستمعون السمع إلي، يصمت مطبق، منجذبين نحو لي لدرجة أن انتباههم كاد أن يكون محسوساً. استمعوا إلي. نظروا إلي. احتراموني. وولدتُ من جديد. استعدتُ وجودي. ومع ذلك كنتُ نفس تلك التي جرى تجاهلها بشموخ طيلة شهور. دبت الحياة في كلمة بعد كلمة. ماذا هناك أكثر إدهاشاً للإنسان من ذلك الإحساس بالعودة إلى الحياة، بإطلاق صرخته الأولى في الرابعة والأربعين من عمره، وخاصة، بأن يكون مدفوعاً بفكرة البدء من جديد؟ لأنني لا أكمل، وإنما أبدأ.

أنا ممتنة لكل القراء، لكل هؤلاء المجهولين الذين منحوني

سيطرتي، لا أعود أميز الوجوه بين الجمهور، ولا أعود أخشى عدوانية المشاركين، تهدأ أنفاسي وتستقر، ويكفّ قلبي عن الخفقان الشديد. بكلمة واحدة، أروّض القلق.

EnSaM

www.rgwlty.com

- آسف لإزعاجك...

رفعْتُ رأسي، مستغرقة في أفكار. بعد مناقشة، كنتُ مثل ملاكم عادٍ إلى حجرة الثياب (ذاك الذي لا زال واقفاً، وليس الآخر): خاوية، مرهقة. ولكن متخففة من ألمي أيضاً. أكاد أكون هادئة راقية. الرجل الذي انتصب أمامي للتوّ، هو في الخمسينات من عمره. بدت عليه تلك الهيئة الرزينة والجميدة التي تكون أحياناً للأطفال الذين لديهم شيء هام ليقولوه.

- كنتُ أريد أن أهتلك فقط...

شكرته بتهذيب، وأنا أتساءل عما يمكنه أن يهتني عليه. ربّما على الحديث دون أخطاء. أمّا سوى ذلك، فانا حصيلة ما فعلت في الحياة.

- ... وأقول لك بأنني سعيدة للغاية بأن عرفتُ أنّ والدك هو الآن رئيس الجمهورية!

حتى إذا كان الموتى يعودون حقاً من قبورهم، كان على والدي في ذلك اليوم أن يعود ذرويشاً.

- الأسبوع القادم، ستقومين بتوقيع على الكتاب، قال لي الناشر، هذا ليس مشيراً للاهتمام ولكن، هنا، لأبّه من الإذعان.

التوقيع. لا شيء يدعو للقلق، قلتُ في نفسي، بالنسبة لمن خرجت من سلسلة متواصلة من المقابلات والمناقشات، وهي كالموس كل انطوائية تحترم نفسها.

لأنّ كهف التوقيع هو حلبة، يلعب فيها المؤلف، حسب استعداداته، دور الثور، دور مصارع أسوء إعداده كثيراً أو قليلاً، لا بل، بالنسبة للأكثر تعاسة، دور الضحية التي تُرمى فريسةً للسباع لتسلية الدّهماء.

- ها آنك ترين، كلّ هؤلاء الناس هنا من أجلك! قال لي الناشر بحماسة، معتقداً بلا شك أنه يُريجي.

- حقاً؟

- أعتقد أنّهم يصطفون لتهدّي لهم كتابك بعبارة منك، إلا إذا كانوا يظنون أنّك تديرين الصندوق.

EnSaM

www.rgwlty.com

- الجميع؟

- الجميع.

لم نتجاوز أبواب تلك المكتبة التي سبق ورغبْتُ في أن أوتّي هاربةً منها. كلّ هؤلاء الناس هنا من أجلي... هذا كلّ شيء عدا أن يكون خيراً مفرحاً، لأنّ العدد يصنّع حشداً، والحشد يُصيّبني بالانتقايض. كان ثمة أناس من كلّ المستويات ومن كلّ الأعمار، من السيّدة كما ينبغي إلى الطالب الصغير الفلّس، بسرّوالة الجيّتر البالي. هناك وجوه أكثر ما كانت مغربية، معتية طبعاً بمديني، ومجموعة من الأميركيين الذين



لم أعلم شيئاً عن ذلك. خفق قلبي سريعاً. لم أرغب لا في الجلوس ولا في شرب كوبٍ من الماء.

لو كنتُ قد أردتُ شرب كوبٍ من الماء، لكنْتُ سأفعل ذلك في بيتي، بين جدران أربعة، بعيدةً عن عشرات الأزواج من الأعين هذه، التي تراقب أدنى ردود أفعالي. من جديد، دبّ الخوف من الآخر في داخلي، تقدّمت السجينة على الكاتبة، واحتجبتُ إلى ثبات كبير كي لا أعدل عن موقعي وأدلف إلى أول سيارة تاكسي قارئةً من المكان.

علت أكديس الكتب على الطاولة كالأبراج. انزلقتُ، خفيةً، على كرسيّ لأضع واحدة من الأكديس بين يمين طاوور الانتظار. لكنّ لا شيء سيُحسن إختفائي عن أنظار ذلك الطاوور، الطويل جداً بحيث لم أتمزجاً على رفع ناظري. شاهدتُ، من مكاني، أجساداً تتدافع، وأيادٍ ممدودة تحوي.

ما كنتُ أجلس، حتى قاطعتني صوتٌ به غنة:

En3aM

www.rzwily.com

— إلى كريستيل ودادو!

— ماذا؟

مكثت فثاةً في حوالي العشرين من عمرها أمامي، وقد ضمتُ إلى صدرها نسخة من كتابي وكأنّ أحدًا ما كان سينزعه منها.

— الإهداء، إلى كريستيل ودادو.

سيدس كريستيل ودادو كتابي في مكتبتهما، فخورين

ببضعة السطور المخترشة بعجلة:

تساءلتُ إن كانوا قد قرأوا الكتاب بنصّه الفرنسي، وسبّاه مصحوبة بعدد كبير من الصيَّان لا بدّ أنّهم سيضجرون للعباءة في عالم الكتب بلا صور هذا. أيهتمون جميعهم بي، بقصتي؟ يصعبُ عليّ تصديق ذلك. ربّما فقط ينتظرون إفشاء معلوماتٍ مسلية عن النظام، تفاصيل غير منشورة عن الحسن الثاني. ما الذي لم أفكر به عاجلاً؟ غالباً ما لاحظتُ أنّ المجلات الشعبية قد حظيت بنجاح باهر في حياة هذه التماثيل المجهولة، الضاحجة بالنشاط. يعلم المرء من خلالها بشئٍ الأمور حول الرؤوس المتوجّة، يقرأ فيها، في ألفة صالات الانتظار، مصير الملوك وطيش الأمراء ومجونهم. حينها، خشيتُ أن يُنتظر ذلك متني، وقائع شاذة بعض الشيء عن خفايا السراي الملكي. «في الحياة الخاصة لملك المغرب». «الحسن الثاني المجهول». «أنا، الأميرة المخلوعة».

طبعاً، أعرف بعض الأمور، فبحثُ قلبي ورويتُ قصة حياتي. ولكن ان كانوا يريدون شيئاً غير قصة حياتي، فسيخيب ظنّهم بشهادتي. لم أهاجم قطّ وطني، يبقى المغرب بالنسبة لي تربةً ساحرة، استمد منها قواي. إنني أصقّي حساباتي مع الملك. كانت لدي فكرة راسخة: تنفقر المجتمعات الحديثة، أوروبية كانت أم إسلامية، إلى الحدة الأدنى من الحرية كي لا يشعر المرء بأنّه حبيس قوابلها.

— اجلسي، نثّ الجلود الذي أعدّه ذلك الإعدام. أترغبين في كوبٍ من الماء؟

استدرتُ نحوه، مندهشةً لوجوده هنا. أهو صاحب المكتبة؟

« بمحبة. م. أ » بمحبة، حسب التعبير الشائع، كما لو كنا نعرف بعضنا منذ الأزل. بمحبة... إنها الصداقة المتجردة من الماديات التي تخلقها اللعبة الكبرى لوسائل الإعلام. ثلاث كلمات مكتوبة على غير هدى على صفحة بيضاء، تماماً تحسب الإهداء « الفعلي »، وهنا إذا نحن إلى معرفة قديمة.

— تبدين في أحسن حال، قال رجلٌ نائبة في طابور الجھولين، مندهشاً، خائب الظن في الواقع.

كدت أن أعتذر عن عدم كوني شيخ المعقولة ذي الثلاثين كيلو غراماً الذي كان يأمل أن يراه. ولاقيت، واحدة فواحدة، النظرات الخملقة التي كانت تمتد نحوي وكأنها لتجذب أنظاري. البعض منهم هنا ليعتروا عن مساندتهم ومحبتهم، وآخرون لإرضاء فضولهم المنحرف أحياناً. أنا بمحبة هؤلاء كما لأولئك؛ فمن خلالهم أستمر، تارة حقيقية وتارة مصطنعة، موجودة ومتصورة بالتناوب، ولكن دائماً حية، وهذه الحقيقة تبرر كل شيء.

بمرور الوقت، اعتدت على التوقعيات، مثلما روضت الميكروفرات. للحظات، تظهر أطباق تعتم عليّ غاري، وتطاردي لأوقات مديدة، وأحياناً لأيام عديدة. هذه الأشباح الشريرة تنفي تجربتي، وتصرخ متهمه إياي بالكذب أو المبالغة، وترفض أدنى اتهام ضدّ الملك مثل أسوأ الوشائيات.

ودائماً يتعلّق الأمر بمغاربة، مواطنين منفسين بمحض رغبتهم، ابتدعوا لأنفسهم، بعيداً عن الدار البيضاء، حركات

وسنة ساخطة في فرنسا وغيرها، يلوح هؤلاء المصلحون المطالب تشكيكي يجمّد ظهري؛ فوالدي أصبح جالداً بدل الملائين، وأنا أصبحت أداة دعائية مأجورة لصالح الآخرين. لا يشكّل هؤلاء المعارضين، في مقابل الأغلبية العظمى من قرائتي، سوى حفة، ولكن الغريب أن هؤلاء هم من تركوا الأثر الأعمق عليّ، وتأكيدهم تقع عليّ وكأنها علامات بالحديد الهامي على جسدي. لا شيء أسوأ من الإنكار، من هزّ الكفين لرجل لا يعرف شيئاً ويعتقد أنّه يعرف، والذي بتعليق لا ذع، يكسح عشرين عاماً من الآلام والعذاب وكأنها لم تكن قد وجدت قط.

صالون جينيف للكتاب ليس مختلفاً كثيراً عن صالون باريس؛ فبدا لي وكأنني سبق وأن عشت ذلك الشعور بالانسحاق تحت عشرات الأطنان من الكتب، وسط مدّ يشري غفير بحيث تخطط الوجوه. أين أصدقائي، ناشري، ومحققتي الصحفية؟ أين أيريك؟ ربما كانوا قريبين جداً، ولكن في كل الأحوال سوف لن أراهم.

تنافس كبرى دور النشر بلوحات إعلانية، بلافتات، كل واحدة أكبر من الأخرى. قبة ضخمة لإحداها، ألعاب ضوئية ساطعة لأخرى، يجب أن يكون الهدف مرئياً من بعيد، لأنه لا بد من البيع. من طاوتي التي أجلسْتُ عليها لأوقع كدساً من كتي، شاهدتُ شيئاً أشبه بمثدّة تدور، في جهة وسط الحشد.

توقّف زوجان، لفظهما مدّ المتسكّعين، أمامي، وعاباني كما يُعاني حيوان في قفص. كدت أنحتسب لأن أرمي بحفنة من

القول السوداني... حاول الرجل والمرأة، دون أن يخفيا فضولهما، قراءة عنوان كتابي؛ ليس هذا صعباً جداً، هنالك عشرون كتاباً منه على الطاولة.

- ما هذا؟ سألت المرأة.

- تعلمين... المرأة - قاطعة الطريق، أجاب الرجل خافضاً نبرته، ولكن حتى يُسمع الصوت في صالون جنيف، لا بد من الصراخ بأعلى ما يبلغ...

- مَنْ تكون هذه؟

- أجل، الهندية... ألا تتذكرين... لقد شاهدناها في التلفزيون.

حينما رأيتهما، يتشبَّث الواحد منهما بالآخر، يومقاني بطرف عينهم، متضايقين بعض الشيء ولكن غير قادرين على مقاومة الفضول، سألت نفسي مَنْ من بيننا حقاً في القفص. انتهى الرجل بأن بادرنى باتسامة أشبه بتكشيرة، ثم شدَّ زوجته من ذراعها.

- تعالي، يوجد سوليتزر هناك.

سمعتُ ثانية صوتهما بعد برهة:

- أَيْهَ هندية؟ لا أتذكر!

- أجل، المرأة المسنة التي أُعْصِيت... في الهند...

- آه، نعم! قل ذلك، كم هي نحيلة...

الهندية المقصودة تصدّرت الصفحات الأولى للصحف تقريباً في تزامن معي؛ فقد خصّص لها موضوعٌ في اليوم الذي كنتُ قد أُسْتُخِفْتُ فيه أثناء نشرة الأخبار التلفزيونية. كانت تلك الفتاة، المغتصبة، المهانة، قد تحصّنت في قرية جبلية، وشنت من هناك حرب عصابات حقيقية ضدّ النظام، متزعمة عصاية. وكانت، الوجه النسائي لروين الأدغال، تناضل... إن أسعفتني الذاكرة - في سبيل قضية النساء، وفي سبيل عزّها، وربّما أيضاً لأسباب أقلّ نبلاً. معاً جنباً إلى جنب، في نشرة الأخبار التلفزيونية ذاتها، ها نحن الاثنين نمتزج بمرح. لأنّ الألم لا هوية له...



## مغربي

« المغرب: مملكة بألف نكهة »...

منذ أيام، ينتشر هذا الشعار على جنبات كل حافلات باريس، على قاعدة المنارات، والكيبان، والبيوت المبيضة بالجير، والأزقة الساطعة بالألوان. المرة الأولى التي رأيت فيها هذه الإعلانات، مكثت جامدة كتمثال، لرؤية صورة سوق المدينة تبعد على خلفية حافلة. ثارت ذكريات كنت أظنها غير مؤلمة عتيقة في داخلي. ذكريات تغير وقعها الآن في كل ركن من الشارع وأنا أرى وطني يمر على طول جادة سان جرمان. لعشر مرات في اليوم، الشعار نفسه يتكرر على صور مختلفة، جمال عند مغيب الشمس، سوق، بضعة نخلات، والكسكسو الأبدى الفانج على طاولته النحاسية، الذي يسيل لعب سائقي الحافلات التائهين وسط الزحام. منذ وصولي إلى باريس، ويجري دفعي باستمرار إلى أن أعلن كرهبي للمغرب. بالنسبة للناس الأحرار، العالم على صورة فيلم الساعة 20.30 التلفزيوني: هناك الأخيار والأشرار، وبنال الأشرار عموماً عقابهم في النهاية، اللهم إلا إذا كانوا ملوك المغرب. وكما هو الحال في الأفلام، لا بد أن تكون نهاية تحرري سعيدة happy end، سعادة بلا لون معتدل لن تستولي عليها أصغر ذرة من الحنين.

يا لفضاعة هذا البلد، قال أحد الأصدقاء متأثراً وهو يهز

رأسه بوزانة.

En3aM

www.rzwity.com

En3aM

www.rzwity.com

الأطعمة اللذيذة بإفراط على من يرغب - تلك المسؤولة التي  
أحلى العمر ظهرها، وتلك الفتاة الصغيرة ذات العينين  
الواسعتين الداكنتين، المرتدية أحياناً لا تقفل من وقارها. أشاهد،  
مملّية، السياح الذين يُفتنهم سحرة الشعاب. يحدث أحياناً أن  
يعترف عرافٌ إليّ فيأتي ليتنبأ بمستقبلي. إنه لا يواجه خطراً  
كثيراً!

بعد ذلك بعام تقريباً، كنت أقود سيارتي الضخمة ذات  
الدفع الرباعي، في شوارع الدار البيضاء. وأنا أغلق عيني،  
وكانني أتعلل بجوقة الصفارات، كدستُ أصدق تَبْؤُ ذلك  
العراف. فقد وجدتُ نفسي، متوترة الأعصاب، وسط ازدحام  
على الطريقة المغربية: أكثر ضجياً، أكثر تلوثاً، أكثر تلوثاً  
بالتأكيد من هنا، لأن الحرارة والشمس تضاعفان عشر مرات  
من الضرر الذي يسببه الديزل. كنتُ أقوم بسّ جولات من  
الذهاب والإياب، وربما أكثر أحياناً، بين أستوديو تصوير  
ومكاتب، ضمن وظيفتي الأولى كأميرة حرة والتي تكمن في  
القيام بكل المهام لوكالة إعلانية... كانت تتطلب في الواقع أن  
أقضي معظم وقتي وسط ذلك الازدحام لإرضاء نزوات مخرج  
غريب الأطوار. بات لدي الآن وضعاً خاصاً بي، راتباً، وظيفة  
معروفة، وإذا كانت لا تستطيع أن تنسني بأنني لا زلتُ لا  
أملك الإذن بالطيران إلى فرنسا، فإنها تزودني بمظهرٍ نفيسٍ من  
مظاهر الشعور بشخصيتي.

استغرقت مُمَلّة الدار البيضاء، من حولي، في فورة من  
الألوان والأضواء. تدفقت الحشود على طول الشوارع

عن أي بلد يتحدث؟ عن بلدي، بلا شك، وبعبارة  
مرّعة إرضاء لي. ماذا يعرف عن المغرب، عن تجربتي، عن  
العنة والظلام والنور في مملكة الألف نكهة؟

من جهة أبي، محمد أوفقير، ومن جهة أمي، فاطمة شتا، أنا  
سليلة البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كان مآوي ومأمن  
عائليهما، مهّأين دائماً للسانلين والاحتاجين، الذين يكفرون في  
تلك المناطق الصحراوية الفقيرة. يُعتقد بأنني أميرة: أنا سليلة  
الشعب. في السوق، غالباً ما يُقال لي: ولكنك تساموين  
كبربية! لقد وجدت صفائي وحبّ المغرب في الصحراء. لقد  
طفئت البلاد بطولها وعرضها، غالباً صحة صديقتي صباح،  
صديقة كلّ أخت، وأنا أمتع مكانة أثيرة لنفيليت، مهد  
أجدادي لأبي. أشعر نفسي ضاربة الجذور في هذه الأرض.  
وسط الكثبان الصلصالية اللون، وتلك المساحات الشاسعة من  
الرمال السمراء المذقية، وتلك الواحات من النخيل الماهولة  
بالبشر الزرق، يسود صمتٌ مطيقٌ. أدركتُ أين كانت  
جلوري. أنا مغربية عميقة الجذور. في مراكش، وليس في  
المأمونية أشعر أنني في بلدي. لا تساوي الفنادق الباذخة شيئاً  
عندي: فمهما حدث، أنا من طبقة دنيا! ساحة جمع الفنا، الفنا  
الذي يُستخدم منذ بعض الوقت ساحة إضراب حيث كانت قد  
عُرضت أجساد ورؤوس المتكلم بهم. عندما يحلّ المساء، كنتُ  
أجلس على مقاعد خشبية بسيطة مرتبة حول طاه مَرَح يشوي  
أسياخ الدجاج، ويظهر الطاجن باللحم وبالخضار، أي طعاماً  
بسيطاً. يتجمع الجائعون من حولنا، في جماعات، وأورّع

الرئيسية، وتعالَت أصوات الراديو والتلفاز والصرخات والضحكات والأصوات المتشابكة التسرية من كل نافذة ومن كل شرفة ومن كل محل مفتوح على الشارع. بدا كأن الجميع يتجرون الحياة، بينما أنا أنظر، بضني القلق، حبيسة سيارتي ذات الدفع الرباعي وكأنني معزولة. ولم أجد في ذلك، عدا السلام الرئائي، سوى نفاذ صبر متعاطم جعلني أتلو في مقعدي، يتملكني الجوع شيئاً فشيئاً.

ثمة لحظات تتداخل فيها العيان والمعدة، وهكذا كانت حالي وسط برج بابل ذاك، فالشيء الوحيد الذي جذب اهتمامي هو المنقلة الصغيرة لبائعة متجولة خبز السميد، على بعد مائة متر متي. لو لم أكن حبيسة تلك السيارة اللعينة، لأسرعت الخطى كي أستسلم لفيض من تلك القطائر المغربية اللذيذة، التي بلغتني رائحتها الشهية رغم المسافة ورغم كون زجاج السيارة مغلقاً والهواء مكثف. اشتري شابان، وكأتهما يزوريان بي، خبز السميد، الساخن جداً لدرجة يصعب عليهما الإمساك به. اتنايتي دوخة خفيفة، في حين ذكرتني معدتي، بجوقة من القرقرة، أن عاملة أمينة عليها ألا تنسى أن تتغذى.

تحولت الإشارة الضوئية إلى اللون الأحمر، بعد أن تقدمنا لبضعة أمتار فقط في الشارع المزدحم، حينما دق زجاج سيارتي، فجأة. انتفضت، من المفاجأة أكثر منه من الذعر، لأن للخوف في المغرب حدود، حدود سوف لن أجدها، فيما بعد، في أوروبا.

إنهما الشابان اللذان اشتريا للتو خبز السميد. عبرا

الشارع، واقفين وسط دفق السيارات، وأشاراً بأن أخفض الرجاج.

— خذي، يا سيدتي، قال لي أحدهما وهو يمدّ نخوي رغيفاً من خبز السميد ملفوف بورقة جريدة.

أمسكت، مذهولة، بما كان غاية كل استيهامي في تلك اللحظة.

En3aM  
www.rqwtly.com

— كنا ستمرض لو أكلناه دون أن نعطيك منه، شرح لي الآخر مبتسماً.

انطلقت الصغرات، وما كدت أن أتمم ببعض كلمات الشكر حتى أطلقا سيقانهما للريح، مستأنفين طريقهما وكأنّ شيئاً لم يكن.

هكذا هي المغرب، أكثر من سجون شباني. إنهما مجهولان لاحظا النظرة اللائسة لسائقة مجهولة، على رغيف خبز. إنهما لحظة كمال، يشعر فيها المرء بنشوة كونه ليس وحيداً في الدنيا. ربما توجد يلدان أخرى حيث تكفي نظرة بسيطة ليعبر المرء عمّا يريد، حيث لا يمكن للمرء أن يعزم على تلوق غداه دون إشباع امرأة جائعة. ساحب المغرب إلى الأبد، وسادافع عنها، أنا التي سرقت المغرب عشرين عاماً من عمرها، في مواجهة أولئك الذين يقدحونها. وطني ليس الملك المترع على عرشه. وطني ليس تلك الآلة القنعية التي يعبث بها رأس متوجّ كما يعبث بسلاح. وطني، هو هذا الشعب الذي يمدّ يده إليك دون أن ينتظر منك أيّ مقابل، شعب لا تلوي رأسه حتى رائحة أطيب القطائر في العالم.



للغاب لزيارة عائلي في الرباط، يمر الطريق الأقصر على المتاريس التي تتأخم، وسط مركز المدينة، سور القصر الملكي يخترق شارعاً رئيسياً من جهة إلى أخرى هذه الدائرة المقدسة في عيون كل المغاربة، والتي كانت دارني فيما مضى. ولكن مجرد فكرة العبور بها، تنقبض معدني، وتوتر في داخلي أسوأ الأحوال، غير المضبوطة، وتدفعني إلى القيام بأطول الالتفاتات إلى أن جاء يومٌ مني فيه أمر طارئ أن أسلك أطول الطرق، فوجدت نفسي في مواجهة قلعة الحرف تلك، مقررة العبور.

بلايف القاتل الذي يعود دائماً، كما يقال، إلى مسرح جريته، نادراً ما يميل السجين إلى التجول تحت نوافذ جلادته. خاصة عندما تنوء الأسوار تحت الذكريات، عندما تنضج بالضلل والعبوات في آن... بقيت طفولي رهينة ذلك السور المهيّب، حيث توقفت فوراً، كساعة محطمة.

عند أسفل المتاريس، بدا لي وكأنّ سيارتي لم يعجبها الموقف، اغتاضت، ورغم ضرباتي الحجولة على دراسة البيت، لم تتحرك سوى القهقري نحو سور القصر. على البوابة، بدارني شرطي يرتدي بزة نظامية فضفاضة بإشارة أمرة:

- تقدّمي!

تقدّمت، لو كان يعلم إلى أي مدى تقدّمت. أشارت لوحة إعلانية بأنه لا يمكن تجاوز سرعة 40 كيلومتراً في الساعة، وهي سرعة تفوق الصوت بالنسبة لي، فتجارت بمشقة على لمس دراسة الغازات. قد يروني، قد يسمعون، تجاوزني المشاة

بلا مشقة، والسيارات من خلفي وجّهت إلى نداءات ساخطة من مصايحها (إذ ليس من المستحسن على الدوام التزمير داخل دارة أمير المؤمنين). انتابني شعور بالدوار والانفاس والغث، كنت كامراً حامل حقيقة. ربما من جهة ما، تنفج نافذة وتكشف عن وجه مألوف... عين ثابتة قد تعرّف عليّ في الحال من خلف الزجاج الملون لسيارتي ذات الدفع الرباعي.

اختلطت الذكريات من حولي، تارة سعيدة وعذبة، وتارة فظة حارقة؛ انبعثت الحياة في الجدران وشرعت تروي حكايتي، وأنا الصغيرة المكشمة على نفسي في سيارتي، رأيت كل دقيقة تجري كأنها الأزل.

ضاق أحد السائقين ذرعاً، وكانت مقدّمة سيارته ملاصقة للدفاع الخلفي، ومرة رأسه من السقف المفتوح لسيارته:

- هل ستنامين هنا أم ماذا؟

لقد تمّت هنا لزم من مديد. ولذلك يشقّ عليّ كثيراً أن أتقدّم اليوم. قبالي، وعلى مبدعة بضع مئات من الأمصار، ينتظرني اعتناق جديد: الحامل الثانية، البوابة التي خرجت عبرها من القصر إلى الأبد. لدى وصولي إلى أسفل الحُرس، تباطأت سيارتي من جديد، الأمر الذي لا بدّ أن يُعده مائة في نظر النساء الذين يبعونني. رماني دركي الحراسة بنظرة تكفي لأن تصيبي بمزيد من التكرّر. وأنا في منتهى القلق والارتباك، أعملت يديّ وقدمي بنشاط، وانتهيت إلى التوقف المفاجئ على نحوٍ مثير للشفقة. اقترب الدركي، بينما انكبّ على مفتاح

التشغيل كما في الأفلام المثيرة الرديئة.

EnsaM

www.rgwily.com

- هل من مشكلة؟

- لقد توقفت فجأة، قلتُ وكلّي أملٌ أن تخفي نظراتي

الشمسيات حيرتي وهويتني.

طاف الرجل حول سيارتي، بينما قلبي يخفق خفقاناً شديداً. لماذا تكررْتَ من ذلك الدركيّ، مع أن أمثاله أظهروا، منذ إطلاقي، لطفاً حيالي؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك. أريد الانصراف. عبور القصر قتل في كلّ منطق، وإذا استسلمت لقلقي بعض الشيء، انتهيت إلى التخيل بأنني سوف لن أخرج قط من هنا.

عاد الدركيّ، في هيئة الواقع من نفسه.

- هذه هي المشكلة مع سيارات تويوتا. صهري لديه

واحدة مثلها.

- آه حسن، قلت ذلك ببرة من سيّجَهز عليها على

قارعة الطريق بطلق في رأسها.

- أعطها قليلاً من الغاز، هكذا، وراح يقلّد ضربات

دواصة البترين بيده المفتوحة. وستنتلق في الحال.

أقلعتُ من جديد، حابسة أنفاسي.

- أرايت، استأنف الدركيّ بلهجة المنتصر. أنا أعرفها،

سيارات تويوتا.

برؤيتي أرتعد في كلّ ركنٍ من الشارع، قد يُعتَقَد بأن

بلدي مملكة همجية يسود فيها قانون الأقوى. هذا خطأ، وأكاد أحقد على نفسي من هذا الخوف الذي يعيش في أعماقي ويشلّي. أعلم أن النظام قد استفاد بذكاء من الهجمات الإسلامية لفرض إصلاح المدونة، الرمز السري للعائلة السلفية التي اختزلت، منذ قرون، حقوق المرأة إلى شيء لا يُذكر. حتى اليسار امتنع عن إلغاء هذا القانون المهجور، إذ إن الرجال من جميع المشارب متفقون بلا شك على هذه النقطة الأساسية: هجمة زوجاتهم. لا بد أن الحكومة ستحتاج إلى كامل قوتها في الإقناع (والله أعلم بأنها لا تفقر إليها) لكي تُعطى للمرأة المغربية حقوقها في نهاية المطاف، وبذريعة مكافحة التطرف الديني. لقد بنيتُ آمالاً على السياسة الإصلاحية لخمّد السادس، حتى وإن بقيت أمورٌ كثيرة لا بد من القيام بها في مجال الحريات السياسية ومكافحة مظاهر التمييز واللامساواة.

- أليس عسيراً أن تكون امرأة في بلد إسلامي؟

- المغرب ليست بلداً إسلامياً.

- إسلامي، إذاً.

- ولا كذلك.

EnsaM

www.rgwily.com

المغرب بلدٌ للتقاليد الإسلامية، حيث تمارس الأغلبية من سكانه إسلاماً متسامحاً. في بعض الأوجه، يُعدّ بلدي واحداً من أكثر البلدان تنوراً في العالم العربي، وفي أوجه أخرى، يُضاهي الدكتاتوريات الأسوأ في العالم الثالث. حين يُسلم أمير المؤمنين روحه لإبليس سوف يتوجب الفرز نكهة بنكهة كي لا يبقَى

منها ألف بل مئة تكون كافية لتجعل من المغرب فردوساً لمن يعود هناك ألف نكهة، بل قد تكفي مائة منها لتجعل من المغرب فردوساً. إلا إذا استولى المتحون عليها، ليغطوها بحجاب أسود.

En3aM  
www.rgwlty.com

## المختارين

استغلّ الدين سنوات غيابي العشرين ليشغل مكانة مسخرة. أشعر به، في المغرب وفي سواها، ثقيلًا، مصبوغًا في بعض الأحيان بحركات حمجية تضاهي الحرب الصليبية، والفارق ومذبة.

اليهود. ما أن فقد العالم الحرّ معالمة، حتّى مدّ له يده بمكر، ولدّم له، عوض الخدمات النافعة والصادقة، الوعد بالإقامة الأبدية في الفردوس. يشقّ عليّ أن أفهم كيف عادت التمامية الأكثر سلفية دارجة بين الشباب مثل سراويل مراهقي السبعينات. ولكن ما يتركني مذهولة حائرة هو أن يتمسك المرء بتوايت مهجورة لأشباح متعطشة للدم ومتخمة بالجهل. ما الذي حدث كي يحتاج الناس من جديد إلى مرشدين مكفوفين؟

في البدء، اعتقدت أنّ التمامية المتجددة لم تكن تعشعش سوى في وجوه آيات الله، المنصّين فوق الأحياء الفقيرة لبلدان المشرق؛ ولكّني أخطأت. تزدهر الحُجب في شارع شانزليزيه، ويوتخ صبيّة، مهاجرون من الجيل الثالث، شقيقاتهم لخروجهنّ حاسرات الرأس. إلى متى ستُترجم الفتيات اللواتي يرتدين التنورة؟

كان صالون الكتاب\* في باريس في أوج نشاطه، ومن بين جميع الناس المتدافعين للحصول على توقيع كتابهم، كانت سيّدة

\* المقصود بعبارة صالون الكتاب: معرض الكتاب

En3aM  
www.rgwlty.com



تنتظر درزها بوقار. لقد تعلّمت بمرور الوقت أن أتعرفَ بنظره على أولئك الذين يمدّون كتابهم دون أن يقولوا شيئاً، وأولئك الذين سرجّهون لي بعض الكلمات، وأخيراً، أولئك، المسؤولين لهمّة مقننة، الذين يستغرقون في مونولوجات طويلة غالباً ما يشقّ علمُ إيقافها. لقد تلقّيت خلال بضعة أشهر دروساً في الحياة أكثر مما يتلقاه إنسانٌ حرٌّ طيلة حياته... أقسم على أن هذه المرة تنتمي إلى هذا الصنف الأخير، الذين يعطون الدروس تحت بكامل جسمها على الطاولة التي تفصلنا، التفتت إلى اليمين ومن ثمّ إلى الشمال، وبخدرٍ شديد، همست:

- كيف حدث أن وافق الملك على تبيّك على الرغم من أنّك يهودية؟

فأقربتُ منها أكثر، وكأني أريد أن أضفي مزيداً من الكتمان على السرّ الذي نقاسمه، وأسريت لها، بنفس النبرة الهامسة:

- لستُ يهودية، أنا مسلمة.

ساد الصمت. أصبحت عنها مدوّرة كعين سمكة.

- ألسنت يهودية؟

لم يكن ذلك في الحقيقة سؤالاً، الأخرى إنه محض ضبط فاجع.

En3aM

www.rgwtv.com

- كلاً.

هزّت رأسها، وكان كَيْلها في ذلك بليغ الدلالة.

- آه، حسناً. ولكنني كنتُ واثقة أنّ...

En3aM

www.rgwtv.com

- كنتُ مخنّطة.

تردّدت للحظة في مدّ كتابي نحوي بسبب هذا الاكتشاف الرهيب، ثمّ ناولتي إيّاه بأطراف أصابعها، بشبه استمزاز. وقَعْتُ عليه. استعداته، ودائماً بنفس التوجّس؛ بحيث أنبأني شيء ما بالها، عند أوّل حاوية تصادفها، ستخلّص من شهادة تلك التي ملّتها داعية للعيش الديني، وإذ بما في الواقع ليست سوى مسلمة. ربّما في يومٍ قريب، سُدْمَعُ الكتب بعبارة: «مكتوب ليهودية، يمكنكم اقتنائه.» أو أيضاً «حلال 100%، اقراءوا بلا خوف.» أسطوانات كاشير، أفلام مباركة من الفاتيكان، سيستطيع كلّ واحد أن يتسلّى حسب مقياس ربه.

الخطر لا يعود إلى الأمس، ودون أن أجعل من نفسي كاهنة، منذ أن أطلق سراحني عام 1991، كانت لسدي رؤية محدّرة منه. وكأنّه للقطع مع أماكن طفولتي (وبابنّال أكثر لشعّ المال)، أقمتُ في حيّ يدعى ناميا، يجاور حيّاً شعيّاً جدّاً. رغبتُ أن أعيد فيه اكتشاف المغاربة الأصليين. كان يوجد هناك، وعلى مسير بضعة دقائق مشياً على الأقدام، ناد صغير للفيديو، كنتُ أتردّد عليه باستمرار، على أمل أن أستعيد الزمن الضائع. فحسب السينما لم تنتظري أثناء غيابي، والقصة الخيالية بنفسها قد تجاوزتني منذ زمنٍ مديد.

نادي الفيديو، الذي تعلوه لافتة متواضعة متخلّلة تحمل

اسم هوليود ستار، هو عبارة عن حائوت صغير، يُدار من قبل أربعة أخوة شَبان. أسدى لي هؤلاء الشَبان، الغارقين وسط الأكاداس القوضية من الشرائط المسجلة، كل الصالح التي أحتاجها، ووقفوا لي عودة الموتى الأحياء لصالح رسن هان بمرور الزمن، فمى تعاطفٌ بيننا؛ فسلّوني أشرطة مسجلة في البيت بينما قمْتُ بتسجيل الأفلام التي سيضيفونها إلى مخزّوهم من الأفلام. ربّما حدث لي وأن أثبتُ على أحد أفلامي الخاصة، لفرط ما أدير الحانوت بشكلٍ خاطئ.

- كيف تمّدي إلى ما تريد وسط هذا الركام؟

- لا أجد مشقة في ذلك، أجباني واحدٌ من الشَبان صاحكاً. قولي لي اسم فيلمٍ وسأخرجه لك في غضون ثابنتين.

اتّفقنا على ترتيب جديد، وشراء رفوف تتوافق على نحو أفضل مع تجارهم. اخترعتُ لنفسى دور المدرّب، وخطّطت لمستقبل الحانوت كمن يلعب المونوبولي. لا شيء يجعلني أخرج من عزلي مثل الغراطي يتلذّذ في إستراتيجية التعدد الثقافي المستقبلية لهوليود ستار...

ولكن بعد عدّة أسابيع، عادت إدارة الحانوت من جديد إلى التسبّب. فالأكثر من مرة، اصطدمتُ بسنار حديديّ خفيض، ناهيك عن كدس من الأفلام اختفت دون قيد أو شرط.

- ما الذي يحدث؟ كل شيء يسير بشكلٍ خاطئ، قلتُ للأخوين اللذين استقبلاي.

- الأمر طبيعي، أجبأ أحدهما، لم نعد سوى اثنين وهناك

الكثير من العمل.

EnsaM

www.rewity.com

- اثنان؟ ولكن أين راح الآخران؟

هزّ الشاب كتفيه وبدرت منه ابتسامة تدل على استسلام.

الشابان الآخران في المسجد الكبير. ومثل العديد من شَبان هذا الحيّ حيث لا يجد المرء ما يسدّ به جوعه، انضمّا إلى صفوف التمازية، واستبدلا سروالهما الجيزّ بجلباين وحلقا شعرهما الداكن وطوّلا لحية مدبّبة. أغراهما الملتحون بحسنات الصلاة، منهجاً كغيره من المناهج لتحقيق الثروة والنجاح. العمل الصالح في الدنيا في سبيل مائة عذراء في الآخرة، إنهما مسألة...

توسّل آخر المدافعين عن هوليود ستار إليّ أن أنصح أخويهما وأعيدهما إلى حضن الأُمّة الرأسمالية. فبدوهُما، الحانوت ( المتراجع بالأساس) معرضٌ لخطر الإغلاق عمّا هرب.

- أنت، سوف يصغيان إليك، قال لي، قولي لهما بأننا في حاجة إليهما.

وعندهما، ولو أنني أعرف أنه ليس لي وزن يُذكر مقابل إله التمازيين، ولا حتّى مقابل أي إله.

بعد ذلك ببضعة أيام، سلك الملتحان الضحّيّان شارع نادي الفيديو، يمينتين وزينتين ثيران السخريّة بالنسبة لعمرهما البالغ خمسة وعشرين عاماً. جرى الحديث مختصراً، وإن لم

ينجح حاشنو\* الجامع بعد في نزع دماغيهما. بقى حاديهما متماسكاً، ولم يسطيع سوى عبارات مقتضية أحيانا. وما هي تبريرهما؟ لم تعد التجارة مربحة... في الجامع، يستعيد المرء الأمل، أمل الضرع إلى الله... الأفضل والمستقبل الأفضل، في الآخرة، قسراً، حيث يحتفل الشهداء بأحزمتهم الناسقة التي تزعمهم قليلاً قبل يجلسوا في دار النعيم.

En3aM

www.rzwity.com

- فكراً...

- لقد فكّرنا.

- فكراً أكثر.

ماذا يمكن أن يقال لهما إضافة على هذا؟ بدا لي أنه لا طائل من ذلك، وافتقرا أصدقاء جيدين، ولكن مع شعور بأننا لن نخط بفرصة اللقاء مرة أخرى. ذكرني انقباض طفيف في قلبي بضحكاتنا الأجنبية في الحانوت الصغير، حينما كنت أسألهم، والعيون مدوّرة، من يمكنه أن يكون ماد ماركس، سرعان ما سيكونان قد نسيا ذلك بنفسيهما.

لقد تسرّعت بعض الشيء في نعي للشباب المغربي. فبعد بضعة شهور من ذلك، خطّاني طقي في شخص أخوي اللذين فقدتهما، واللذين التقيتُ بهما من جديد، وهذه المرة كانا يرتديان سراويل جيز وفي شرت، وقد حلقا ذقنهما منذ وقت قريب، وعلى أذنيهما المسجلة المحمولة. لدى اقترابي، انشقا عن

\* الحاشي: من بطارد الفريسة للإيقاع بها. وهنا الإشارة إلى من يقرّص بالشبان في المساجد لكسبهم إلى صفوف الأصوليين - المترجم.

أما واسعة.

- نعم، نعم، لا تقولي شيئاً، نعرف.

لقد أخذتهما الهم لبعض الوقت، ولكن رغباً عن كليهما للأمل، انتهى بعد أن بلغ مداه. لقد أرادوا إخفاء ما عليه، بسبب تكوينهما العقائدي؛ فخلاص أن يضيءا رجلاً إلى رشدهما، بكل بساطة.

على غرار الأخوين السخيين، ليس الشاب المغربي باحثاً في الهوية، وربما لهذا السبب ليست التوبة التمامية خصبة تماماً في المغرب مثلما هي في غيرها من البلدان. فلشباب، الفخوريين هم لهم مغاربة، والمتمسكين بجذورهم، لا يبالون المتطرفين إلا بعلامة تمرد ضد نظام متوحش. لا يجناحون سوى إلى شيء واحد: الحرية. اسفرية والعمل. وفي هذا، لا أحد يفهمهم أكثر.

اختفى هوليود ستار، قبض الله روحه، ولكن تحول، وغم الف وخاصة رغم حية التعصب، إلى منتج صغير مخزن صغير مستحب، مؤن بشكل جيد، يخدم جزءاً كبيراً من الحلي. لقد عملت كثيراً إلى جانب الأشقاء الأربعة ليجعلوا من محلهم تجارة قابلة للاستمرار، ويستثمروا ثروتهم المغامر. الأرقام مفرحة والإمكانات ممتازة، وعلى المدى القصير ستكون التجارة رابحة بل نهاية العالم. لا ضير من نيل أرباح على الأرض، بدلا من العذاري في الآخرة. إنه حساب لصر الأمد، على الأرجح لا يعرف صحته إلا يوم موتنا.

En3aM

www.rzwity.com



## سجينة الصحراء

العمل سوء طالع بالنسبة لبعض الناس، ولذة ومختل  
الاستمتاع الآخرين. بالنسبة لي، اكتشفتُ العمل من جديد بعد  
الملك السنوات من السجن، واعتقدتُ بأنه ليس سوى  
وسيلة للاخراط في عالم لم يعد عالمي.

علينا ألا ننسى بأننا كنا ملاحقين ومراقبين، وأنني  
ثم حياة التي نجوت، بمشقة، من ذلك الحرمان من الحق الأكثر  
سلطة: حق كسب القوت. انكبتُ على العمل ببلد، متناسية  
الشيء أو جلّه لأتفرغ لتصوير تلك الأفلام الإعلانية التي  
عملت مظاهر قضايا في غاية الأهمية. تركني المال لا مبالية،  
والكفي انكبتُ على كل مهمة كالتفت بها، مهما كانت بسيطة،  
كما لو أنني أرسلُ في البحث عن الغزال.

بفضل تدخل الشخصيات المهمة الكبيرة في المجال  
السعي البصري الباريسي، انفتحت أبواب العالم المهني قبل أن  
لدهني أبواب البلاد أمر لأعيش سيأتي في بلد آخر. ولكن  
شرطة أمير المؤمنين يقطة، ومنذ بداية أول تصوير خصصت له  
أعمالي، جاء « الأمن الإقليمي »، وكانت مصادفة، يقلب في  
سجلات الموظفين. إنهم يرتابون في كل شيء وفي جميع الناس؛  
على كل حال، الأمر يتعلق بأحد مشاهد فيلم فرنسي - إيطالي؛  
من يدري، فربما يكون كل هذا وكراً لجواسيس، خطراً على  
النظام، على البلاد، على الملك...

En3aM

www.rzwity.com

\* الإناء الذي استخدمه يسوع المسيح أثناء العشاء العتيق، وفي القرنين السابع عشر  
والثامن عشر، قصت العديد من روايات الفروسية أعمال البحث عن الغزال من قبل  
فرسان الملك آرثر - المترجم.

- مسألة أمن وطني، شرح للمنتج بدوره موظف توارث عينا خلف نظارتين سوداوين.

كل يعلم حقيقة أن ليس التقنيون الإيطاليون ولا المخترع الفرنسي هم من يفلتون السلطات، ولكن القلب العين الذي أحله أوفقي، مرادف الصمت والنسيان. اليوم أيضاً، يرى هذا القلب كطلقة بندقية، والحال أن طلقات البنادق تجذب الشرطة، التي يكون همتها، كما هو معلوم، إعادة الأمور إلى نصابها.

ليس لآلة أوفقي أي شيء تفعله - حرية- بخصوص تصوير فيلم، ناهيك عن اتصالها مع أجناب.

لفرط ما ترددوا باستمرار على مسرح التصوير، خلق جمالو البنادق جوّاً من الرعب غير ملائم تماماً للعمل. فلما برز الخوف، مع أنه العنصر المثير للمغرب، سلوك الألمان في الفريق، المرحّين بالتهديدات الخفية التي تضغط عليهم دون أن تكون معلنة بوضوح. أمّا المنتج المغربي، فقد كان في ذروة الذعر، وعلى الرغم من الاستقبال الحار الذي خضّي به وسط الفريق، فقد انتهى بصرفي عن العمل بمجموعة ذرائع واهية.

- تفنقروا إلى الخبرة، قال لي وهو يرتب مصفاته، دون أن يتجرأ على النظر إلي وجهاً لوجه. ثم أن المزيّنات قد خفّضت.

أخذ التمرد بتلايبي. بعد سرقة عشرين عاماً من حياتي، يُسرّق مني حقّي في العمل ( لا أجبرو على الحديث عن

الصحراء، لأن هذه العبارة ستفترض أنني قد ارتكبتُ جريمة... واحتججت من جديد إلى كل الضغوط الخارجية لثقتُ المارمة السياسية ولإعادة دمي بالفريق.

- يُسعدني أنك قد عدت إلينا، كذب المنتج، باتسامة

En3aM

www.rqwlity.com

علمتُ بقطة بأنه أرغم على إعادتي، وأن تهديدات بالانتقام المالي قد أخفت بلا شك التهديدات بانتقام صرف بلا زيادة. أنا أعمل، فليكن، ولكنني أعمل لأن أحدهم أرغم على العمل. من الصعب في هذه الظروف الذويان بلا تبصر في القلب، والافتداء بزملائي في تفانيهم في العمل. كما أنه من الصعب، وقد وقع ذل الطرد من العمل ومن ثم العودة إليه تحت رحمة الضغوط، توبيخ أولئك الذين يضطهدهم النظام...

لكل عملية تصوير، ولكل تحرك، تجد الوكالة نفسها متشحة بلباس الدرك وبالبوليس السياسي. وكمديرة للإنتاج، ينبغي عليّ طلب تراخيص التصوير من الحفاظ، ومن الدرك ومن القائد (والذي يوازي المختار في المغرب، رغم لقبه الكبريتي على الأذان الغربية)... وجعلت رؤية هذه الطلبات موقّعة باسم أوفقي أكثر من واحد منهم ينتفض من مكانه.

هبط الليل باكراً على الدار البيضاء، وأمتيت الوحيدة هي العودة بعد غمار طويل من العمل المضني. ولكن قبل بقي بضعة شوارع، وقفت سيارة BMW فارحة سوداء اللون في منتصف الطريق. عملت متبّة السيارة للمرة الأولى، ولكن دون

بدلاً من أن أطلق العنان للنفوذ المطلق... كنتُ أتمنّى حينها من المحذور من خلال اسمي. كان الجنرال أوفقيير الكلّي النفوذ، وكلمة واحدة منه، ليستطيع أن يصغر والدها المفوّض إلى حجم خرقه تافهة! كان يكفني أن يعرف الناس أنني ابنته. الآن عاد والذي موجوداً، والنظار الصغار يتموا كل دقيقة من اتفاق الخمسة والعشرين عاماً من شبابي المسروق، وما من أحد سيعني على الوقوف على قدمي.

بعد ثلاث سنوات ونصف من الكدّ في العمل، بدا لي أن الأبواب تفتح أخيراً أمامي، ليس تحت تأثير الضغوط أو التهديدات، وإنما ببساطة لأنّ قيمتي المهنية قد عُرِفَتْ. لم يخضع معلّمي الجري، ربّ عملي الجديد، للسلطة، استقبلني واستمع إلي، وامتنحن مهتماً فقط بقيمة عملي. تأثّرت به ودمعت عيني، فمنذ زمن تتقاذفي الأيادي كععبٍ مزعج للغاية.

— أنا أوّلُك لقيمتك لا شيء آخر. أنفهمين؟ لا شيء آخر. وإن كنتِ عديمة الجدوى، سأصرفكِ من العمل! في تلك اللحظة، شعرتُ بنفسِي إنسانة أخرى. إلاّ إذا لم أكن قط شبيهة بنفسِي...

لا زال السجن ينقل عليّ، مثل ظلٍّ غير مرئي. رغم الازدهار المهني الطفيف الذي حملته أعمالي وسط الوكالة، لازلتُ لا أطيق التشوّش، وانتهى جوّ التصوير بإحساكي. ضجيج، وأصواء، وألوان، وصرخات، وضغط نفسي... كم

En3aM

www.rzwity.com

جدوى، وللمرّة الثانية، والثالثة، حاولت مناداة السائق الذي ساءَ الممرّ. فجأةً، انفتحت بوابة السيارة، ونزل منها رجلٌ متوقداً. بشاربهِ المشجّع، وبذلك الطريقة الفريدة في تصليب الكفّين، عرفتُ العسكري، كلبٌ حراسة النظام، الذي لم تقلح برّته المدنية الخيّدة التفصيل من السّتر عليه. ولإعاديّ لصواي، أخذ يسبّي، وهو يلوح بي بأوراقه العسكرية بازدراء.

En3aM

— إنك لا تعلمين مَنْ تواجِهين!

www.rzwity.com

أجل، أعرفه، أعرفه كثيراً. كل تناقض المغرب يكمن هنا، بالضبط، في تعسّف السلطة هذا الذي يتعارض بشدّة مع الشعور بالاعتدال الذي يميّز شعبي. الرجل كولونيل، ويتصوّر ككلّ الضباط بأنّه يتمتّع بسلطة شبه ملكية، ولم يتوان عن قديدي بالأسوأ. الأسوأ؟ آه لو أنّه كان يملك أدنى فكرة عما عشته.

للمرّة الأولى، لدى عودتي إلى البيت، أطلقت العنان لما كنتُ أتمتّع به من نفوذ لأخذ رجل الـ BMW من شاربِهِ. أصبحت تعديّات السلطة لا تُطاق بالنسبة لي، ومع احتمال أن أمارس واحداً من تلك التعديّات بنفسِي لإعادة الجلاّدين الصغار إلى نصابهم، سأفعل كلّ شيءٍ لكي لا أعود معرّضة لهذه التعديّات.

ثمّة حكاية كهذه، فقد كانت ابنة مفوّض في السابعة عشرة من عمرها أخرجتني من صالة سينما كمتهوّفة في ذلك اليوم، كنتُ لا أزال واحدة أخرى، وكنتُ قد استسلمت،



لرّة رغبتُ في أن أقفز إلى سيارتي، وأقودها في وجهتي على مستقيم، دون أيّ هدف سوى أن أذهب بعيداً؟

وجدتُ طريقي مصادفةً، أثناء تصوير وسط صحرى الأطلس. كانت الشمس تسفّع الرباط قويّةً بحيثُ أُعلن عن درجات حرارة هائلة لدى وصولي. لدى انطلاقي بـ ١٠٠٠ الميلاً في الساعة، لم أتحلّل للحظة أن كلَّ كيلومتر أقطعه يقرّبني من الصفاء... هدف الرحلة: ورزازات وارفود، نورغ من هوليود صحراوي على الطريقة المغربية. لا يصالح السائح الباحث عن الغربة عينيه وهو يرى ذلك: كلّ التناجات الأمريكية الضخمة، مهما تعلّق الأمر بالصحراء أو بالمساحات الواسعة، استدارت إلى هنا، على بعد خطوتين من القرى الجرداء التي تُزار على ظهر الجمل. إنّها هنا مملكة لورانس العربية، على مدى النظر أمام أعيننا. ارفود آلة عملاقة، أستوديو تصوير في الهواء الطلق حدوده الوحيدة تحوم الصحراء. يغطّي مدى هذا العدم، بانتظام، بالشاحات والهوائيات، والحياض، وإدارات الإنتاج، والمساليط الضوئية، والتأجمات. يُتكلّم فيه بكلّ اللغات، العربية والإنكليزية طبعاً، ولكن أيضاً الفرنسية أو الإيطالية.

- أيزعك الإقامة عند السكّان؟

En3aM

www.rgwlty.com

- على العكس!

كنتُ، في آنٍ واحد، فضولية بقاء الناس البلديين ومتراحة بالتخلّص من عبء الجوّ المكهرب للرحلة. مستقبل القرية

قد تكون السيّدة التي استقبلتني قد ولّدت قبل ألف عام. لا شيء، في هيتها أو في وجهها المخدّد، يشي بعصرنا. عيناها تلمع باللون لفرط الضياء، ويدها داكنتان وصقيلتان، وكأنّ الرمال قد قرضهما. حينما دعيت لدخول بيتها الترابي الذي يوده ظليل عذب، شعرتُ وكأنّ الزمن يعيدني إلى السوراء. ملأنا الشاي، والوجبات بل والصمت أيضاً، جالستين على صحايد عند مغيب الشمس. قلّت من ظهوري على « المائدة المنظمة»، التي تُقدّم عليها مع ذلك صراخ مدّهش من الفاكهة، وقواب كاتو، وأطباقاً صفيّة طازجة. شعرتُ بنفسي على أفضل ما يُرام عند العائلة التي استقبلتني والتي قضيتُ معها الوقت الأكثر صفاءً، ذلك الوقت القليل الذي لم يُطلب فيه حضورني للتصوير.

- إذّا، قولي أنّك أحببت هلمون ارفود، قال المخرج

ساخراً.

في الواقع لم تكن تتوقّع وجود أسرة « king size»، التي يمكن لثلاث رجال بدينين أن يناموا فيها فأردن أذرعهم، ولا بارات صغيرة مليئة بأنواع المشروبات، ولا حمامات من المرمسر ولا أقيات ورقية من تلك، التي تُجنّب المرء أن يسطع ردفه

حيث جلس آخرون قبله. لا ترتبك الصحراء بالكماليات. حتى ما هو ضروري غائب عنها، والغريب أن الضروري يقدر فيها فائضاً.

- ماذا فعلت، من دون تكييف؟ كنت أسأل وسط النداء العذبة لمكاتب الإنتاج.

- يجب أن يكون المرء هناك ليصدق الأمر، ولكن لم أحتج إلى التكييف.

لم أحتج إلى أي شيء آخر. لا سيما وأني لم أشعر بالقلق. لأنه تلاشى في رياح الصحراء، وبدا أنه عازمٌ على أن يدعني بسلام وهدوء طيلة إقامتي في ارفود.

أهل الصحراء مقلون في الكلام. ولكن يمرور الأيام، تأنسنا، مضيقاً وأنا، بعمق وتبادلنا رؤانا المختلفة جداً حول العالم والحياة. المرأة التي أصبحت صديقتي لديها أربعة أطفالاً صغار، علاوة على زوج وأمه، أكسدت لي بأنّها كانت في السابق أجهل نساء القرية. اليوم، لا تتحرك السيدة العجوز بوجهها المخدّد من الركن الأكثر رطوبة في الدار، وتكتفي بفرض العدس الذي جلبناه بالأكياس.

شيئاً فشيئاً، تجرأت على أن أسألهم عن رأيهم في هؤلاء الغرياء الذين يغزوهم بانتظام والذين يستخدمون صحراءهم كديكور مسرحي. كنت أكاد أصيح الأسئلة والأجوبة عليها لفرط ما شعرتُ بأنني أفهمهم. الغرياء؟ يبغضوهم، طبعاً. كدتُ أقسم على ذلك.

لا شك أنني وحدي، وقد أظهرتُ نفسي منفتحة على ثقافتهم، نجوتُ من قساوة حكمهم. وبعد قليل، قد أغبى الناجية الوحيدة من الجزيرة التي سوف لن يتوانون عن ارتكابها فيما لو ذهب، عرضاً، الفريق بعيداً في تدنيس تربتهم.

ولكن صديقة البدو صدّمت... كلاً، لا يكره مضيق الغرياء. إنهم فقط يلوموهم تأسفاً على عدم دعوتهم لكي يثابروا في فلمنا! لأنه سيق وأن شارك الزوجان والفتيات الأربع والجدة في مقبلة ما يقارب عشرين من فيلماً أمريكياً. أه مقتنيات المثيلين الصامتين؟ القرية منفتحة على البدو وسكانها يستلذون بتأدية الأدوار الثانوية. الأجر جيد (ك شيء نسبي) والجو لطيف، تُشاهد من قبل العالم، وتُقدّم له أشياء بسيطة. لماذا يحرم المرء نفسه؟ كما أن الحياة ليست دائماً سيرة في الصحراء، والموارد شحيحة...

لم أعدل عن دهشتي إلا عندما أخرجوا لي صرة من الأشياء النافعة، علاقة مفاتيح، قذاحات، قبعات، تي-شيرتات أغلبها مدموغٌ بلوغو إنتاج سينمائي ضخّم. شرحوا، بافتخار، بأنهم قد مثّلوا في هذا الفيلم وذاك، مع هذا الممثل ذاك (مع تشويه بسيط في لفظ اسمه) بينما لا يشاهد شخصٌ في القرية التلفاز.

ربما صديقتي امرأة الصحراء، وهي تنشر الصدأ والصرامة. هذه المرأة التي كنتُ أظنّها متحررة إلى الأبد من العبودية الطوعية للبشر الأحرار، تلقي في الظلّ غيرة ك النجمات المبتدعات اللواتي يجلن على مكاتب توزيع الأدب

أملًا في الحصول على دور صامتٍ في إنتاج سينمائي رفيع. بكل بساطة، مضيفي من الرواد القدماء لوليود.

- هذا يفاجئك بعض الشيء، قالت لي مع ابتسامة En3aM  
www.rzwity.com  
ماكراً.

لم تعد تتكلم عن ذلك، ولكني تيقنتُ من أنها أدركت في لحظة ما كان يجول في خاطري. قد تكون معادة على أن تقدم دمية مصورة لكل تقني السينما. كم واحداً من بينهم، مثلي، أخذ صورها إلى بلاده، وهو يبين لأصدقائه أنّ أهل الصحراء قاديون من عالم مختلف جداً؟

- أتعرفين أنّ ابنتي تزوّجت من إيطالي، قالت لتنتهي الحديث معي.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

- أشكر الله في كلّ صلواتي، وإنشاء الله، ستتزوج الثلاث الأخريات من أجانب.

- إنشاء الله.

لم أكتشف حقيقة هؤلاء الناس، بتناقضهم ومفارقاتهم، إلا من تلك اللحظة. إنهم على ظير حصان بين عصرين، يستغلون واحداً منهما لترويض الآخر، دون أن يفقدوا شيئاً من مروءتهم ولا من نزاهتهم. إنهم أفضاظ، وأذكاء، ومتحفظون وقلوبهم ملؤها الدفء والحنّة. لم تسيّظ عفاريتي في أية لحظة، لتمنعني من العيش إلى جانبهم لحظة حقيقية

لعبس بعض ما فاتني. الصحراء شرقة بالنسبة لي، فضاء بعيداً عن حكم البشر، يمكنني فيه الخلود إلى تنفس منتظم. حينما حرم الفريق أمتعتي، تاركاً الأطلس يستعيد معلمه، عرفتُ بأنني سامود، لأنّ العالم صغيرٌ للغاية ليقطع المرء عن الأماكن الوحيدة التي يشعر فيها بأنه يعيش.

بعد بضعة أشهر، عدتُ إلى الأطلس بآثَرٍ وانفعال، وهذه المرة، في إطار حملة إنسانية. جلتُ، برفقة صيادلة بلا حدود، في المنطقة لتوعية السكّان بمشكلة التراخوما، وهو مرض يصيب العين قد يؤدي، إن لم تتم معالجته، إلى العمى. خمسة عشر يوماً في العراء وسط الصحراء تلت رحلة مضنية، وجعلني استشف من جديد عالماً مثالياً، هادئاً وقاسياً في آن، البيئة الوحيدة - بحمالٍ خيالي - التي وجدت روحي الراحة فيها.

القرية التي زرناها، جافة، فقّاة، ومهيبة كسكّانها. في ساعات ذروة الحرارة، تدوب ضواحيها في تشوّشٍ مهدشٍ، تمنحها سرايا متدفقا يُلهب الخيال. كان الأطفال والنساء، الذين كلّفتُ بإعطائهم دروساً في المدنية (بعد عشرين عاماً من السجن، إنّها لسخرية جميلة) أجلّ ما شاهدته أبصارياً. عيون واسعة صافية على بشرات نحاسية تبدو وكأنّها تلهمننا فضولاً. حينما انتهى دروسهم (ساعة ونصف، يصغون إليّ أتحادث، وهم الهمون جداً للكلمات!) بدأ درس الرجال، وقد تأثرتُ للاهتمام الذي رافق إصغاعهم إليّ. ما همّ من أكون، ومن كان أي، وما نفوذي. أعطوا قيمة للوقت الذي منحتهم لهم، فقط



لا تفتي منحنه لهم. هل كان لا يده من الغوص في قلب الصحراء  
لا تفتي أخيراً الاحترام؟

النساء متشجعات بالسواد، لا من أجل الاحتماء من نظارة  
استحسان من إله مبغض للنساء، وإنما اتقاء من معبر الصحراء  
اللافح. وأغيط رأس الرجال تصفق في الهواء كأنه سرعة الحيام  
شعرت أنني خاوية ورائقة في آن. جعلت الحياة نسي طفلة  
للصحراء، أدركت ذلك منذ الكيلومترات الأولى التي قطعتها  
في ذلك العالم الذي لا أفق له حيث تتخيم الصخرة بالحرارة  
وبالصمت. تتدلى جراح الروح هنا أفضل من أي مكان آخر،  
ربما لأن الأحاسيس تتقدم على الكلمات.

بدأت نساء القرية، جالسات جماعات على جدران  
خفيضة، وكأني شعرت بانها يري يعلمن لأنهن يسوجن إلى  
التحية والترحيب كلما اقتربت منهن. أقرآن أيضاً في روحي  
كما في كتاب مفتوح؟ غير أن واحدة من بينهن خفضت وجاءت  
صوتي، وبين يديها طفلة صغيرة. هي تلك التي أعطتني ذلك  
الشيء الصغير للغاية، ذي الجمال المدهش.

- انظري، هذه ابنتي. ابنتي الثامنة.  
- إنها آية في الجمال، قلت لها، ليس لمداستها،  
وإنما لأن الطفلة تشبه ملاكاً نزل إلى الأرض.

- عمرها ستة واحدة.

هزئت رأسي.

- خذينيها، قالت. اذهبي بها.

حاولتُ، وأنا غيب الخيرة، أن أشرح لها بأنني لا أستطيع  
استطحاب ابنتها، وأنه ليس لدي أي سبب للذهاب بابنتها.  
ولكن في أعمامي، استفاق جرح قديم، جرح الأم التي لم أكنها.  
- خذينيها، ليس لدي ما أجعلها تحيا به، أنقذيني. أنقذي  
هذه على الأقل.

اختلطت الأفكار في ذهني، فكّرت بإهمالي أنسا، بغياب  
الشيء، برغبة أن أجد طفلاً بدوري، أكثر من أن أفكر بمصير  
تلك الطفلة ذات الشعر الأشقر شبه الرمادي، والوجه المسفوع  
الأسمر الداكن الخملق بعينين واسعتين زرقاوين.

- شعرتُ أنك ستأخذينيها، تابعت الأم. شعرتُ  
بذلك، برغبتك.

دون تفكير، أخذت الطفلة بين ذراعي، ولكن لحظة ألقت  
الفكرة. أخذت الصغيرة تصرخ ذعراً، وتلوى بين ذراعي،  
وغرست أظافرها في راسي.

- لا أستطيع، قلتُ وأنا أعيدها الطفلة إلى أمها. إنها  
تفضل حبك على الراحة.

- سستعاد.

- كلا، لا أستطيع.

اختارت الطفلة الصحراء؛ لو كنتُ قد استطعت، لفعلت  
الشيء نفسه. أنا أيضاً، كنتُ سأحب طفولة كطفولة الآخرين،

بعيداً عن بذخ القصر وأنهته، بعيداً عن أشباح السجن، ملفوفة  
كامنة في دفة ذراعي أمّ. لا أميرة ولا سجينة، فقط فتاة  
صغيرة لا تطلب سوى أن تهدّده لتندثر الكوايس.

انطلقت نحو خيمتي، دون أن ألقت إلى الوراء، تاركه  
خلفي تلك التي كان من الممكن، بضوّة، أن تكون ابني.

EnSaM

www.rzwitg.com

## أَنْ أَكُونُ أَمَّا، أَخِيرًا

لن أصبح أمّا أبداً. العظم، دوت الكلمة كأنها حكم  
طاعي. ترك السجن وسواساً حقيقياً للأمومة يسطر عليّ،  
بأن الولادة كانت الطريقة الوحيدة لأغدو امرأة مستقلة  
تماماً. مع إيريك، جرّيت كلّ الطرق: معالجات هرمونية، تلقّح  
اصطناعي، تخصيب عبر فيترو، جماع في أوقات ومدد محدّدة،  
مادة أكبر الأخصائين من بينهم د. رينيه فريدمان. في كلّ  
أربعاء كنت، إيريك وأنا، نذهب إلى لسيج، لمتنحني إحدى  
شقيقتي بويضة. لمجرّد رؤية اللوحة التي تحمل اسم لسيج كنتُ  
أرتعش وكان قلبي يؤلّني. على مدى ثلاثة أعوام، اتّبعْتُ سباقاً  
شاقاً في علاجات مضيئة، كان تأثيرها النفسي مفجعاً. في بعض  
اللحظات، بعد صدور السجينة، كنتُ أشعر بتضالّل بحدارتي  
بالأمومة، بحيث كنتُ أريد تقويض علاقتنا. شعرتُ بالحاجة  
التقويض الذاتي: شيء ما كالانتحار. صمدت العلاقة الشائبة.  
كان إيريك ملاكاً صابراً. غفرتُ لأولئك الذين سجنونا  
لعشرين عاماً، إلّا على شيء وحيد: حرمانني من أن أكون أمّا.

- لو أنّ أولئك الناس قد قتلوك، يقتلونك لمرة ثانية، قال  
لي الطبيب المختصّ بالأمراض النسائية، الذي اضطرّ للغياب  
عن دروس علم النفس في كليّة الطب.

أمام وجهي المتقطّر رعباً، عدّل في رأيه:

- ولكن يمكن التّبيّ، كما تعلمين.

أعلم أنّه يمكن التّبيّ، ونوال، ابنة أختي، أيضاً ستعرف

ذلك ذات يوم. لم أحضف شيئاً على ما قلته له. الآن أتجادل بـعفري مع شعوري بالذنب، ومع ذلك تبدو هذه الطفلة سعيدة إلى جانبي. لست أنها، ولست متأكدة من قدرتي على أن أكون يوماً ما كذلك. أمها، أختي مريم، فريسة نوبات الصرع منذ سجننا، والتي تتقاذفها المستشفيات، في حالة صحية سيئة للغاية بحيث لا يمكنها الاعتناء بالطفلة. يعيش والدها في الرباط، ولكنه، للأسف، غائب في غالب الأوقات. ما العمل حينما تنادي نوال ماما، وتنادي إريك بابا؟ اضطررت لأن أخبرها بأن لها أمّاً وأباً. تعيش معنا الآن في ميامي. طبعاً، عوض الشعور بالذنب، الذي كان قد شدّ على خنثافي، لأن نوال بالمعنى الرسمي ابنة مريم وفواد، حاجة الطفلة إلى أسرة مستقرة. كنت وصية عليها في باريس، ومنحني والدها المنفصلين عن بعضهما حضانة الطفلة، طفلة آية في الجمال ذات شعر مجعد، طفلة لعوب، حيوية، فتاة صغيرة عشقناها.

هل سيمكنني أن أنسى ذات يوم أن الطفلة التي تغطّي في نوم عميق في الغرفة بنهاية الرواق ليست طفلي؟ هل سأملك ما يكفي من الحب لأمّتها إياه، أنا التي أحسّ بأنني في غاية الضمور واليباب؟ قرأت نظريات مهمّة عن غريزة الأمومة، تؤكد بأنّها تتطوّر تدريجياً أثناء الحمل لتبلغ مداها في نهاية تسعة أشهر.

ولكن جرّبت كلّ الوسائل لأجد تفسيراً لذلك الحبّ الذي ينقصني. ثمّة أمر واحد مؤكد: النساء محكومات بساعة عبدة، وأخشى أن ساعتني لن تعود تتحدّد الوقت أبداً.

هطل المطر على الجادات الفسيحة، وأنا أحتّ الخطي، سبعة يد نوال. لم ترق لي قط مشاوير العودة تلك أثناء هبوط الليل، في عزّ الشتاء... قضت الطفلة النهار عند أمها، وجهها الصغير الرزين يشهد بذلك. كلّما عدنا سريعاً، كلّما لسي ذلك سريعاً، الانزعاج المطلق للينت من أمها الذي تمثله تلك الزيارات، المسافة التي تبدو بعيدة للغاية، المطر السدي لا يكفّ عن المطول. كان ذلك عندما نحتّ من خلال انعكاسات الواجبات المبلّلة شمع رجل قصير وسمين يسير خلفنا عن قرب. في البداية، اكتفيت بمراقبته بطرف عيني، ولكن سرعان ما بات واضحاً أنّه يتعقّبنا. أسرع، فأسرع، جامعاً كتفيه على رأسه، وكأنّ دافعاً شديداً يحركه. شعرت بحضوره، باقترابه المتزايد. أخذ قلبي يخفق سريعاً، شددت على يد نوال كأنه سينزعها مني، وتشتّب بالأخضر بحقيقتي. من خلال واجهة مخزن للأحذية، خبته، أقرب أكثر من أيّ وقت، بقميصه الرياضي الفضفاض، وقلنسوته. سرّت قشعريرة في صلّبي وهو يقترب جداً مني بحيث شممت رائحته المفعمة بروائح لغائف التبغ.

دون أن أفقد رباطة جأشي، توقفت فجأة، أملة أن أخدع العدو. ولكنه بدا أكثر مكرّاً مني، تجاوزني لا مبالياً وتابع طريقه، لدرجة أنني تساءلت في لحظة إن كان خوفاً المفاجئ العنيف من كلّ شيء ومن أيّ شيء لم يضلّني. عبثاً ألفت قسماً كبيراً من الرموز السرية للبشر الأحرار، غالباً ما حدث لي وخلطت حسنيّ النية بسيئها، تجنّبت الألبسة العسكرية لأرتقي بين ذراعي أول نثالٍ قادم، لذلك اللطف الطفيف الذي يغشى هيئته.



مع ذلك، لم تخنني فطرتي، هذه المرة: أبطل الرجل خطاؤه، وتركتني بدوره أنجاوزه، ثم انقض على. هزّت هزة عنيفة كشي كانت حقيتي هي مقصده. تشبّثت، متكرزة خوفاً، بما كسبه بطمع فيه، لأنني، لزمن طويل، بلا هوية تحتوي هذه الحقيقة على أوراقي، وصورتي، ومالي، ومفاتيح البيت، بالإجمال حيائي لا تشترع حياة هكذا، في زاوية شارع. ولكن كان للرجل رأي آخر، وهزني مويخاً على أمل أن يراني أفلتت فريسته.

- ستعطيني حقيبتك، وإلا سأهاجم صيبتك، نفث من بين أسنانه.

أحياناً، تكفي كلمة لتغيير مجرى الأمور، لتحويل الفريسة إلى هُباب. أخلّى الخوف، مُجْتَنِياً في لحظة، مكانه لشعور من الشراسة العنيفة جداً بحيث شعرت وكأنّ خيالاً تنمو لي. فبجأة، كنتُ لَبُوءَةً، ذُبْنَةً، ذُبْنَةً، على طريقة الدابة التي قلما تقلل العبث بذريعتها.

- رقد ما قلته، قلتُ له دون أن أترك له الفرصة لسيرة بكلمة.

En3aM

www.gawilq.com

لوته ضربة من ركني في المكان المناسب على نفسه؛ دفعته إلى الواجهة الزجاجية، بقوة بحيث اصطدم رأسه بها. وبقبضتُ أضربه، اعتباطاً، بكل ما يقع تحت يدي - بيد فقط، بقدم وبمخيطي. تحت ثقل الحقد، أصبحت المعتدية وهو الضحية؛ لم أعد أشعر إن كنتُ أدافع عن نوال أم عن حقيقتي أم - عن حياتي، لم يبق أكثر من تلك الموجة التي تدفقت في داخلي والتي

ينكبتها سحق باريس بنفخة واحدة. كما في أفلام العنف الرديئة التي عادة ما أنام أمامها، لم أعد أرى سوى أنواراً والعكاسات ضوئية تحت المطر، والشبح الملتوي على نفسه الذي يحاول الاحتماء من ضرباتي. أنا حيوانٌ كاسر، سأتوقف حينما يموت.

انتهى الرجل إلى الفرار، دون أن ينال مراده. في تلك اللحظة، اكتشفتُ نوال، متمددة أرضاً، باكيةً، متشبّثة بعرقوبي. هدأ الحقد في الحال، الخبيث لاآخذها بين ذراعي. هستُ بضع كلمات في أذنها هذائاً، مبددة رعب الدقائق الأخيرة تلك. داعبتُ شعرها، بينما شدت نفسها إليّ. من حولنا، وعلى مساحة لا بأس بها، حملق الناس الأحرار إلينا كيهانهم فضولية، مشدوهين وكأنّ أملهم قد خاب من جراء النتيجة غير المتوقعة للاعتداء. على المرأة الحرة أن تكون ضحية... ما كان ذلك سوى لإتاحة الفرصة لأن يعود المسكع إلى بيته ويروي حكاية سُرعِد عائلته الصغيرة. سيسهي في لحظة عابرة عن الاعتراف بأنّه لم يرفع إصبعه الصغير مخافة أن تأتيه ضربة غير مناسبة.

فتحت حادثة الاعتداء، عيني واسعاً على الأوممة، على نحو غريب، الأمر الذي لم يكن أيّ أخصائي نفسي قد نجح في تحقيقه. ربّما ذلك الغوص في أعماق الغريزة الأولية أتاح لي التحقق كم كنتُ والدة الطفلة التي أربّيتها، دون أن أدرك ذلك. اللبوات أيضاً تنبتُ الصغار التروكين، ترضعهم وتحميمهم كصغارها. الآن أعلم أنّه ليس من الضروري أن تنجب المرأة

طفلاً لكي تحبه، وأن كل من سيحاول انتزاع نوال مني سيموت  
كذلك يقتلي في نفس المكان. كما أعلم أن هذه الطفلة السعيدة  
ستكر في حضني سيمكنها أن تعتمد عليّ طويلاً إلى أن ينسحب  
جناحها.

أنا أمّ، وكنت أجهل ذلك.

En3aM  
www.rgwlty.com

## الحب في الأربعين

الرجل الأول في حياتي، الذي كان لا بد من أن يجعل مني  
أحد حقيقته هبط على حياتي، بعد قليل من إطلاقي من  
السجن.

عمري 43 عاماً.

انطونيو، إيطالي، جميل مثل أبولون، أشقر، شعره مجعد  
وناهم الملمس، له لحية قصيرة. على قدر كبير من الفتنة  
والجمال. إنه ممثل كوميدي، التقى به أثناء تصوير الفيلم  
الذي دعيت، أختي ماريا وأنا، إليه من قبل صديق طفولة،  
ومستشار ثقافي في السفارة، وقد التقيت به عند خروجي من  
السجن.

جرى التصوير في الصحراء، منتج الفيلم مغربي وفريق  
التصوير فرنسي- إيطالي. احتجنا في البداية إلى بضعة أيام لكي  
نتأقلم، ماريا وأنا، مع الجو. منذ زمن طويل لم نشاهد هذا  
القدر من الناس. ففي اليوم الأول، جعلتني رؤية كل تلك  
الأجساد بلباس البحر مستمتعة بالشمس أرغف. لو أردت  
البقاء واقفة، لكان عليّ أن أستند إلى جدار أو عمود، وخلال  
لحظات، تبليت ثيابي.

مع ذلك، كان ذلك المكان، بالنسبة لي، الفردوس على  
الأرض، ولكن كغالب الأحياء منذ إطلاقنا، كان لدي شعور

En3aM  
www.rgwlty.com

أخاف الحسد، ولكن عليّ أن أرغم نفسي. عليّ أن أهدى عفاريتي. كنتُ هناك، مترددة، حينما أخذتُ يدَي بلطف. ثمّة حرارة جارفة في تلك اليد، بحيث لم أبدأ مقاومة. لمّا بكت أصابعها برقة ثم شعرتُ بضغط شديد، وكان صاحب اليد، وهو يكاد يهرس أصابعي، كان يريد أن ينقل إليّ كل حب الدنيا.

التفتُ حينها ورأيتُه.

إنه الرجل الذي كانت ماريا قد دَلّني عليه. ظلّ يرمقني ودائماً بنفس الطريقة. شعرتُ أنه قد خصّني من بين الجميع وانتظري بشغف. عرفتُ أنني أقصُّ على نفسي حكايات. عمري 43 عاماً، ولي قلب فتاة طائشة. ولكنّ، عيناه لا تكذبان. يبدو هذا الرجل مجنوناً بي. تكمن صعقة الحبّ إذاً في مكان آخر غير الكتب.

جذبني نحو صالة الطعام، بصمت، ولكنّي انسحبتُ خلسةً. شعر بتحفّظي، فأخذ كرسيين ووضعهما حول طاولة خارج الصالة.

جلسنا. ظلّ يحدّق فيّ ذاهلاً. توارت ماريا. بقينا هناك، نحن الاثنين، دون أن ننس بيت شقة. كنتُ أرتجف بشدّة، فرفع ستره من كشمير أسود موضوعة على كتفيه ولقني بها بشال. ثم وضع يده على ضفيري ومسدني برقة وحنان.

ظللتُ أرتجف ورغبتُ في ذلك. تعاملتُ مع نفسي كلبهاء. كيف بي، أنا التي كنتُ من بين جميع أخوتي وأخواتي،

بأنني دخيلة على هذا العالم. خاصّة هناك، وسط كل هؤلاء، السينمائيين المنهمكين في العمل، ذلك الوسط الذي ساء وقاربتُه بعض الشيء، والذي كنتُ قد رغبتُ أشدّ الرغبة في الانضمام إليه، كان ذلك الشعور أقوى من أيّ وقت مضى.

قلّة من أعضاء الفريق يعرفون مَنْ نكون، من أين خرجنا. مع أنّ نظراتنا الحزينة أثارت التساؤل لدى أكثر من واحد منهم.

كانت أختي ماريا أوّل مَنْ كشف انطوني.

- هناك شخصٌ جميلٌ جداً مغرّم بك، همست لي في اليوم الأوّل.

En3aM  
www.rgwtity.com

سألها.

- كيف هو؟

- أشقر، عيناه زرقاوان، وله لحية!

أختي مجنونة. جميعهم شقر، وبشرتهم برونزية، وملتحون. ولا يتقصّهم الجمال. ولماذا سيهمّ «شخصٌ جميلٌ» أخيراً استطاعت تمييزه من بين الآخرين، ودلّني عليه خفية بإشارة من إصبعها. فعلاً، إنه جميل، ولكن لم أر سوى نظراته المثبتة عليّ. ولو كان بإمكانه، لالتهمني كاملة.

بعد بضعة أيام من وصولنا، أقام المنتج حفلةً ثمانيًا لمناسبة عيد ميلاد أحد الممثلين. حينما وصلتُ إلى قاعة الطعام الفسيحة، كان هناك عالمٌ مجنون.



أنتك « بين هالين » التجربة، وواقعة من أني، لفرط ما رويت حكاياتي العشقية، سأكتب جراح جسدي أكون هنا خرساء كفتاة صغيرة فزعة، مذعورة، خجولة، أثقل بغموض من الفرحة إلى الخوف.

بقي إلى جانبي، لم يفارقني. شعرت بحارته، برقيقته. رددت في نفسي أن هذا مستحيل. لطالما حلمت بهذه اللحظة، هكذا أردت أن يكون الحب الذي يُقدَّر لي. عليّ أن أفقر بهذا الحب قَدَم لي انطونيو زجاجة من النبيذ الأبيض. بذل جهده ليحلّثني بالفرنسية.

En3am

www.r2wity.com

- هذه ستبتُّ الدفء فيك، قال لي.

على العكس، أرجفتي الخمر من جديد؛ فأنا لستُ معتادة على الشرب. بنهاية الكأس الثانية، وقد رأى حالتي، توقّف عن تقديم النبيذ لي، ومدّني بكأس من الكونياك. هنا، كان الأمر معاكساً. لم أعد أحتمل المكان. كانت حالتي سيئة. لمحض.

- سأرافك إلى غرفتك.

مدّني على سرير، بقي إلى جانبي بلا حراك. الفتاة الصغيرة في داخلي كانت أكثر رهبة من أي وقت مضى. التويت على نفسي.

قرفص عند أسفل السرير ورمقتي مطوّلاً.

- ولكن من أنت؟ سألني. ومن أين أتيت؟ تبدين وكأنك

أنتين كلّ يؤس العالم وشقائه في نظركم.

تكرّرت. تنهّدت وحوّزت. وأخذت انتحب. بقي إلى جانبي حتى بزوغ النهار. شددتُ تنفّسي إليه، وبكيت. لم أفعل معك في البكاء.

في الصباح، نمتُ أخيراً. حينها استيقظت، لم يكن لي هانبي.

من أين أتيت، يا انطونيو؟ من مكان معتم وجليدي حيث البهت بالاستسلام: سوف لن أعرف الحب أبداً. بالتأكيد، ككلّ فتيات جيلي، كانت لديّ بعض المغاللات، ولكنّها لم تكن قطّ جديدة. لقد أحببتُ أحياناً. كان حبّي في السابعة عشرة بريئاً كأيّ حبٍّ أوّل. حتى كدّ أن أعلن خطوبتي مع شابٍّ ظريف النقيت به في باريس، في سنة دراسي للباكالوريا. وقد واطننا على المراسلة في بداية أسري، في تاماجت، حينما كان لا يزال بوسعنا تلقّي البريد. ولكن سرعان ما توقّفتُ عن الكتابة إليه؛ رغم رسائله المتأجّجة شغفاً، لم يكن يدرك شيئاً عن وضعنا المنزّل.

لقد أخذني رجالٌ بين الأذرع، وهمسوا لي بكلمات عذبة. لقد عرفتُ ما كان يعنيه الرقص البطيء باسترخاء، وتقبيل صحيٍّ من غفرة.

في باريس، عرفني ابنة خالتي ليلي شتاً، المتألّسة الشابة الفاتكة الجمال التي هام بها لحضر حاميها، كاتب وقائع سنوات الجمر، إلى آلان ديلون وجاك برن. عقدتُ مع كل منهما

علاقة غامضة، صداقة حب لم تذهب بعيداً. راعى الانسحاب التي كنهها آنذاك، الخاطئة بالقيم الفاضلة، الحريصة شرفها، وان كنت أحب الرقص والتسلية أكثر من كل شيء. أمّا أنا، فلم أكن مستعدة لأخصّ أيّاً كان. ببساطة، أعرف بأنني سأزوج، ذات يوم ليس بعيداً. كان كل هذا من قبل. قبل قرون وقرون.

في السجن، كنت عازمة بشدة، في حال استعدادي للحرية، على أن أرمي بنفسي في سرير أول قادم لأنال مُرادِي، ولكن الواقع أكثر تعقيداً. أُلست معرّضة للانكسار، في حين أنني لم أبداً إلى الآن بالخطو على دري؟

مع ذلك، لديّ متسع من الوقت لتقيل الرجل الذي سيعرف كيف يهزّي ويؤثّر في. حسب الزواج، والحكايات التي كنت أرويها كلّ مساء لأخوتي وأخواتي، كان في الأحلام، مقاتل، حامل جوقه الشرف، رماح بنغالي، طيّب بلا حدود، بدويّ بعينين زرقاوين، روسيّ أبيض أو هنديّ أمريكي، جيمس بوند، طرزان، أو دكتور جيكاكو (بلا الشارب، لأنّه صفة السجّان).

ولكنني كنت أركّز على الحب العظيم أكثر من المتعة الجسدية كي لا أحبط المستمعين إليّ وأشعرهم بالكتب، وخاصةً كي لا أحبط نفسي. كم من الليلي المنعزلة، في تلك الزنزانة المعتمة، مستلقية على حشيتي البائسة، حملتُ بأنني سأمارس الحب؟ في الصباح، كنت أستيقظ بعنصري الحزن والمرارة.

ما تعلّمت ألا أفكر في ذلك، على الأقلّ ألا أكثر من ذلك، خشية أن أقسد أكثر. في العشرين من عمري، نسيت تدريجياً ما يعنيه أن أكون شابة ومشتهاة. لم أعد أجد الابتسام والضحك والفرح لرجل يرمقني فيشعُ بريق الرغبة في عينيهِ. تخوّنني، ولم أعد أجد الإغراء.

احتفظ جسدي، الغارق في الرقاد لزمن طويل جداً، بالانعكاسات الضرورية للبقاء: الأكل، الشرب، النوم، ...

وتمّ ماذا؟ وتمّ، لا شيء آخر... لم يعد جسدي يشعر حتّى بالحرارة، إنّه معدوم. من هذه الجهة، لديّ كلّ شيء يجب أن أعلمه. ما أن تتركّز نظرة رجل على حنايا جسدي، حتّى تحمرّ في الحال وجنتاي، وترتفع يدي... أنا كأنّني ينطوي على مفارقة تاريخية وهذا يؤلمني. أعطيتي الحرية المستعادة شعوراً قريباً بالدوّار والفراغ. أحلم بالحب، بالرغبة، بالشهوة، والخوف، وهذا الخوف يُخجلني. أجد نفسي مثيرة للرثاء والشفقة.

لم أعد أعرف كيف أتحسّس نفسي. لأنّ شيئاً ما يقفّر أمام عيني، وأنا بالكاد قد عدتُ إلى عالم الأحياء: الجنس بات كليّ الوجود. في المواقع الالكترونية التي أشاهدها أثناء تناول الفطور، في الإعلانات، في السينما، على الملصقات حيث فتيات معريّات، مهيّبات وأكثر شباباً منّي يعرضن أنفسهن على مرأى الجميع.

لا يُكَلِّمُ سوى عن « هذا » ولا يُفَكِّرُ سوى بـ « هذا »  
أثناء غيابه، الوسواس الجنسي هو

القاعدة الآن، مسبباً الدَّوَّارَ للأقلَّ احتشاماً. غَيَّرَتِ النِّقَالَةُ  
الخِلاعية الجليل المتَّوَرَّ وتَرَكَّتْ حتَّى المَيِّينَ الذين يَدْعُونَ التَّحَوُّرَ  
مُتَخَلِّفِينَ عنها.

وها هو الوسواس يصيبي بدوري. ممارسة الحبِّ. في  
الحال. فَكَّرْتُ فيها بلا انقطاع. إذا كنتُ

صادقة مع نفسي، فإنَّ الرِّغْبَةَ السَّوِيَّةَ هي ما تُثَبِّرُنِي وتُحَسِّنُنِي  
بشكلٍ خاص. أريد أن أسمع الكلمات فجأة، رقيقة أو لاهية،  
التي يَهْمِسُ بها رجلٌ ولَّانٌ ومُهْتَاجٌ في أذنِ امرأة. أريد استعادة  
الزَّمنَ الضائع. أكون امرأة. أخيراً. ولكنني مدعورة يا انطونيو.

تعايقت الأيام، أنا مَنْ حاولْتُ تَجَنُّبَهُ، وليس هو. قدَّم لي  
زهراً، وعَتَى بافاروني وشَدَّتْني بخطوات واسعة في الصحراء،  
عند مغيب الشمس. وذهبت للعشاء لوحداً. اجتمعت كلُّ  
المقومات لكي أستسلم للغواية. ولكن فشلت.

هو، أراد أن يظفر بحبي. وأنا، أبحثُ عن هوية. توجَّهتْ  
اهتماماته واخراجاته إلى امرأة حرة أكثر مِنِّي أنا السَّخِية التي  
لا معالم لي. وبينما كان يهيمس لي «ti amo» كنتُ أتساءلُ إن  
كنتُ سأجيد الاستسلام أبداً.

حدث لي هذا مرَّة وحيدة. حينما أدرك أني عذراء،  
حينما شاهد ردَّ فعل جسدي، بلغ بي الارتعاش حداً ما عدتُ  
استطيع التوقُّف عنه.

جلس.

بكى.

— ولكن ماذا فعلوا بك؟

شقَّ عليَّ أن أروي له ما فعلوه بي. الأخرى أنه هو مَنْ  
لَحَدَّثَ لي عن حياته، هو المطلق والأب لطفلين. الحرَّ.

كنتُ واضحة جداً. حينما داعبني، أو حينما اكتشفت  
جسده، انتابني الشعور بأنني أتصقح قاموساً. أتعلِّم هذه اللغة  
الجليدة كلمة بكلمة. أجدهُ وأثابره فيها. ولكن الإحساس يخلدني  
بغيايه.

أشاهد نفسي وأنا أقوم ببعض الحركات. لا أحسُّ بأية  
لذَّة. إنه مفرِّغٌ أشدَّ الغرام بي، أشعر بذلك، أرى ذلك. أنا  
مفرَّمة بالحبِّ، وهذا كلُّ ما في الأمر. أعتقد أنني أشعر بانوثي،  
ولكنني لازلتُ جد بعيدة عن الواقع. احتججتُ للقاء أيوبك،  
الذي سيصبح زوجي، لأعرف ماذا تعني هذه الجملة بمعناها  
الحقيقي.

انتهى التصوير، ورغم الخيبات المتكررة لعناقنا، اقترح  
عليَّ انطونيو، بمنتهى الجدية، أن يدسَّني في إحدى شاحنات  
الإنتاج ليُخرجني من البلاد سراً. ولكنَّ الهروب الأوَّل أفرغ  
مدَّخراتي من الشجاعة؛ ولم يبق لي منها ما يكفي لهروب ثانٍ. لا  
سيما وأنَّ الفريق مخترقٌ من قبل عسس الأمن. فمغربُ الحُسْنِ  
الثاني لا تنظر بعينٍ إيجابية تماماً لوجود الأجانب على ترابها،  
يزيد على ذلك كوني على اتصالٍ بهم.



كلّاً، لن أهرب مرة أخرى، لا إلى إيطاليا ولا إلى أيّ بلد آخر. ذات يوم سأكون حرةً رسمياً، سيكون لي جواز سفر في جيبي، وحينها، سأختار مصري.

عدتُ إلى بيتي، في الرباط. عدتُ إلى الشقة الصغيرة التي أنقاسها وأختي ماريا، مقتنعة بأنّه سوف ينساق.

ولكن كانت قناعتي هذه تعبيراً عن سوء معرفة به.

هبط انطونيو ذات صباح باكراً في المطار. ما أن عبر الجُمرك، حتى ارتقى بين ذراعي، وتعجّب لفتوري. هذا لأنني لا أستطيع أن أخطر خطوة دون أن أكون متبوعة بشرطٍ. ظنّ أنني لم أعد أحبّه، وبأنّ هناك أحداً ما في حياتي سواء. كيف لي أن أفسّر له رتابي اليومية، والرقابة التي لا حدة لها؟ وخاصة السجن الدائم الحضور في ذهني. كيف لي أن أقبله في وضوح النهار بينما جميعهم من حولي ويكتمون لي؟

خلال بضعة أيام، ازدادت حالات سوء التفاهم بيننا. إنّه غيور، ويعتقني، وأنا، لا أطيق الصراخ والهياج والتهديدات. التويّت على نفسي، وشعرتُ بأنني أمام جلاّد معذّب.

انتهينا كلانا بالاسترخاء، فأضينا أياماً رائعة. ذهينا معاً إلى السوق، ثم أخذ انطونيو يعدّ الطعام في المطبخ. يعدّ لنا عجائن وسمكاً وطماطم بالريحان، وكلّها على طريقة نابولي، ويغمّي في الشقة التي تنفوح بروائح السوم وزيت الزيتون. انطونيو ممثّل حققي، مرحّ، هانج، ذلّ اللسان. أحياناً مُتعب، ولكنه يحبّي. يصرخ لي بحبّه بجميع الطرق.

تناولنا الغداء صحةً ماريا، تحت الشمس، في شرفة الصغيرة. وضعنا موسيقى، استرحنا، ذهينا للتزّه في السوق، سألنا العشاء أحياناً في المطعم. في الليل، حاول باستمرار أن يطمئني ويريل قلائقي.

— انطونيو، هل أنا «طبيعية»؟

— لا تقلقي، لا يمكن لهذا أن يأتي بين ليلة وضحاها.

اعتقدتُ بأنني، معه، في مأمن، ولكنني أخطأت الاعتقاد. ذات صباح باكراً، في الساعة السابعة، دقّ رجال الأمن بابنا. كانوا أربعة. اثنان لم يقولوا شيئاً، ولكنهما زرعا الشقة خطي بقنبلان اعتباطاً كلّ ما يقع تحت أيديهما، واثنان آخران لعبا بالترالي دور التوبيخ والظريف، كما في الأفلام.

— هل تدريكين أن والدك، لو كان حيّاً، ما كان ليقتل أن... أجي.

— أيّ شقّ علي أن أصدّق أن أداة النظام هذا تجرباً على ذكر أيّ المقتول على أيدي زملائه.

شعرتُ بغضب رهيب يسري في داخلي تجاه هذا المقام المحس الذي يجعل الأموات يتكلمون، حتّى أقوى من الخوف.

— انتظري في الغرفة، قلتُ لأنطونيو الذي لم يفهم شيئاً مما يجري.

شعرتُ من نظراته المذعورة بأنّه يخشى عليّ.

انتهز الشّرير، المسترخي إلى ذلك الحين ببراءة في أريكة،

قوي لأنطونيو ليطلق صواعق الجحيم. نعني بكل الألفاظ ساقطة، عديدة الأخلاق، عار الإسلام، بينما الآخران، وجدنا نفسيهما دوراً إضافياً، يستجلمان الحديث.

بأي حق أُنصح نفسي أن أدّس اسم عائلي بأيواء رجس ليس زوجي؟ هل فكرت بأمي، بجيراني، بأسلافي؟ إذا صدق أنطونيو إرهاني ومدمن مخدرات وجاسوس.

تحكم الظريف:

- هل تعلمين لو أنّ الإسلاميين رموك من الأعلى إلى وسط الشارع، لا يمكن فعل أي شيء من أجلك...

بعد التلويح بالأخلاق والدفاع عن شرف أمي - متظاهرين بنسيان أنهم حطّموا حياتنا إلى الأبد- تابع الرجلان الحديث عن أمي الخاص، وكذلك أمن هذا الرجل غير المسلم الذي دّس بحضوره هذه الأرض المقدسة التي هي المغرب. فطُفح بي الكيل.

- أمارس الحبّ مع من أشاء! EnSaM  
www.rzwity.com

دوّت كلماتي كطليق ناري. ثمّ ساد الصمت. دار الشريط الممغنط مع ضجيج ركان خفيف. تنحج أحد الرجلين - نعم مع من أشاء، وخاصة مع أجنبي تحديداً لأنّه غير مسلم.

- هل تعلمين ماذا يسمّى هذا؟

- ماذا يُدعى هذا؟ طبعاً أنا أعرف ذلك! وإذا كنتم

سأعلمكم إياه: هذا يُدعى بكل بساطة ممارسة الجنس مع كوميدي إيطالي شاب وهزيل، شخصية

يملك الرجلان الوقت للردّ عليّ حتى أرقبت في عروشه. بينما سال فيض من الكلام مني، سريعاً جداً، وهو ألياً جداً حتى لأظن أنّ عفتيّا تملكني. لقد أخذت من صباي، اسمي، حياتي، أبي، هويتي، أحلامي، نومي، حتى، واليوم يُراد ما بقي لي، أو على الأقل ما يعتقدون أنه بقي لي؟ كلا، جسدي يخصني وحدي، إذا كان صحيحاً أنّ شيئاً ما لا يزال يخصني.

هذا، لن يُؤخّذ مني. ولأبرهن على ذلك، هدّدت بلا صبر بأن أرمي بنفسي من النافذة. للوهلة الأولى، كدّت لأن أصدّق بأنني قادرة على القفز من الشباك، فلم أعد أطيع وطأة الطغيان، وطأة هذه الدكتاتورية المخوّشة التي تتسلّل حتى إلى سرير من قرّرت تحطيمهم.

- طيب، طيب، اهبطي، قال الظريف بصوت قاطع، مشيراً إلى الآخرين أن يخرجوا.

ارتجفت على شرفتي بشدة كورقة شجر، عرفت تماماً أنّه يخاف بدوره، من أن يضطرّ لتبرئة نفسه أمام رؤسائه من لطخة سيلومونه عليها. لقد أعطيت هذا الرجل صلاحية أن يفسد حياتي، أن يُرهني، ولكن لا أن يقتلني. لو كانت الفكرة السيئة راودتني بأن أقوم بالفقرة الكبرى لانقلبت الآلة الجهنمية ضده هو وعائلته واسمه وشرفه.

- سنصرف، ردد ذلك ثلاث أو أربع مرّات، الم  
تشانين، لا شأن لنا بك.

انفلق الباب عليهم. اعتاق جيد. خرج أنطونيو بجمل  
الغرفة، أقل جاذبية مما هو في العادة.

En3aM  
www.rgwlty.com هل كل شيء بخير؟

كلّا، ليس كل شيء بخير. بكيت. مرّة أخرى، أفسدوا علي  
كل شيء.

بقي أنطونيو بضعة أيام أخرى، ولكن السحر تحطّم  
أعد أطقه. لدى عودته إلى نابولي، ظل يهاثني باستمرار، وهو  
يعدني بأن الأمور ستتظم عمّا قريب...

إلى اليوم الذي أخبرني، متألقاً، خيراً عظيماً.

- مليكة، سأترك كل شيء، السينما، مهنتي، ليس لكل  
هذا أية أهمية. انحنى مهلة ثلاثة أسابيع، الوقت اللازم لإهما  
أعمالي، وسأني للإقامة معك.

- في المغرب؟

- نعم، في المغرب. إذا لم يكن بإمكانك مغادرة البلد، أنا  
من سيأتي إليك.

أساءت الحياة التصرف. للحظة، أخذت أزدري هذا  
الرجل البائس، المستعد لترك عمله للعيش إلى جاني. لقد  
تحسّب لكل شيء: سرسم على أقمشة وبيعتها. إنه يتقن صنع

الأمير تاهيتية. لقد عشت من الخضوع أكثر من أن أرتضي  
بهد رجل، والحال أنه سيأتي ويخضع ذليلاً أمام الدكتاتورية.

أراد إبقائي سجنه ومحرومة من جواز سفر وتعيين إقامتي؟ لا  
أنا، سيأتي بملء إرادته ليقاسمني حياتي كسجنية مع وقف  
السيد. أفلا يفهم أنني أريد عكس هذا؟ أن يأتي رجل، كما  
سيفعل إيريك، ويتشلي من هنا؟

En3aM  
www.rgwlty.com منذ ذلك الحين، بدأت أكرهه.

- لا أفهم شيئاً، أنا أحبك، قال متحسراً.

لا شيء ينبغي فهمه، يا أنطونيو المسكين، لم نُخلّق أحداً  
للآخر. لشهور بعد ذلك، استمرّ الاتصال بيننا، وخاصة من  
جته في الفترة الأخيرة. ولكننا عرفنا نحن الاثنان بأنها نهاية  
علاقنا.

تجربتي الثانية حصلت مع شاب عارض للأزياء في الثانية  
والعشرين من عمره، جاء إلى المغرب من أجل تصوير عرض.  
كان صبيّاً في غاية الجمال، ذو جسم رياضي. كيف يمكن له أن  
يُعجب بي أنا العجوز؟ إنه لغز. أو أنه ربّما تصوّر أن خبرتي  
ستدّبه به مباشرة إلى السماء السابعة. المسكين، لو كان  
يدرّي...

استعمل صديقي الجميل جميع الوسائل لألتقي به في غرفته  
في الفندق. وليس في مكان آخر، لأنّه حطّر عليه تنديداً أن  
يقترّب من المغربيات أثناء إقامته القصيرة في البلاد. ولكنّه لم



يدعن.

بعد نظراته المتقدة وابتساماته المبهمة، حذّني قلبي عن

En3aM

www.rzwity.com

ومع ذلك لم أتوقع أن يفتح لي الباب عاريا مثل دودة.

- ادخلي.

كانت الصدمة الأولى. ارتقيت إلى الداخل مذعورة من فكرة أن يكون أحد ما قد رأي، أو رآه، علاوة على التبت من أن الوقت لم يعد للأغاني الإيطالية عند مغيب الشمس. أكنّت أرغب في الجنس؟ اعتقدت بأنني سأحصل على بعضه.

فتمدّد على سريريه، مرتجياً، فاردأ ذراعيه. فتحت درج طاولة السرير، وأخرج منه واقياً ذكرياً، ومدة لي.

يا للهول، لا أعرف كيف أستخدمه. بذلتُ جهدي حيال الجراب الصغير، دون التجرؤ على رفع عيني. سأبذلُ حياتي لكي أخنفي، أتواري، أتفتت في مكاني. وكانت حركاتي مرتبكة جداً بحيث انتهيت إلى تمزيق الغلاف والواقى دفعة واحدة.

تتمت، اعتذرت، ارتبكت.

أسرعتُ وانزويت في الحمام. كانت يداي دقيقتين. وصداغي يخفان بشدة شعرتُ معها أن هجمتي مستحطّمة.

عند عودتي إلى الغرفة، رأيتُ شريكِي يمدّني بالواقى الثاني مع ابتسامة مريحة.

- لا تلتقيه، فهذا هو الأخير!

أنا، أتلّفه؟ آية فكرة. توخّيتُ العناية به، عناية فائقة بحيث

قد صبره، أخذ الجراب الصغير من يدي، ووضع به بلا

ساعدي. ولما بقيت مزروعة في مكاني ببلاهة، أخذ بيدي

وسمها بقوة على ذكره. بقيت متبّعة في مكاني بلا حراك،

أنا نفسي عمّا قد يمكنني أن أفعله بيدي اليسرى. نظرتُ إليّ،

ورأيتُ في عينيه أنّه كان ينتظر شيئاً آخر من امرأة أربعينية. أمّا

أنا، فقد كنتُ خائوية، بلا إرادة، يستغرقني الحجل، والشكوك

والصداع. سوف لن أعرف أبداً أن أمارس ذلك.

أرختي تدريجياً يديه عن عناقِي، وحاول أن يوجي إلى يدي

بحركة لم أقُلّها، ثمّ تحدّل ساقطاً على السرير، متنهّداً.

- لا طائل من هذا.

لن يكون هناك طائل من هذا وأنا أوّل من أعرف ذلك.

سيعود إلى وطنه الأم أمريكا دون أن يفهم شيئاً عن الغربيات.

من جهتي، اقتنعت بأن لا شيء ولا أحد سيعوضني حياةً مفوتة.

سوف يجعلني أيريك، بعد ذلك ببضعة أشهر، أكتشف

خطأ قباعي تلك. إذا كان هو رجل حياتي، فذلك ليس فقط

لأنّه فتني، كما في الروايات العاطفية الرديئة، أو لأنني أشعر

بأنني سوف لن أعيش إلا كصنف إنسان حينما نفصل. فهذه

الأمر مشتركة بين جميع الناس الذين يتحابون.

لقد عرف أيريك أن يجد المفتاح الذي نزع بضربة واحدة

الرتاج عن قلبي. نجح حيث فشل كل الأطباء النفسيين: لقد

أعاد كتابة الوصفة المفقودة أبداً، سطرًا بسطر. جعل متي أكثر

من مجرد امرأة: جعل منّي امرأته.

قادته رحلة مدبرة من العناية الإلهية إلى المغرب، حيث التقينا أكثر المجهولين من الناس الأحرار، أثناء حفلة زواج وهو لا يعلم بعد أن ذلك سيكون بالنسبة له بداية طريق شائكة طويلة، لازلت أريدها لنفسى كلّ يوم. كما لا أعلم أن هذا الجسور الطويل بابتسامته الماكرة، والذي يصغرنى بأحد عشر عاماً، سيكون هروبي الوحيد والحقيقي.

أعلم فقط أنّه لم يطرح نفسه كغوار أو كأسر للنفسوس، وأنه لم يعرضني ولا للحظة إلى الخطر. امتدّ حديثنا حتى مطلع الفجر، دون أن نشعر بمضي الوقت. ضحكنا من كلّ قلبي، لم أصدق ذلك بنفسى. لقد خلّقتا للتقّي: يتكلّم العربية بطلاقة - عاش كلّ شبابه في لبنان- إنّه وديع، ودود، ظريف، رقيق، ذكي، ساخر، إنّه...

إنّها المرّة الأولى منذ إطلاقي التي لا يتحوّل فيها لقاء منفرد برجل إلى غيان وهجوم. معه، لم أشعر بالخوف. إنّه الوحيد الذي جعلني أشعر ذاك الشعور بالأمان. شعرت في الحال بأنّ هذا الرجل سوف لن يخضع لتأثير أيّ ضغط كان.

شعرتُ بقوة. واستشعرتُ لطفه. عرفتُ في الحال أنّه سوف يحميني لما أنا عليه فعلاً، لما أمثله. حينها، بدا لي أنّ كلّ شيء طبيعي جدّاً حينما أكون معه، بحيث سيطب لي السذهب معه، بلا تبصّر، بعيداً عن قلقاتي وشكوكي.

في ذلك المساء، آمنتُ أخيراً بالحُب. ولكن، للأسف، لم

دكن تلك هي حالنا. احتاج إيريك إلى شهور طويلة من الصبر والشغف لكي تتكرّر حالة العمة العابرة تلك وتمتد. روّضني تدريجياً. أخذ وقته الكافي. وإن كنتُ حتى وأنا معه، لا أزال أجد مشقة في الشعور بالاطمئنان، فقد ردّد بلا كلل بأنّ هذه ليست سوى لحظة عابرة...

من خلال اللمسة، واليد، وطريقتي في الحديث إليه، والجلوس إلى جانبه، أدرك في الحال أنني كنتُ طفلة متكرّة في هيئة امرأة، متمردة تخفي ألمها. أمضى ليلتنا الأولى في مداعبتي ولم أبدِ أيّة مقاومة.

قادني، شيئاً فشيئاً، دون أن يعاجلني، إلى ما كنتُ أعتقدته مستحيلًا إلى الأبد: اللذة.

خلال عام، قام برحلات متتالية بين المغرب وفرنسا. وليكون أقرب إليّ، أهداني هاتفاً نقلاً. وكنتُ من أوائل مَنْ اقتناه في الدار البيضاء. حتى أثناء غيابه، أشعر أنني محمية. أشعر بذلك الهاتف يرّ من عشر إلى خمس عشرة مرّة، في اليوم، وأكون أقوى امرأة في العالم. بعد الآن، هناك في حيّاتي مَنْ يمكنني الاعتماد عليه، إنّه درع أمان. قبل أن أعرفه، كنتُ يتيمة، وبعلاقتي به، حتى حينما لا أكون إلى جانبه، أصبح امرأة أخرى، أصبح متألّفة مع ذاتي. إذا كانت لكلمة الحرية من معنى أبدو، فذلك من خلاله ومن خلاله وحده.

راققتي إيريك في طريقتي الطويلة نحو إعادة الانسجام مع نفسي، دون أن تمّ عزيمته. حينما أتعترف بالإخفاق، يدفعني

مجدوء ولكن بيات. وحينما أكون فب الإعياء والإسراع  
مستسلمة، حينما أحتاج إلى أن أتكوّر على نفسي في راحة  
بانتظار أن تقضي الحياة، وحده هو من يعرف أن يوقني على  
قدمني ويدعني استسلم له.

— سننال ما نريد، قال لي مع ابتسامة مطمئنة.

نحن. لأننا اثنان، وهذه هي المرة الأولى التي أكون فيها  
واحدة من اثنين. ايريك من هؤلاء الرجال السذّين، بسدل أن  
يكبحوك، يبعثون فيك القوة التي تحتاجين.

ليست لدي سوى تجربة قصيرة في الحياة الزوجية، ولكن  
يبدو لي أن التجربة نادرة. سألحق به إلى آخر الدنيا.

لقد برهن لي، من خلال الانتقال إلى ميامي من أجلي،  
بأنه هو أيضاً سيلحق بي إلى هناك، إلى آخر الدنيا.

هذه هي المرة الأولى التي يقضي فيها ايريك أعياد الميلاد  
في مراكش. وددت أن يكون ذلك ماراتون المسداعات  
والملاطفات. أمضينا ساعات طوال في قلب سوق المدينة عند  
بائعي الأعشاب الطبية الذين طالما أحببت رفقتهم.

عرض أحدهم علينا نبات مزهرة صغيرة استعملها  
أسلافنا ( لم تُخلَق القياغرا بالأمس فقط): سلاحف قرمصة،  
حربايات، « تعويذة بالنسبة للنساء »...

سألته إن كان لديه شيء ما لرجل. مجرد الحديث بحريّة  
عن الشهوة أمّذي بارتياح كبير. لم يصدّق ايريك، القادم من

الصور فيه بأن المرأة المغربية تحفض عينيها في الحُلّ  
الرجال.

— الرومي معدوم؟ سألني الشخص بابتسامة صفراء.

— لا، لا، الرومي ليس معدوماً تماماً. ولكن أريد أن تعطيني  
ساعة لإقامة حفلة طيلة الليل. له ولي، أكثر قليلاً.

هزّ رأسه. وجلب من عمق حانوته الصغير مكونات  
وصفة سلفية، مع رماد الضّع كمادة رئيسية، مثلما أكّد لي.

تحت أنظار ايريك المرتابة، طحن الحانوتي مجموع  
المكونات وأفرغ المزيج في دورق.

— ها هو، يا خلوتي! ملعقة قهوة في كأس شاي له،  
وملعتان لك. وإلا... ستكون مشكلة!

وهكذا بدأت حفلة الشاي، منذ عودتنا إلى البيت.  
كعجيشاً حقيقية، أخذت حقاً معطراً، قبل أن أدهن نفسي  
بالمراهم. بضع قطرات من المسك في تجويف رقبتي، وشعري لا  
يزال مبللاً، والمنزور

مفروح بلا مبالاة، دخلت دخولاً مسرحياً متفاخرة متباهية.  
على ايريك أن يعود إلى باريس في اليوم التالي... أردت هذه  
السهرة، والليلة التي تكملها، أن تكون سهرة وليلة لا نسيان.  
بينما

تناول ايريك ملاء معلقة حساء من المزيج، تمدّدت على



السريـر، والمنزـر مفتوح. ملءـ ملقعة حساء... كان يساء  
الأعشاب قد قال ملء ملقعة قهوة، ولكن ما الفرق؟ على أي حال،  
لأكون واقعة من عدم التعرض لمفاعيل المريج، انجسبت  
بنفسي ملقعة منه في المطبخ بجنون، قبل أن أخيفه إلى الشايف  
مقدماً. لا ضرر من الإفراط في اللذة. دون أن يحسب المرء بأنه  
ليس واقعاً من نفسه أبداً، حينما تكون له حياة مفعونة...

تقدّد رجل حياتي بدهره، التوى رأسي قليلاً، تفوّق  
الرغبة في غفوة صغيرة على الحميّة الجنسية. غطّ ايريك باكراً  
في النوم، بينما انغلقت أجناتي على مشاريعي عن ليلة مجنونة.

في الثانية فجرًا، استيقظنا دون أدنى رغبة، اللهم سوى  
الرغبة في ألا نعود إلى النوم. فأمضى ايريك آخر ساعات  
احتفاله المغربي بأعياد الميلاد في مرقص، مترنحاً غير مصقّق  
على حلبة الرقص.

طلع هارّ مشوّش بالأخضر والأزرق بينما تنكّور في سيارة  
الأجرة التي أقلته إلى المطار. يُثقل علينا شعورٌ بالإخفاق، سوف  
لن نتجح الكلمات في التخفيف منه. بدت لنا هذه الليلة  
الأخيرة، مع أننا نعلم بأنّها لن تكون الأخيرة، فجأةً أنّها خطيرة  
ومقلّة بالعواقب.

في الصباح التالي، بينما كنتُ أجتزّ خبيثي ويأسي، رنّ  
الهاتف. إنّه ايريك. قال فرحاً:

- أحزري ماذا؟

- ماذا؟

أنا في حالة انصباب دائم! لقد راودتني الحالة في  
الطائرة، ومنذ ذلك الحين، أنا عاجز عن فعل أي شيء!  
بعد ذكرى يرتخي.

لم يلق ايريك أسلحته، إن جاز لي القول، لثلاثة أيام.  
لا مـدّ أنّه لعني، من أعماق عزلته الباريسية، أنا وكل  
مطاربي المغرب، بمساحيقهم الضخيمة، وتعيّذناهم،  
وساهمهم العجيبة. لا يزال يشقّ علي التخلّل أنّ منزراً  
هو أرباباً كان ليكفي، وحده، لجعلني مشتهياً، ولكن  
مستحقّ الدجالين ذاك ضمّ في قعر حزانة زبدة القول  
السوداني الذي جُلب لي من مكان أجله، والذي أمقته.

بعد بضعة أشهرٍ من ذلك، امتدّ حيناً آخرًا، في  
فرنسيا، إلى وضـح النهار. أعيش في بيته. أنا إلى جانبه في  
كلّ ليلة. إذا تركني في الصباح فذلك ليلتي بي على نحو  
أفضل في المساء.

حلّت فورة جنسية، مبرّرة بلذّة، في العطلات  
الأسبوعية المسروقة محلّ رقابة البعض وحكم البعض  
الآخر.

ولكن طريق ايريك الشائكة لم تنته... عاد هوس  
الأمومة، المكبوت لأمد طويل جدًّا، المكظوم، المشجوب،  
بقوّة ليحشر نفسه بين اللذّة وبيننا. لم يعد هناك شيء  
سوى هذه الفكرة العدّية: أن أنجب. أن أصبح أمًا.

مما، هذه الكلمة هي الأحبّ إلى قلبي من كلّ

الكلمات التي أعرفها. في كل لغات الدنيا، تعني الشيء ذاته: الحب بين امرأة وطفلها.

لأتمكّن تلك الكلمة، سأكسر كل الأبواب خلال ثلاثة أعوام؛ أنا غير القادرة على أن أطلب طبقاً من عجة البيض دون أن يُعشى علي، تابعتُ الفحص تلو الفحص.

أريد طفلاً. أريد أن يُنظر إليّ كأنّ، أن يكلمني الناس عن ولدي، أن يستهلوني بأسئلة بلهاء: هو في أيّ صفٍّ، أو هل طلعت أسنانه أو هل اشتريت هذه الثمرة الصغيرة؟ أريد الدخول إلى النادي العالمي للسيارات الأمتّات الحرفّات، اللواتي يقتصر عالمهنّ على التفاح بصغيرهنّ الأخير.

أصبح الأمر عقلياً، علمياً. حسينا الأيام والدورات والرووس والقيعان. انتهيت تدريجياً إلى أن أطرح على نفسي أسئلة مؤلمة حول شرعية الزوجين والجنس وهذه اللذة التي يأخذها المرء هنا حيث آخرون يتجنبون.

لم أعد أدري ما هو الصائب، ما هو الصحيح، كدتُ أكره من جراء ذلك رجل حيائي، الرجل الأحبّ إلى قلبي.

قبل عدة سنوات، أثناء تصوير، أحد الأفلام رجل إيطالي يدعى غورينك، يهوى المظهر النازي بالجمرة والسوط، قال لي جملة لم أنساها أبداً:

- أنت وأخواتك، وظيفته في الحياة هي إنجاب الأطفال.

بعض النظر عمّا إذا كان الرجل الطيب يحنّ أم لا للعهد العظيم لذوي القمصان السوداء\*، غالباً ما أقول لنفسي إنّه لم يكن مخطئاً...

عاش ايريك تلك الدوامّة التي قوّضت علاقتنا الثانية دون أن يضطرب، دون أن يحيد، وخاصة دون أن يتخلّى عن كفاحه الذي جعل منّي، تقريباً عكس إرادتي، امرأة حرة.

في ليلة زواجنا، حجز جناحاً فخماً في فندق رافائيل، شرقة ساحرة كما تحلم بها كل الفتيات، صغيرات أم كبيرات. منزراً بلون السلمون على السيرير، كوعد خبيث. زجاجة كبيرة من الشميانا، ألواح من الشوكولاته، ستائر مُسدّلة، أنوار خافتة، إنّها اللعبة الكبرى في ديكور حالم... حيث سيُجعل أصدقائنا من الجناح منزلاً مملوكاً كلياً حتى الخامسة صباحاً.

ففي الساعة السابعة تماماً، ايريك على موعد في المستشفى الأمريكي ليسكب في أنبوب البذرة النفيسة التي ستجعلني أمّاً. في السابعة صباحاً، في اليوم التالي لرفاقه...

- أكرهك، قال لي دون أن يفقد تلك الالتزامات التي جرّدتني منذ الأزل من أسلحتي. هذه أسوأ ليلة زفاف في التاريخ!

أعتقد أنني تزوّجت قديساً.

\* ذوّ القمصان السوداء: هو اللقب الذي أطلق على أعضاء الميليشيات النازية الإيطالية بدءاً من عام 1919 - المترجم.

## الحلم الأمريكي\*

كانت الولايات المتحدة تجسّد حلمي. منذ كنتُ في السابعة عشرة من عمري والتانير القصيرة تجتني. وفي ذلك الماضي الذي يصعب جداً تحلّله، أقلّ ما يمكن قوله هو أنني لم أصحّر فيها. قبل الانهماك في الكالوريا، تسلّلتُ إلى نيويورك، فلما تسلّلتُ فيما بعد إلى باريس أو الرباط أو الدار البيضاء، لأنني بشلّة من بينها مارفن دايان، ابن أخ موشيه، الأمر الذي وضع وزراء الملك في حالة ارتباك. عدا والدي، الذي ابتسم للأمر. كنتُ قادرة على الخروج كُلّ ليلة، دون أيّ شعورٍ لا بالخطر ولا بمفاتيح الخاصة.

في لوس أنجلوس، رافقتُ للاً نهضة، الشقيقة الصغرى للحسن الثاني، وأستقبلنا في هوليوود: التقيتُ هناك — زازا غابور وادوارد ج. روبنسون، وطبعاً على كتيان ماليو الرملية، ستيف ماك كوين الذي دعاني لرقصة بوغي في صحراء كاليفورنيا. كم هو بعيد المال كلّ هذا! القول بأنني لربّما كنتُ سأصبح ممثلة طَلّقتْ مرّاتٍ عديدة على حافّة مسح هوليودي.

لم تعد الولايات المتحدة، والحال أنّها تُدعى الآن أمريكا، تسحر الكثيرين من الناس، ربّما لأنّ العالم أصبح أصغر، ولأنّ الطائرات تطير أسرع، والمرء لم يعد مرغماً على الصراخ في الهاتف ليُسمع صوته من نيويورك. ولكن بالنسبة

\* هذا العنوان وارد في النص الأصلي باللغة الإنكليزية American dram - المترجم.



هنا في أمريكا Welcome to America، قيل لي عندما  
جيت علي باصتي. وسُئلت إن كانت رحلتي مريحة؟ نعم،  
شكراً. كان طابور من ينتظرون سيارات الأجرة طويلاً جداً،  
ولكن ما هم، فسيارتنا متوقفة هنا أمام المخرج، وهي تومض  
بكل أضوائها. غاص جسمي في المقعد الناعم الملمس، وقدم لي  
بجاجة مياه من بيريه خارجة للتو من بار صُغار النيون. انسابت  
البليوزين على الطريق السيّار، تالت الأنوار سريعة بحيث لم أرَ  
سوى سحياً من الألوان.

شرح لي الملحق الصحفي مسبقاً برنامج الأيام القادمة:  
وأعطاني بلا ترتيب اسم فندقتي، والنشرة الجوية الحالية،  
والطرق الواجب سلكها إذا أردت تأمين متابعة إعلامية نوعية  
ومتميزة. لم يقل السائق أي شيء؛ هذا طبيعي لأنه سائق، وقد  
رايتُ عينيه في المرآة العاكسة. من أكون أنا، حتى يقدوني هذا  
الرجل، بتدلل، دون أن يقابل قط نظري في المرآة؟ شعرتُ  
بانقباض في قلبي لفكرة أن يكون هنا من أجلي. ليخدمني،  
وحتى إن حدثتُ طيلة شباني، لم أعد أشعر بروح امرأة ثريّة.  
كنتُ متضايقة، وددت لو أعتذر منه. ذلك المساء، كم بدت لي  
بعيدة المؤتمرات الصحفية في ليون أو ستراسبورغ، والتزل من  
القطار حيث كنتُ أبحث، وحيدة أحياناً، عن سيارة أجرة  
لتزلي أمام الفندق الصغير للمقاطعة ذي الفتنة البالية. حينها،  
كانت أمريكا هي تماماً أمريكا استيهاماتي، آلة مرعبة وأخاذة  
في آن والتي تغطي وتحملي نحو مستقبل مرسوم ومخطط تماماً.  
أغلقتُ عيني، مبهورة بخبر الحركات. سيمكنني أن أكون  
نجمة، هذا المساء.

لي، لم يتغير شيء. وكتابي الذي نُشر على نحو واسع في المشرق  
الأوربية، شقّ علي أن أصدق الناشر، الذي أكّد لي بأنه  
بقليل من الحظ، سيُباع قريباً في الولايات المتحدة. كتابي، في  
أمريكا؟ مستحيل، مستحيل. لقد سبق وصعب علي كثيراً أن  
ألف حقيقة أنني أقرأ في أوروبا، حقيقة أن أناساً يهتمون لي  
ولكن في أمريكا، هذا كثير، كثير جداً.

- هذا بسيط جداً، قال ناشري بابتسامة. سوف لن يُنشر  
هناك ما لن تقوموا بعض الدعاية. فالأمريكيون لا يهتمون  
بالمراسلة، إنهم يريدون التعرف على البضاعة.

- سوف لن يتعرفوا على شيء البتة. من المستحيل  
أن أذهب إلى هناك.

En3aM  
www.rzwity.com

- تصدمني عند كل توقع، يا مليكة.

- هذه المرة، الأمر يختلف. لا أستطيع، لن أذهب.  
بعد ثلاثة أشهر، كنتُ في الطائرة، وفي رأسي كل النصائح  
التي تُسدّى لفئة صغيرة تسافر بمفردها. لا تنسي جواز سفرك.  
احتفظي ببطاقتك معك. ارتدي سترتك الفرو، فالجو بارد في  
نيويورك.

نيويورك؛ عبرتُ، والأصابع قابضة على جواز سفري،  
الخط الأصفر الشهير الذي حلم مهاجرون كثرون بحياهم الجديدة  
خلفه. ثم تتالي كل شيء: جيتُ للبحث عني، الملحق الصحفي؛  
والسائق، وسيارة البليوزين، وأمتعتي الماخوذة بأيد غير مرئية؛  
والتي وجدت طريقها لوحدها إلى صندوق السيارة. أهلاً

- من الطبيعي انجيء لاستقبالك، ابتسم الملحق الصحفي يسعدنا أن نستقبلك.

- سأعود حالما تراحين لبعض الوقت، قال صوت الملحق الصحفي، الذي جاء يشوش من جديد سر أسلتي الميتافيزيقية.

لأننا أصبحنا في الفندق، حيث جاء ساع بلباس أخضر يفتح لي البوابة، بينما وضع آخر حقائي على عربة كبيرة مذهبة. أهلاً وسهلاً Welcome، مرة أخرى، good evening madame أسعدت مساء يا سيدتي، ووجهت نحو مكتب ضخم حيث جعلني بواباً متصنّع لي لباسه وكأنه أمير ويلز\* أن أوقع استمارة. سار كل شيء سريعاً، صُغبت علي المتابعة. كان بمو الفندق مدوّحاً: فهو واسع، بأكمله من الممر والمرايا. يمر فيه عدد هائل من الناس، مستعجلين، حتى يُخال أنه باحة محطة فاخرة.

أخذ جواز سفري (لمرة، لم يكن لدي الوقت لأقلق بشأنه)، وأعطيت لي بطاقة أشبه ببطاقة ائتمان أكلدو لي أنها مفتاح، وصحني رجل آخر قصير يرتدي اللباس الأخضر، وكذلك عربي المذهبة، نحو المصاعد الأربعة، المذهبة هي الأخرى. توقّف المصعد الأول، المنجد والمثبّس بخشب الأكاجو كسيارة ليموزين. ثم وصلنا إلى الغرفة التي وضع فيها الساعي أمتعتي قبل أن يتمني لي طيب الإقامة. أمريكا هي البلاد التي يتمنى الناس لك فيها أكثر أشياء كثيرة هنيئة. هنيئاً مريئاً، إقامة

\* Prince de Galles لقب بأخذه الابن البكر للملك في إنكلترا منذ عام 1301 - المترجم.

هائنة، وصولاً هائناً، عصيرة هائنة، سهرة هائنة... لو كان جزء يسير من هذه الأمنيات يتحقق، لكانت أمريكا بالتأكيد الفردوس على الأرض.

- أين جهاز التحكم؟ سألته مدعورة.

- هنا، يا سيدتي.

- آه، شكراً.

يتقن الرجل الطيب عمله، فبعد تحقّقه من أنّ تشغيل الجهاز يشغل بالي بعض الشيء، (استغرق الإلمام بدقائق جهاز التحكم الباريسي شهراً كاملاً من وقتي)، شرع يشرح لي طريقة استخدامه. هنا، لتغيير القناة، وهنا لقائمة القمر الصناعي (القمر الصناعي؟ هائناً ذا في عالم جيمس بوند!)، الصوت إلى الأسفل، توقيف التدوير إلى الأعلى، ما تبقى لا يهم.

وضبط التكيف؟ زرّ ضخم مثبت على الجدار، مع درجات وأرقام في كل مكان منه... وركوة القهوة؟ لا أجد حتى استخدام ركوة القهوة، فُشرح الساعي، بأنة، من جديد. وأعاد الشرح مرة أخرى. أمضى ما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة، والابتسام لا تفارقه، في تقديم التفاصيل عن تشغيل الصنابير (هيا اعرفي كيفية استخدام هذا القبط الذي يُدار ويُسحب في كلّ الاتجاهات حتى الحصول على درجة الحرارة المناسبة)، وعن البار الصغير (المقلّ بالفتح، لا شك لنمعي من سرقة أي شيء منه)، وعن القواطع الكهربائية الست السهلة

المال حينما نكون في السرير، إن الخزانة الصغيرة المثبتة في الخزانة الجدارية ( خزانة يمكن إبقاء زوج من الملابس فيها بسهولة).

حسن الحظ، بقي لي التلفاز المألوف والمسكن، لولا أنه أفرغ جهده في البث باللغة الإنكليزية. هناك مئات من الخطات، وهي كثيرة جدًا لزوج وحيد من العمون، وكافية لتسليية أكثر المشاهدين ضجرًا. «هَمَّ البرنامج، الشاشة الصغيرة صديقتي، صديقتي الأمريكية، الوقية والمنقرعة في ليلنا ونهارًا. طوال يومين، باستثناء اللقطات التي كان الملحق الصحافي يطلبني فيها ليدسني في الليموزين، شاهدت التلفاز دون أن أتحرك من غرفتي. في الخارج، هناك نيويورك المدينة الكبيرة الأسطورية التي تغدو بارس أمامها دسكرة ريفية. احتجبت إلى شهور لأواجه باريس وأعاد عليها، بمساعدة رجل حياتي وأصدقائي... لا شيء في عالم سيدفني إلى أن أكتشف بمفردي التفاحة العظيمة، التي تلتف في الهواء القارس أعمدة طويلة من البخار، خارجة من أفواه المزارب وسط الشوارع. تبدو نيويورك تنفس تحت قدمي، وقد تزدردني لقمة واحدة. أخيرًا، بدأت «الدعاية». وأنا التي كنت أعتقد أنني قد رأيت كل شيء، لم أصدق ما رأيته عيني.

— ستقدّمين في كل الأقيسة التلفازية المعنية، قيل لي أثناء الموعد الأول مع الناشر الأمريكي.

أمام الآلة الإعلامية الأمريكية، استحوالت الدعاية الباريسية

رهة ريفية. نيويورك غلاية، عُطستُ فيها فجأة ككيس شاي صغير. سبب لي غدائي الأول مع Good Morning America صاح الخير يا أمريكا، عند شبكة CBS الدوّار، كان يجب أن أتناول الطعام وأجيب على الأسئلة، وأتظاهر بمعرفة كل شيء. وأعتبر عن أفكاري بالإنكليزية! ثم كان راديو NPR، و Fox TV، و CNN، (إنها المدفعية الهائلة)، أخبرتني الدائرة الإعلامية بفرح، بينما سيارتي الليموزين لا تقرأ ولا تقف ثانية واحدة. ولعدم إضاعة لحظة واحدة، يُستفاد من أوقات الاختناقات المرورية لمواصلة العمل عبر الهاتف: هاتف السيارة، ولكن أيضًا النقال... لقد وهب الله أذنين للملحق الصحافي، بحمده عليهما كل يوم.

En3aM

www.rgwlty.com

Hold on a second. -

وبالنظر إلى مفكرته، وتسطير وشطب وقلب الصفحات بعصية، عندما لا يكون «المنظم» جاهزاً. «المنظم» هو نوع من جهاز يعرف كل شيء، حجمه بحجم غلبة السجائر، ويُقر بمساعدة قلمي صغير لجعله يتكلم. كدت أشتكي منه، ذلك الجهاز الذي تمت محاولة شرح استخدامه لي لخمس عشرة مرة، والذي يعاني من إرهاق مستمر. يُقر المنظم، ويُعاد نقره، فينتهي بالبوح بسرعة: يُعطى كل شيء، أسماء، أرقام، تواريخ وأيام. على ما قيل لي، يمكن دسّ محبوبات قاموس في هذه الأجهزة. والأفضل من هذا: إنها تصحح الإملاء، تمامًا مثل أستاذ، أولاً بأول، ما أن يُضرب عليها. لقد صرفت النظر عن



فلنّ رموز هذه العجائب الفرعونية منذ أمد طويل، إلا الوحيد الذي يهمني اليوم، هو أن أحظى ببضعة لحظات الراحة قبل أن تتوقف الليموزين من جديد، وأدفع خارجها، ويُرَحَّب بي وتُسأَلُ اللوامة. لا شك أنّه في جامعة نوتر- دام في شيكاغو، كنت الأكثر تأثراً: فقد تُلدِّد حقاً نوبة من الغيرة أمام كل تلك الوسائل المدهشة الموضوعية بتصرف الطلبة. فقد وجِبَ عليّ أن أقوم بوظيفة معلّمة المدرسة لأخوتي وأخواتي، بواسطة مختلي وحدها.

من وقت لآخر، وجد فريقنا الصغير نفسه في عبي الإعصار، حيث يأخذ فرصته في طرح بعض الأسئلة على نفسه، ونحن نتناول السندوتش. هل أرسل الكتاب إلى أوبرا؟ نعم، ردّ ملحق صحافي، ولكننا لم نلقِ الردّ بعد. رغم التذكير لمرة أو مرتين.

- لا بدّ من الاتصال بها، قال الناشر بين لقمتين، ومتعاقبة الحاتف على أذنه.

كانت تلك هي اللحظة التي اخترتها لإبداء رأيي، ربّما هو الرأي الأول منذ أن رُميت في جثة الإعصار. لأنني تألمت بعض الشيء للخضوع الصامت الذي يجعلني بلا شك أبعدو في عيونهم امرأة بلهاء.

- الاتصال بها للمرة الثالثة؟ ولكن من تظنّ نفسها، تلك المرأة؟

استدارت رؤوس ثلاث نحوِي، وكأنني قد أهنتُ الربّ الأب.

En3aM  
www.rwily.com

اوبرا وينفراي!

آه، نعم.

فلنّ نعم، ولكنني لم أعرف منّ هي اوبرا وينفراي. ههههه. وحنّ، في الوجه المذهول لرفاقي، أنّها شخصية هامة. لم أتخلّ بعد إلى أية درجة هي شخصية هامة، يكل ما هذه العبارة، وكم سبيل لقاءنا حياتي.

لقاء غريب كاد ألاّ يحصل. في عام 2001، وأثناء ماراتون «هنّمي»، نظّمت تينا براون، التي كانت تدير حينها مجلّة Talk الصادرة من ميراماكس، مأدبة غداء صحبة ما يقارب أربعين امرأة نافذة. أعلمتني صديقتي ناتالي ماريانو بأنّ هناك حفلة كبيرة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لصدور مجلّة Talk، وأنّ اوبرا ستكون حاضرة فيها. وماذا يعني؟ قلتُ لها: ومن تكون هذه؟ في ذلك المكان الذي ضمّ في أدنى حدّ ألفي شخص، اجتاحني ضجيج قطع كامواج صاخبة، شعرتُ بنفسي كحيوان نادر ساقطاً للبيض المتمدّنين. فقدّمت، وحُشِرْتُ بين أباد مجهولة، شعرتُ بتعارف مصطع بعض الشيء. مترتحة نحو المائدة، تحت امرأة معضلة أشارت لي بإشارة النصر: «مرحى لأجل برنامج ستون دقيقة!» بعد ذلك بلحظات، عادت تلك الحارساة الخاصة ودعتني للحاق بها. لمّ لا؟ أسرعْتُ، فاقدة الأعصاب، إلى مربع الشخصيات الهامة جدّاً VIP نحو أريكة ناصعة البياض، شاغرة من أيّ كائن بشري، والتي أدركتُ فيما

بعد بأنها محجوزة لاوبرا! كائنني أعدمتُ بالكُرسي الكهربائي  
فُضت ورحتْ أنضمَّ إلى جموع الرافضين. تفرست امرأة  
اقتربت مني وبيرة حازمة، قالت: «غداً، سأقرأ كتابك  
أخذتني بين ذراعها، وبمودة زائدة، كتعاهد بين النساء.  
كررت: «أعدك بذلك.» لم تكن تلك المرأة سوى أوبرا.

في طائرة العودة، حلمتُ بذلك البلد، بلد كلِّ المكاتب،  
حيث لا سنَّ اليأس ولا العقم ولا السجن سيمعني من ترميم  
حياتي. لم لا؟ ولكننا بعيدون عنه. كنا، بالتحديد، في جنوبي  
كنتُ مع أيريك الذي أعددت له طبقاً من اسكالوب بصلصة  
كرمي الفطر مع المعكرونة. رنَّ الهاتف، كانت الساعة العاشرة  
مساءً، أوه، كلاً. إنه صوت ناعم أبان عن نفسه باللفظ  
الإنكليزية. دعني أوبرا إلى برنامجها، في أيار 2001. ستختار  
الكتاب لناديهيا، وللمرة الأولى في مهنتها، طلبت مني الحضور  
إلى البرنامج حيث سيكون عليّ الرد على أسئلة لجنة نسائية  
منتقاة من بين أربعة آلاف مرشحة.

En3aM

www.rgwlty.com

البقية تخبر عنه وقائع النشر: باع الناشر الأمريكي ما  
يقارب 700000 نسخة. ولكن ليس لهذا أية أهمية إذا ما قارنته  
بالتأثير الذي كان يسود تلك المنصة.

حينما سأعود في عام 2002، لتسويق كتاب الجيب،  
سيهمن مشاهدان، واقفين أمام استديو التلفاز، لدى اقترائي:  
«هذه أميرة المغرب». وهذا دليل على أن المرء لا يتنجس من  
قدره، وإن كان وهماً! إن إغراء الشهرة وقتي وزائل. ولكن  
الأمريكيين أدركو أن لغة الألم كانت شاملة، وأن رجلاً أُعتبر

كأن يضعك لعشرين عاماً في سجن للأشغال الشاقة، هذا أمرٌ  
محاول الحدود. وجب علي أن أراقب أقوالي، لأنني لم أكن  
أريد إطلاقاً أن يتم الخلط بين بغضي الشديد للملك وبين البلد  
الرائع جداً الذي كنتُ أشجع الناس على الذهاب إليه.

الولايات المتحدة: لم أتوقف عن التجوال في هذا البلد  
العلاق. كل شيء هنا فائق الحدود. شرائح اللحم  
الكبيرة التي تكفي إضافة القوائم إليها لتصبح أبقاراً، وبالإضافة  
إلى الكميات الكبيرة من البطاطا؛ حتى ولو كررنا أن الطعام  
الأمريكي لا يساوي مآثر الدواقة الفرنسية، فأنني من جهتي لا  
أرى في ذلك سوى فورة كرم. حررتي المخزون الشامل من  
حجلي الباريسي: هنا، لم أعد أتخفي أن أجمع، وصرت على  
مرأى ومسمع من الجميع، وبمعرفتهم، الأكياس المخصصة  
لإطعام الكلاب التي تتكدس في الفندق. سوف لن أتناول كما  
في باريس رقائقي البيتزا ونصف شريحة اللحم أو البطاطا  
الباردة.

ما دام علي أن أجمع، شئتُ غارة على المنتجات الصغيرة،  
من مراهم وشامبون وعبدان القطن المشفَّة للأذن، وألواح  
الصابون الصغيرة، التي تضعها أياد غير مريئة كل يوم في  
حمامات الفندق. إنها جذابة للنظر، متقنة الصنع، مدموغة  
بشعار الفندق، منمنمة كأنها لوازم دمية... لا بد أن تكون في  
أمريكا حتى تغطي بترف يتجدد يومياً دون أن يُطلب منك  
قرشاً واحداً. سرعان ما اضطرت إلى استخدام كيس ثان،  
امتلاً بتلك الكنوز التي لا تتضب أبداً. إن أيريك هو مَنْ  
سيكون سعيداً!

سيكون سعيداً على نحو خاص بالمصير المذهل الذي  
شهادتي تحت أنوار المسرح، متيحاً لي طرد من تقبي لي  
الغاريت. الكتاب نجاح، ردد ذلك على مسامعي كل  
حز أنني وقعت نسخاً وسط الشارع، وكأن الكل كان يهرع  
بعد الآن حكايتي. إنها هنا، إنها ثأري، انتصاري: أن أصرخ في  
وجه العالم، في مواجهة الحسن الثاني ورغم أنفه، بالرعب الذي  
أذله لعائلي ولآلاف الناس الآخرين. انكسر الصمت. لقد  
دوت فرنسا أولاً، والعالم الناطق بالفرنسية، ستة وعشرون بلداً  
في العالم، وأخيراً القوة العظمى أمريكا، بهذه الصرخة التي  
أحييت اسمي، اسم والدي. ماذا يوسع أن يفعل هذا العاهل  
المطلق السلطة ليحيل بإشارة من إصبعه حياة عائلة ياكمها إلى  
جحيم سجن؟ لا شيء. ولا حتى إجراء بسيط، ولا توقيع  
عابر. لا شيء. ليس يوسع سوى أن يصغي إلى صوتي، القادم  
من كل مكان، من نيويورك وغيرها من المدن، صوت أمتي أن  
يكلف بعضاً من الحسرة والندم.

سلكتُ من جديد طريق باريس، محمّلة بالأكياس  
والذكريات، حيث ينتظري من أزداد شوقاً إليه كل يوم. أنا  
خاوية ومتخففة ومنهكة القوى وسعيدة في آن. لحظة صعودي  
إلى الطائرة، ذكرني انقباض خفيف في قلبي أن جزءاً صغيراً مني  
س يبقى في هذا البلد، لأنه يبقى بلد النقيين والمهاجرين الذين لا  
وطن لهم. أنا أيضاً، هبطتُ من Mayflower أو Exodus،  
هاتين الباخرتين التانيتين، الميتين بأرواح حزينة، متعطشة إلى  
إعادة البناء. لم أعد أملك جذوراً، وإذا كانت التربة الأوروبية

ساستقل Mayflower مرة أخرى إلى ميامي. حيث  
عمرتُ هنا في هذه المدينة الساحلية، ذات المسحة الإسبانية،  
هناحة من قبل المهاجرين من كل الأجناس، بأنه من الممكن  
البقاء من جديد، أكثر مما في لوس أنجلوس، التي لدي فيها العديد  
من الأصدقاء. Ocean Drive: إنه حلم. وجدتُ نفسي فيها  
بحالة جيدة، وبدا لي أن نفس التصرف أسهل هنا. أقمتُ فيها،  
مع نوال وإيريك، مغسولة من ماضي، شبه عذراء، أعمل في  
مكتبة على الكتاب الذي تقرأونه في هذه اللحظة. انضم  
إيريك إلي بعد عام من انتقال. لا شك أن خطأي الوحيد هو  
انشغالي بالسياسة. تابعت الجدل بين جورج بوش وجون كيري  
بوجوم. الغريب أنه لا توجد نفس الدرجة من حرية إبداء  
الرأي السياسي في الولايات المتحدة كما هو في فرنسا، بل  
وأحياناً، كما هو في بلدي، في المغرب. من لم يقرأ السجينة  
خفية؟ لم يكن بوش يُنتقد حينذاك. بعد 11 أيلول 2001، لم أكن  
أعرف ما سيكون رد فعل أصدقائي الأمريكيين. أيمكن أن  
أكون مسلمة متطرفة؟ بعد ذلك بشهر، وخلال مؤتمر، كنتُ  
مقتنعة بأنني قد أرفضُ بتهذيب. مطلقاً: لقد صُفقتُ لي. كنتُ  
حرّة. الآن، ومنذ تبتي آدم، أعيش بين ميامي ومراكش.



## موت ملك

ظَلَّ الهاتف يلاحقني برنينه، إلى أن انتزعني من نومي. نحن  
الـ 23 تموز 1999، وما من شيء يسوّغ لي القول بأن جراحي  
سيفتح من جديد دفعة واحدة. رفعتُ السماعة، تعرّفت على  
صوت صباح، التي تتصل بي من الدار البيضاء لأجل السرّ  
الأعظم. صباح صديقتي منذ زمن غابر، يمتدّ إلى أربع وثلاثين  
سنة. لأنها كانت صباح، ولأنني كنتُ مليكة.

- لقد مات، همست.

مات! احتجّت إلى بضعة لحظات لأستعيد أنفاسي.

En3aM

www.rzwitg.com

- هل سمعتي؟

- نعم، سمعتك.

سوف لن أسأله، في آية لحظة، عمّن تتكلّم. أعرفُ عمّن  
تتكلّم. ذاك الذي لا يُلَفِّظ اسمه، إنه ليس الله وإنما هو الحسن  
الثاني، عاهل المغرب، الذي كان ظلّه يَحْيَم على البلاد منذ أمد  
طويل جداً بحيث كان يُعْتَقَد بأنه خالد. لقد برهن أمير المؤمنين  
على أنّ ذوي السلطان يموتون أيضاً، وأن السلطة، وإن كانت  
مطلقة، لا تحمي من الاستحقاق المقدّر. لم يمتعني ذلك، ما أن  
أغلقت سماعة الهاتف، من العجز عن العزم على الإيمان بذلك؛  
فتمثال الفارس الأمر، المتّين عميقاً على قاعدته، بدا لي - كما  
للجميع - أنّه خالد أبدي الدهر. طيلة حياة، صقلت عليه ظنوني،  
وأستلتي، وحزني وكراهيتي... أيمكن، في لحظة، بمكالمة هاتفية  
وحيدة، أن يزول من على وجه الدنيا؟

En3aM

www.rzwitg.com

في حاجة إلى التأكد من الخبر، إلى جعله رسمياً، إلى أن أسمع. تناقلت جميع محطات التلفزة الخبر، بالانكباب على عرض محطات موجزة عن حياته، وبيتٍ صور من الأرض. الحسن الثاني شأناً، الحسن الثاني كهلاً، الحسن الثاني عجوزاً. كان يُرى في كل مكان، راجلاً، في السيارة، محيياً الحشود، في الشرفقة، في الصورة الرسمية، مسافراً. الكثير من المصافحات، في المغرب، في الشرق، في الشرق الأوسط، الكثير من الابتسامات المتخففة على الشفتين، الدبلوماسية... يكاد المرء، وهو يساهم يتناولون في الإقناع القطع للتقارير، يعتقد أن جميع قادة القرن العشرين يتقاطرون في طابور لالتقاط الصورة العائلية رفقة ملك المغرب. لم يرد بعد جثمان الحسن الثاني، حتى بات من التاريخ... لم تنضب التعليقات التي دوت في أذني من المدح والثناء لهذا الرجل العظيم الذي تأسف عليه كل صحافي كاتبه والده، وقد اختنق الصوت بتأثر إعلامي.

في اليوم التالي، منذ الساعة صباحاً، تواعد كل ما يضمه العالم الناطق بالفرنسية من وسائل الإعلام أمام باب دارني، مسببة خيبة أمل كبيرة لايريك، الذي كان يفكر في تناول الغداء مهدوء في التروكوت، تحت شمس تموز.

- إنهم في الأسفل، قال لي بابتسامة منكسرة.

حقاً، إنهم في الأسفل، من TF1 إلى M6 مروراً بالتلفاز البلجيكي، والقنوات البرقية، والإذاعات وبعض الفضوليين، المجندين إلى العدسات كالفراشات إلى الأنوار. انماثت علي الأسئلة. الأسئلة ذاتها، دائماً ذاتها.

- ما هو شعورك؟

ما هو شعوري؟ أنا نفسي أجهل ما هو شعوري. قلن بشأن انتقال السلطات، ومستقبل المغرب، ومصير أسدقائي الباقين في البلاد. ولكن ليس هذا ما جاء الصحافيون لسمعه... لقد مات جلادي، فهم هنا ليروني أقفز فرحاً للخبر. كالصور التي سيثونها تحت العنوان: «أفقر، تحرير» «ان»، أو شيء من هذا القبيل. وبما أنني لم أبدو أي نوع من الأرتياح والسرور - لم أشعر سوى بفراغ متشعب، فكيف سأظهر فرحاً؟ - جرت محاولة تقويلي ما يؤذن سماعه:

- لا بد أن يكون هذا عزاء لك!

En3aM  
www.rewity.com

- هل تشعرون بنفسك أحسن حالاً؟

كلّ، هذا ليس عزاء لي، كلّ لا أشعر أنني أحسن حالاً. لقد تبخرت عشرون عاماً من حياتي في بطن الغول، لن يعيدها لي موته. ولن يعيد لي والدي. لقد مات جلادي ميتة رضية، في سريره، مع أمجاده، وجميع محلات العالم تنعجه هذا الصباح.

شرحت، مهدوء، أن أفكاري الوحيدة تب اليوم نحو المغرب، وأني لست سعيدة ولا حزينة لموت الحسن الثاني، وأني أتمنى أن تصل البلاد إلى بر الأمان. ولكن لم يُرد أن يُسمع رأيي.

- ولكن، في المحصلة، لا بد أن سمع الخبر قد ترك فيك أثراً غير عادي.

— أثر غير عادي، نعم.

— في انقصة، هذا انتقام بعض الشيء، أليس كذلك؟

— كلاً، ابتداءً.

رغبتُ أن أضيف: «أسفة»، لفرط ما بدت عليهم  
خيبة الأمل.

En3am  
www.rewity.com

غادر الصحفيون، متأبطين كاميراتهم، خائفين، دون  
ضحكات أو دموع «في جعبتهم»، لا شيء يترك أثراً عميقاً في  
نشرة أخبار الساعة الثامنة.

كانت الخيبة كبيرة لدرجة أنه بعد نفاذ جميع الوسائل،  
استخدمت إيماني الموجزة لتأكيد أنني، وعوض أن أفرح لموت  
الملك، بكيتُ له. فيلنسية لوسائل الإعلام، إما أن يكون المرء  
فرحاً أو مستمراً، ولا وجود للألوان الأخرى. قرأتُ في  
الصحف بأنني كنتُ أسعى لإرضاء النظام الجديد يظهاري  
حزناً شديداً. بل إن صحافياً أكثر وقاحة من الآخرين أتهمك  
في تحليل نفسي نابه، مبرهنًا، من خلال  $A+B$ ، على أنني كنتُ  
مرتعاً لتنادر\* سر كهلوم: الضحية المغرمة بالجلاد.

لا شك أنني كنتُ سأبدي فرحاً لو أن الحسن الثاني كان  
قد أقر بأخطائه قبل مماته، لو كان اسم عائلتي قد بُرَّ علانية، لو  
أن الصورة الباقية للجلاد قد أُعشيتُ بكشف انتهاكات النظام  
وتعذيباته. ولكن رحل معطراً، مبخراً، على محرقة جنازته

\* التناذر: تزامن أمرين مرض من الأمراض المترجم.

لكاد تكون وضعية، يتدافع من حوها كل واحد لكي يظهر في  
موقع مناسب. فهذا سيحتل بوضع الأكثر محبة والأفضل  
شهرة والأفضل خدمة...

( هذا الصديق العظيم لفرنسا )، ( هذا الديمقراطي  
العظيم )، خطب السياسون، مطبين، الذين آملين أن يكون  
خليفته حكيماً كوالده...

تركني الحسن الثاني يتيماً من ألي، جردتني وفاته من  
باعني الوحيد للكره والكفاح والتألم — ومع ذلك كان ذلك  
الباعث هو ما أبقاني لزمّن طويل عاتمة في قاع سجن. حزن  
شديد كلما انقضت الساعات، لأن موت أمير المؤمنين هو في  
بعض منه موتي أنا. فريحله المفاجئ دون تسوية حساباته، دفن  
معه فرصتي الأخيرة لأفهم. لماذا؟ لطلما أردتُ أن يجيب،  
شخصياً، ذات يوم، على السؤال الذي راودني طيلة حياة:  
لماذا؟ لماذا نحن؟ لماذا أنا، التي كنتُ بمثابة ابنته؟

لن أحصل قط على إجابة لأسئلتني. وبجده الخسارة  
الأخيرة، هذا الحرمان الجديد من الهوية — هويتي كضحية —  
غادر الحسن الثاني ثمانياً من المسرح مع الدور السهل.

— طبعاً، أنت معارضة للملكية، سألني صحافي معمد  
ريبوراجات، على أمل أنني على الأقل سأناهض النظام، إن لم  
أرقص على قبر الملك.

خيبة أمل جديدة: فقد علم بأنني أؤيد مبدأ النظام الملكي،  
لأنني أعلم كم هو ضروري لوحدة بلدي. لم يعد الحسن الثاني،



في ذهني، لا أب ولا جلد، إنه شخصية عاقمة مفصولة عن الجسد، تركت خلفها بلداً هشاً، مهتداً من كل تجاوزات العالم العربي المأزوم وعنفه. لست مشبعة بالفكر الإسلامي الذي يريد أن ينحي المرء أمام الموت، متمعاً عن النقد، وإنما على الاعتراف للغول الذي خيم طيلة أربعين عاماً على الغرب بأنه لم يفعل سوى الشقاء للبلاد. فقط، لو أن محمد السادس يستطيع أن يظهر بأنه أقل دموية من والده، ويضع استبداد والده وعسفه في عداد كوابيس الماضي، لربما يتمكن النظام الذي ورثه أن يكون أفضل ما يكون...

— أفهم، قال الصحافي الذي أدرك في الحال بأنه سيكون عليه أن يغذي نزعة التلصصية في مكان آخر.

En3aM

www.rqwity.com

لم أر قط أثراً لتلك المواجهة في الصحافة...

لمرتين، سأخيب أمل وسائل الإعلام؛ فحققت عليّ بما فيه الكفاية لتختلق لي تعليقات أجهلها. فموت جلادي يتوفر على كل شيء لاسترجاع وصولي إلى باريس؛ فقد جرت هذه المراحل الكبيرة في حياتي دون تفجّر الفرح، وحتى دون عزاء. جاء العزاء لاحقاً، تدريجياً، حينما بدأت الكتابة. لأنّ السورق امتصّ كلماتي وذكرايتي، منزلة العباء عن كاهلي أخيراً. ليست الأحداث ما خفف عني، وإنما الكتابة.

الآن، وبينما يستعدّ العالم الكتيب لإقامة المآتم للحسن الثاني، الذي لم يحظّ والذي قط بحق إقامته، أمل الكثير من النظام الجديد. كلمة واحدة. كلمة واحدة قد تكفي. ولكن

لا يتوجب على ملك أن يعترف، تلك أمورٌ مقدّرة لعامة الناس، لأولئك الذين يُرمون في السجن. إن ملكاً، مثله مثل قاتلي، لا يعترف بعدالة غير عدالته...

أما الشعب، فليس ميّالاً إلى النسيان، وهذا ما يمنعني، منذ سنوات طويلة، القوة في المزيد من الأمل: منذ إطلاقي من السجن، عام 1991، كان رجال الشرطة يحوّنني باحترام عند كل إشارة مرور، وهم يرفعون يدهم إلى مقدّمة خوذاتهم. أيّ مفارقة أن نرى الرجال الذين كانوا في أمس جزءاً من حراسنا اللصيقة، يقتربون منّي وسط الشارع ليؤكّدوا لي إعجابهم، وتعاطفهم المطلق مع والدي...

في كلّ أنحاء المدينة، توقف قوات النظام السيارات لتتيح لي المرور. لا شك أن بلدي هو الوحيد الذي يجتاز فيه المرء، الخارج للنو من السجن، التقاطعات كشخصية فائقة الأهمية VIP، دون تقيد بالإشارات الضوئية، تحت دقات صفارة رجال الشرطة. طبعاً، هؤلاء الرجال يرعون نظام المخزن، الذي يحكم المغرب، ويحدّد عن قرب السلطة الإلهية للملك وخدمه. لا يقتابون النظام، لكنهم يحوّن باحترام ذكرى والدي، هذا الوالد الذي أعدم من قبل العاهل الذي يخدّمونه.

والمفارقة هي أنّ الانتقام الوحيد، التعويض الوحيد الذي سيحمّله إلى موت الحسن الثاني سيأتي من الخفل الذي لم أكن أتوقّعه: الصحافة. إن أسوأ ما يمكن أن يحصل لرجل دولة ليس هو النسيمة وإنما النسيان. والحال أنّ المغاربة يجيّدون أكثر من غيرهم اللجوء إلى نوع فريد من النسيان: بالكاد مرّت عسدة

أسابيع على موت الرجل العظيم، ولم تكن الصحافة تتكلم عن إلا نادراً. ورتبنا لأنّه دخل التاريخ، كان سبق وقد هُجِرَ حتى قبل انتهاء الحداد، ولم تعد تهم الصحف أين اختفى وجهه...

الصحيفة اليومية الكبرى للبلاد - التي كانت، أثناء حياة الملك، صوت الحكومة - تجرأت أخيراً على أن تنشر على صدر صفحتها الأولى إعادة النظر في القضية التي تحمل اسمي. لا اعتراف، ولا اعتذار من القصر، ولكن الصحافة، المتحررة من الخوف الآن، لم تتردد في أن تنطق، للمرة الأولى منذ عشرين عاماً، باللقب الملعون لعائلي. وللمرة الأولى، شاهدتُ صورة أبي تنتشر كبيرة على الصفحة الأولى، في حين أنّ صورة الملك، في زاوية متواضعة تكاد تكون باهنة، صغيرة جدًا بحيث يجب الاقتراب منها حتى يتم التعرف عليها.

En3aM

www.rewity.com

## الولادة الجديدة

منذ بضعة أيام، وُجِدَت ترميمات، لأنّه لم يكن لتزمامارت، الواقعة في جنوب-شرق البلاد بين ميدلت والراشدية، وسط الصحراء، وجود رسمي. حتى أنّ برلماناً مغريباً، لا يعظم الواقعة، كان قد ردّ على سؤال لإذاعة غربية: «لم يكن هذا السجن المزعوم موجوداً قط سوى في خيال أعداء ديمقراطيتنا.» وبضربة عصا سحرية: العفو الملكي، انفتحت أبواب ذلك السرداب الفظيع في عام 1999، ونجا ثمانية وعشرون معتقلاً من النسيان، أي من الموت. كانت أعمال هذا اللا مكان قد بدأت عام 1971، مستودعاً لـدخائر الجيش، وقد حوّل إلى حصن ضمّت زنزاناته الستون السجناء السياسيين. كانت الزنزانات على مقاس كمامات، طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف، مع ترف حفرة تغرط وموضع قدم على كل من جانبيها. وصحن وغرفة وإبريق ماء، كان يُستخدَم، في آن واحد، للشرب والاعتسالم وتطيف الألبسة. البعض قضى هناك أكثر من سبعة آلاف ليلة دون أن يأخذوا قطّ دوشاً ساخناً. وحلّ آخرون، مثل عائلي، السجن في داخلهم.

هكذا، بعد سنين كثيرة من حداد لا ينتهي لعائلات أولئك الذين لم يعودوا إليها أبداً، قبل محمد السادس بما لا يُقْبَل به، وأنا ممتة له على ذلك. نعم لقد أرسل إلى هناك سجناء سياسيون بالملئات، منهم عسكريو انقلاب تموز 1971 في الصخيرات وتمرّدو آب 1972 (أنصار والدي). نجا منهم

ثمانية وعشرون فقط. ماذا جرى للآخرين؟ تلاشوا، ذهبوا هائماً منتوراً. هيا اعرفوا.

لحقْتُ بالطابور الطويل للسيارات الرباعية الدفع التي سُمِح لها أخيراً بالذهاب إلى أطراف المعسكر، مخنوقة تماماً بالدموع عيني. هناك على مقربة بضعة مئات من الأمطار من المكان حيث ذاب أبائهم وأزواجهن وأخوتهم في الرمل، استسلم أصدقائي للمضي في حزنهم الأول الذي لم يكن مصبوغاً بالغضب. كم كان عددهم؟ العشرات، مئات؛ فبين أسر الضحايا والجمعيات الإنسانية والصحافة لم يعد يُميز سوى كيان تضامني، سلسلة من الألم. انتهى كل شيء، أخيراً. يبقى الشروع في الحداد. وضعت المعركة من أجل الاعتراف بوجود ترمامارت أوزارها.

ترمامارت موجودة، وعاد نجل بن بركة صبية عائلته إلى البلاد، وعاد إبراهيم صرفاني من المنفى. ووضع طياران ناجيان كتاباً حول معسكر الموت، نُشر في المغرب. ورفعت الحقيقة، شيئاً فشيئاً، غطاء تابوت مقل بأربعين عاماً من الطغيان. بقي جانبٌ وحيد مغطى بياس: ذلك الذي يحجيم على عائلتي. لأئسه، لسبب أجهله، لم يجر الحديث عن رفع قانون الصمت بما يخص «قضية أوقير». ولا يزال كتابي -السجينة- ممنوعاً في المغرب. لا يزال يُنكر على عائلتي، بمقتضى التعسف الملكي، الحق في أن تكون ضحية. وإلى متى؟ طيلة حياتي، ربما. يبدو أنني مسادف إلى الأبد ثمن جريمة لم أقر فيها. ولكن ما هم، فناري الأجل هو هذه الحياة الجديدة التي لم يُعد من الممكن انتزاعها مني، وإن كانت اليمة جدّاً.

ولكننا لا نألف بمقدونا عالماً عدوانياً. لقد انتشلني رجل حيائي من الحميم؛ وعلمتني امرأتان العيش من جديد. امرأتان مشاهجتان ومختلفتان في آن، أدِين لهما ببادرة الصفاء التي تكرّر يوماً بيوم.

الأولى، هيلين بامر، وهي ليست سجينة للمرة الأولى فقط: ففي عام 1945، في سن التاسعة عشرة، كانت هذه المرأة الاستثنائية تذهب إلى معسكرات الاعتقال المحررة لتزورها، لكي تعالج وتسمع وتخلق الحياة من جديد عند أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم موتى. منذ ذلك الحين، كانت على كل جبهات الشقاء، في كل مكان احتاجت إليها الأرواح والأجساد الممزقة؛ ومع ذلك بقيت ذكية النفس، شغيفة الروح كيومها الأول. دون ذرة من المرارة أو الخيبة...

إنها هي من علمتني أن أتحمّل الحقد والتمرد اللذين كنت أخفيهما بداخلي. هي التي ساعدتني على إطلاق صرختي الأولى، صرخة أولية لولاهما لكنت قد بقيت بلا شك خائنة القوى بقية أيام حياتي. وبينما كان الغضب مستمراً، وبينما كنت أحاول كظم الحقد المخيف داخلي مخافة أن أعدو أسوأ من جلادتي، دفعتني هيلين إلى أن أعبر عن نفسي بصوت عال. حينها اتضحت الرؤية أمام عيني: المشاعر الملجئة، المكتئبة تستحيل حصّاً حارقاً وتنتشر شيئاً فشيئاً الأسس الهشة التي لا تزال تسندني.

- إنه أمرٌ يبعث على الجنون، ليس لديها حقلاً على أحد، كان يُقال عني، بإعجابٍ كاملٍ، طيلة سنوات.



وكنْتُ أمدُّ الحَدَّ الأيسر، متشجِّعةً بمَدائح أولئك السُّدَّاءِ كانوا يضعوني في مصافِّ الأمِّ تريزا. ما كانوا يجهلونهُ، وأجهلُهُ، هو أنَّ الضَّغينة التي أمتنع عن الإفصاح عنها كانت تنهكُ جزءاً ما في داخلي، مستورةً بأقوالِ كنْتُ أريدُها سَلَمية. والحالُ أنَّني أعرفُ الآن، ممَّا تعلَّمتُهُ من هِيلين بامبر، أنَّه لا يمكنُ للسَّلام أن يُولدَ إلَّا حينمَّا يُصَفِّي المرءُ حُساباته الخاصَّة. وأنا واقعةٌ في شركِ صوريِّ كسْجينة، غيرُ قادرةٍ على إبداءِ أيِّ شعورٍ عَنيفٍ، كنْتُ ألعبُ دوري كضحيةٍ بدقَّةٍ متناهية.

- اخبريني من ذلِّكَ، تَخَلَّصِي من هذا الجِلْدِ السَّذي هو ليس جِلْدُكَ.

كانت هِيلين على حقِّ. الحقْد، ما أن يَلْفَظَ إلى الخسارِ، يخفُّ ويتلاشى، لا يَبْقَى منه في الحالِ سوى الإحساسُ بالنفْسِ على نحوٍ أَفضَل، والحرِّيَّة في الحبِّ أو الكراهية، ليس بالمبدأ وإِنَّمَا بالاختيار.

لقد تَخَلَّى والدائي عَنِّي، كان سيلزمني كلَّ هذا الوقتِ لأقولُ هذا. في الأربعين من عمري، أستطيع وأجرؤُ على تَأْكِيدِ ذلك، لقد قَطَعْتُ - بمِساعدة هِيلين - الجِلدَ السَّريِّ.

صاحبةُ الفضلِ الثَّانية علي تدعى اوبرا وينفراي، وهذا الاسمُ لوحدِه يفتَحُ، في الولاياتِ المتَّحدة، كلَّ الأبوابِ (العروضُ الجماهيرية الضَّخمة تكاد تكون مفتاحاً سحرِيّاً في العالمِ الحرِّ). الثَّقينا في عالمها المزركش، ذلك العَرَضُ غَيرِ العادي الذي ترتاح فيه مثل القِرْشَةِ المنتشرة فيه. ولكن اوبرا

على النقيض من أترأجا: إِنِّها إن صَحَّ القولُ 1% من الإنسانية التي تتسجَمُ معها أخطأتُ الكبيرة، كي لا تخضعُ قِاماً لثقافة الرِّيح. إِنِّها تقدِّمُ منيراً للطبقة الوسطى، لضحايا الرعبِ والظلم. طبعاً، سبقها آخرون إلى فعل ذلك، وليس دائِماً لدوافعٍ غَيريَّة. لقد شاهدتُ برامج لا تُعدُّ ولا تُحصى كان الشِّقاءُ يُشيعُ فيها، على نحوٍ مرِيبٍ، همُ المُشاهدين.

ولكن اوبرا ليست من أولئك الذين يستغرقون في التَّجَمُّلِ. بعد الحقِّ في التمرد، أتت بعد هِيلين بامبر لتعلِّمَني الحقَّ في السَّعادة. لأنَّها عرفتُ أَفضَل من أيِّ آخر أن تَكشِفَ «تَمَثُّلَ دور الضَّحية» في شخصيِّتي، وزَعَزَعَت القدرَ السَّذي كان يَمْنَعُني من الطُّموح إلى السَّعادة.

- هذا القدرُ غَيرُ موجود، أنتِ مَن خلقتِهِ.

أيتعلَّقُ هذا بالمرحلة الأخيرة من ولادتي الجديدة؟ بقي أن أكون سعيدة، وهذا ما يصعبُ عليَّ كثيراً الانقِطاعُ بِهِ. في مُهاية مُقابِلتي، قالت اوبرا جِلَّة، تَرَنُّ كلَّ يومٍ في ذهني:

- قولي لي بأنَّكَ قادرةٌ على أن تكوني سعيدة.

وفي ظلِّ الانفعالِ المُساعد، وتحت سحرِ مُقدِّمة البرنامج، ومُدْفوعةً بالضَّغطِ الإعلامِي، أَجِبتُ بنعم. تحت موجةِ التَّصفيقِ والتَّهليلِ دون تفكيرٍ بِذلك، ودون تصديقٍ لذلك. أو ربَّما مُصدِّقة ذلك في لحظتها... اليوم، لا أعرفُ إن كان بِإمكانِي أن أكون سعيدة؛ فالمستقبلُ سينبئني بِذلك بلا شكِّ، إلَّا إذا مررت

بجانب السعادة دون أن أراها. أكاد أكون كذلك الشيء الجميل الذي مثل دور دراكو لا عشرين عاماً متتالية. وإذا كانت غريسة دوره، كان يتم كل مساء في نعشه، وانتهى الأمر بذلك في مشمله الأسود ذات البطانة البنفسجية. التصق دوري كصحية مجلدي بشدة بحيث أخشى ألا يمكنني التخلص منه أبداً. هل سأدفن في جلدي كسجينة؟ المرأتان اللتان حضّاني على الولادة من جديد أكدتا لي بأن لا. لقد منحني هيلين الأسنان لكي أعض، بالضبط؛ ودفعني أوبرا إلى أن أطرح على نفسي السؤال الأهم. لا أعرف شيئاً عن قدرتي على بلوغ السعادة، ولكن بالنسبة لهما سأبذل أقصى جهدي...

يوماً، أشاهد برنامج أوبرا، مع ذلك الشعور الغريب بأنّها تتوجّه إليّ وإليّ وحدي. كتاب الطقوس هذا الذي يثير أحياناً سخرة إيريك، يمتدّي بالطاقة التي احتاجها للبحث عن تلك السعادة التي غابت عني كثيراً. أحسُّ بأنّي أعيد شحن بطارياتي وأنشع بالطاقة الإيجابية لصديقي. قلّما تتحدث، ولكن برنامجها أشبه بموعد معها... يلزم الكثير في سبيل إيجاد السعادة. فضلاً عن ذلك، يبحث الملايين من الناس الذين لم يعرفوا لا السحن ولا الرعب عن السعادة وفلنأمل ألا يكون هناك عددٌ من النماذج المحدودة منها، دون ضمان بالنجاح.

بكتابة تنمّة السجينة، أعرف أنني أتخلص من الشقاء، أصبح طبيعية، إن صح القول. سواء كان هذا أسوأ أم أفضل، سوف لن أكفي بذلك.

## التعويض

المال لا يعوّض ولا يصلح ما فات. ومع ذلك، وبمساعدة الدولارات والفرنكات والدرهم يضدّ العالم جراح الذين حطّمهم. أهو خطأ قضائي؟ عشرون عاماً من السجن لكوفي ابنه أبي؟ إن شياً سيعوّض كل شيء في حينه. يحل الناس الأحرار المال كثيراً لدرجة أنّهم ينتهون إلى التصوّر، بكلّ حسن نية، إن بوسعه طمس كل شيء. غالباً ما تساءلت كيف كان يُظنّ ذلك في سبيل تحويل إجحاف إلى نقود... كم من المال لقاء سنة في المستشفى أو لقاء شهر من السجن أو لقاء ساق ناقصة أو لقاء قريب ذهبن بحافلة؟ كل شيء يُحسب، أكثر أو أقلّ ثمناً، حسب البلدان، حسب الخامين. إنّها لعبة لوي الأذرع، الشاكي ضدّ القضاء، الأول ساعياً إلى ابتزاز أقصى ما يمكن من المال من الثاني، والثاني باذلاً أقصى ما لديه ليتمّ حتى السنتيم. الأكثر سخرة هو أن أفضل المعوّضين ليسوا بالضرورة الأكثر تضرراً وإنّما أولئك الذين لديهم الخامي الأفضل. والحال أنّ الخامي، مثل اللبن الرائب، أفضل حينما يكون أغلى أجراً. والأكثر فقراً، الذين سوف يُعاقبون من الخامي ذي الأجر العالي، سيكونون الأقلّ نيلاً للعناية ساعة التعويض.

في عام 1999، وبينما كنت قد بنيتُ لزمن طويل من أن أرى يوماً يجري فيه الإقرار بمسؤولية الدولة المغربية عن الخسة

القاسية لعائلتي، شُكِّلَتْ لجنة هدف - أن يكون ذلك متأخراً خير من ألا يكون أبداً - تعويض ضحايا الطغيان. أو على نحو أدق، لتقديم تعويض مالي إلى الذين دفعوا ثمناً باهظاً لقاء « الأخطاء » القضائية الكثيرة جداً لأُمير المؤمنين.

وهكذا، للمرة الأولى، ظهر اسمي على قائمة للضحايا. وإذا استطعت المطالبة بتعويض، فلأن هناك خطيئة؛ إذ سيكون هذا الاعتذار الوحيد الذي ستودّ المغرب أن تَمْسَ به، بطرف الشفاه، جِواء سرقة عشرين عاماً متي. هذا قليل، ولكنه هائل. وإن وجب الانتظار إلى عام 2005، لِيُعلنَ بأنّ الإجحاف قد « رُقِمَ »، فإني، أخيراً، ضحية معترف بها، سافرة، ورسمية.

من جهة أخرى، هذا الاعتراف هو ما دفعني إلى القبول بالصدقة. وهو اعتراف يكاد يكون نداماً، فإذا كان قد رفع آخر حائل بيني وبين الحرية، فقد أعفى كذلك جلاديّ، بشمن زهيد، من مسؤوليتهم. القبول بالمال الذي غرض علي، هو إلى حد ما إعلان بأننا متعادلان، الغول وأنا. والموظف الذي سلمني الشيك لم يشك في ذلك: ملأها لي، دون كلمة، دون شعور، بلدعة ازدراء. ثمة في نظره شيء ما ربما أمكن ترجمته بالنسالي: امسكي، خذي مالك واغربي. وأنا واقفة، وبسدي ممدودة، شعرت وكأنني أتسول، وكأنه علي أن أشكر على الصدقة. انعكست الأدوار، فأصبحت مدينة لجلادي. اشترى ألمي، ولن يعود لي قط الحق في التشكي.

لو أنّ أصدقائي لم يفتحوا لي عيني، لكنك سأرمي الشيك في وجه الموظف المكار، لأثبت للجميع أنه ليس بالمال، دون

طلب كلمة عفو، يُشترى الألم. ولكنني لم أنس نصائح مَنْ يجبروني. رفض التعويض؟ مسألة غير مطروحة. فجلادي ليسوا على شهامة، وسوف لن يجدي عملي الجريء أيّ صدى. سوف توفر الحكومة مال التعويض، لا أكثر ولا أقل.

- ألا تريدن شيكهم؟ رُدّد ذلك على مسامعي، سيتجهون بذلك!

مع ذلك، لا تتعلّق المسألة بثروة. فقد قرّرت لجنة مغربية مائة بالمائة، أجل تركيبتها، المبلغ اعتباطياً بعد مناقشة ارتجالية. وعلى نحو غريب، لم يكن تقدير الضرر واحداً لكل أفراد العائلة: فأُمّي وأخي وأخواتي سوف لن يقبضوا نفس المبلغ الذي سأقبضه. وذلك لاعتبارات العمر والجنس والمزاج. سخرت من ذلك: سيفيدني هذا المال في أن أقترض خمسة عشر عاماً، كامراً حرة، لأحقّق أخيراً حلمي: شراء بيت لي. حقاً لي. مكان يخصني، شرققة، جُحُر. فربّما سيقدّم لي الاختباء، بطريقة ما، ملاذي الأول.

لا شيء سوف يعوّض عشرين عاماً من السجن، ولا عشر سنين، ولا حتى ستة أشهر. ولا هذا الشيك «النافه»، والبيت الذي سيقدمه لي. فضلاً عن أنّ مليوناً سوف لن يكون أفضل من هذا. لا قيمة للمبلغ في نفحة الأوكسسجين في النشوة التي ستأتي لاحقاً. لأنه إذا كان لا يزال الألم، فإن جلادي قد اعترفوا أخيراً أمام العالم بعذاب عائلتي. لقد برّأ اسمي. وهذا لا يُقدّر بشمن.



يكفي توقيع على قطعة من ورق لأصبح امرأة ثم وإذا كان ثرائي نسبيّ تماماً، في نظر ذلك الرجل الطيب، الأسماك الذي اقترّب منّي لدى الخروج من المحكمة، فإنني لم أنكلترا. إنّه ليس متمسكاً وإنما طباح، على ما شرح لي. طامح لم تفدسه الحياة، بحيث سيصبح مشوهاً بعد بضعة أيام، جراء غنغرينة سريعة الانتشار. ماذا عساي أن أرى في يؤمّه؟ لا شيء أكثر من كلّ الناس الذين يَمُرّون دون أن يلحظوه. ولكنني أخذت فرصة الإصغاء إليه، لأنّه أظهر الضيق، ولمرة واحدة مدّ سنيّن، كاد قلبي أن يكون مرتاحاً.

يحتاج الرجل إلى المال، بالتأكيد. بماذا ستعيش أسرته بغيايه، حينما تُبتر ساقه. عشرون يوماً، هذه ليست نهاية العالم... وعده وجية بمساعدة، ولكن في اللحظة الأخيرة، ظلّ بابه موصداً، وقد مرّت بضعة أيام والطّباح يدقّ الباب يائساً دون أن يتلقّى ردّاً.

وبعرضه لساقه المصابة بالغنغرينة عليّ.

- لقد جئت في الوقت المناسب، يا صديقي، أنا ثريّة.

أعطيته خمسمائة دولار. وهو المبلغ الذي لم أكن لأستطيع تقديمه لأيّ كان لو لم يكن شيك جلاديّ في قاع حقيبتّي. عشرون عاماً من السجن لأكون قادرة ذات يوم أن أتيح لمعوز العيش لعشرين يوماً... كلانا لن نعود سعداء بذلك: هو سيفقد ساقه إلى الأبد، وأنا من المستبعد أن أستعيد شبابي ذات يوم. ولكن ذلك سوف يبيّنه التسوّل والتذلل أمام المارة وسير أغوار

البلور الملون تلويحاً خفيفاً لسيارات المرسيدس، لكشف البريق الإنساني في عيون راكبيها.

المال لا يعوّض الحسارة، حتى وإن ساعد في تضييد الجراح. شيء واحد في العالم يملك قدرة الشفاء: الحب، ولو متصنعاً، وأيضاً المرتقب بقدر ما يمكن لذلك أن يظهر. حبّ إيريك، طبعاً، الذي تلقّيته بالحقن منذ ولادتي الجديدة، والذي جذّد دمي. ولكن حبّ الآخرين كذلك، حبّ عائليّ وأصدقائي وكلّ الذين نجيحوا، بحضورهم ودفنهم ودعمهم، في طرد الأشباح.

En3aM  
www.rgwlty.com

عائلة موجودة، قويّة دائماً، حاضرة دائماً، وحتى إذا كنّا موزّعين اليوم في أركان الدنيا الأربعة، فإنّ العلاقة الدائمة التي نُسجتْ باخُن تفيدنا كملاط يشدّنا إلى بعضنا. نحن نشبه بعض الشيء أغصان الشجرة الواحدة، ملتصمة إلى الأبد حول جذع هو هويتنا، مع أنّه محمّل بالألام. لو أننا كنّا قد افترقنا إسان الستين السوداء، لما كان أحدٌ من بيننا قد نجّا.

منذ إطلاقنا عام 1991، صارت والدتي، بصير لا حدود له (السجن مدرسة جيّدة للصبر) لتؤمّن لنا حقاً في العيش قدر المستطاع مرفوعي الرأس. منحنا القوّة على مواصلة الصمود. ماذا جرى لمواطننا؟ تطايرت المستندات القانونية هباءً منشوراً حينما أمر أمير المؤمنين بتجريف منزلنا، معتقداً بأنّه يبيّث بذلك حتى ذكراً. إنّ والدتي تدير صراعها من أجلنا أكثر ممّا يكون من أجل نفسها. دائماً، نحن السبب الوحيد لوجود هذه المرأة التي توقفت حياتها في سنّ السادسة والثلاثين، دائماً، حملتنا بلا

مساعدة من أحد، نحن الذين دخلنا إلى الجحيم في عمر مبكر للغاية، والذين سعت لأن تمنحهم طفولة. الآن، تعيش تلك التي ستبقى في نظر العالم أرملة أوفقيير بين باريس ومراكش. عمرها 69 عاماً، عمر التنفس الجهد، أخيراً. أعرف أنها أخذت فرصة الحياة؛ لا أحد استحق ذلك بقدر ما استحقته هي.

تزوجت مريم، وتعيش في باريس كامرأة حرة، ولكنها لا تزال تحمل آثار السجن. وبسبب هذه الصحة العلية، أصبحت نوال، ابنتها، ابنتي أيضاً... ولكن في كفاح حقيقي، لم تستسلم مريم: بعد الحصول على إجازة في علم النفس التربوي (اسم بريري للإشارة إلى الأخصائيين في مجال الطفولة في وضع عسير) أعرف أنها تعدّ مجموعة صور مزينة بقصصها. بالنسبة لي، تبقى تحفتها هي نوال...

يبلغ رؤوف 47 عاماً... وهو أب لطفلة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها، ويصعب علي تصديق ذلك. لو لم يكن اللقب رثاءً، للقبته بمنطق العائلة. إنه عقل أكثر من مفكر نال الشهادات، ولا زال يحضر للدكتوراه، ونشر في عام 2003، كتاباً متميزاً: الضيوف، يعود فيه إلى جذور محنتنا. أنا معجبة بأخي، وهذه القوة المتميزة التي أتاحت له ألا يروي غليله أبداً من المعرفة، هناك حيث تُشَفَّ كل شيء آخر.

إذا كنت حرة اليوم، فهذا أيضاً وخاصة بفضل ماريّا، التي لا تحمل عبثاً اسم قديسة. بفضل فرارها في عام 1996، وبفضل الضجة التي أجادت إثارتها لدى وصولها إلى فرنسا، رُفِعَت الأغلال أخيراً. لقد هزّت البشر الأحرار، الذين، خرجوا،

فجأة، من غفلتهم... لولاها، لكنك بلا شرك لا أزال طيفاً بنصف حرية، بلا أسرة وبلا عمل، أعيش إلى الكرم الزهيد جلاّدي.

أختي أمّ لصبي في الثالثة عشرة، ميريل، ابن أختي الأول...، وتدير بمحاسة داراً للإنتاج السمائي. نادراً ما تتحدث ماريّا عن نفسها - لا تحبّ التبجح

لن تكون صورة العائلة كاملة دون ابنتي الصغيرة، سَكْنِيَّة، التي استعادت سريعاً سنوات الأخر بتقديرها للبيكالوريا في 96، ومطابقتها بدراسات في لانون قلماً كانت توافقها. التصوير والرسم والنحت، سنتم في كل شيء عدا ما يغذي البشر الأحرار، العمل في مكتب لا هواء. في البداية، تاحت لبعض الوقت في الأعمال الصغيرة (سيلة للعيش قبل أن تجد نفسها: الآن هي منصرفة إلى الغناء، بهنية حقيقية. أحب نصوصها وصوتها وحضورها، ولست الوهبة في هذا ما دام النقد متحمساً لها؛ لدرجة أنه كتب بأن هن شيء من بياف\* في هذه المرأة الشابة.

أخيراً، عبد اللطيف، وهو أكثر من ابني بيننا من مشقة ولادتنا من جديد: ربما لأن حياة بدأت في سن الثالثة! في قاع سجن هي عبء حتى نحن لا ندرّكه. لقد احتفظ من السجن بشغف لا حدود له بالسماة المرقعة، وتعلل طويلاً بالأمل في أن يصبح طياراً. لقد طار، أثنا بعض التدريبات،

\* إنيث بياف، المغنية الفرنسية الشهيرة، 1915-1963، التي أدّاهها بالقوة والانفعال المترجم.

ولكن شُحَّ المال ، منعه حينها من تحقيق حلمه. أسأل الله أن يجد الهدوء والاتزان وأخيراً الراحة، لأنني أعرف حجم الألم الذي ينوء به، النحل الذي قضيتُ سنين كثيرة كي أخلصه.

كيف يمكن نسيان الغصن الذي انضمَّ بميله إرادته إلى ذلك الجذع الذي لفظه الجميع كما لو أنه كان مَيْتاً؟ حلماً، التي تركتها بحزن ولكنها ظَلَّت على الدوام في قلوبنا وعمازيرنا، ابنة عمِّ أمِّي التي لحقت بنا إلى أعماق الجحيم، وعاشت هامساً وسط العائلة، وناداهم الأطفال جَدِّي. اعتقد أنها وصلت السعادة... ربما ليس تهاون البشر الأحرار، وإنما السلام الذي هو لنا بمثابة كثرٍ حقيقي.

حبُّ إيريك هو نسغ حياتي. وحبُّ عائلي، هو الملاط الذي أعاني على أن أبقى كاملةً. أمّا الأصدقاء، فقد دخلوا تدريجياً في حياتي، وقد علّمني دون إظهار ذلك أن أتألف مع العالم. لقد بات بعيداً زمن الأكلة الكبار حيث كنتُ أسأل، مشلولة، كيف، بل ولماذا، المشاركة في الأحاديث. السيد، أصدقائي هم متنفسي، الذين لولاهم لكان العالم لا يزال أمّياً قاحلة، حيث كنتُ لأذكور على نفسي تحت ظل إيريك. لم يعد الإنسان الحرَّ مجهولاً: إنه يُدعى ناتالي، موريس، ناديا، ماريا، سوزي، وليد، توي، سيرج، أكسيل، كوزيما، بيت، ميريس، كلوديا، بياتريس، الزايت، لوران، فيليب، فريجيني، ويليام، دانيال، بريجيت ودانيال، فريد، باي، أوسكار، كارول، ريماء، كريستيان، فانيسا، إيفان، ماتيو... طبعاً دون أن أنسى أصدقاء السجينة بين فرنسا والمغرب ولبنان وأستراليا وبلدان أخرى

لم أعد الدكتور ليفنكستون في بلاد الأقزام. لم أعد كائن مرّخي. لم أعد تلك التي كان العالم بالنسبة لها يختصر في عائلة صغيرة مخفية في قاع حفرة. تعلمتُ أن أحبُّ وأن أُحِبُّ، وأن أنفتح على الآخر. بقليل من الخبرة، لم يعد الإنسان الحرّ، الذي كان يُغزني أشدَّ الفزع، بذلك الرعب. بل على العكس، إنه جوهري أحياناً لتوازي. وأنا لتوازنه، لأنني في النهاية قادرة على مبادلة من يمنحني الحب.



181. ..... الحب في الأربعين.
207. ..... الحلم الأمريكي.
221. ..... موت ملك.
229. ..... الولادة من جديد.
235. ..... التعويض.
245. ..... الفهرس



20 عاماً في سجن...!

لكن رغم ركود ورتابة السجن،  
كُتبت مليكة أوفقيير كتاباً مثيراً للغاية،  
(السجينة) الكتاب الذي هز كل من  
قرأه، وحمل إليها تضامناً غير عادي.

كُتبت في (السجينة) حياة السجن،  
والفرار منه، وتكتب في (الغريبة)  
الرغبة في استعادة الحياة، بكل ما  
تعمله من هجنة، بعد انقطاع دام 20  
عاماً.

En3aM  
[www.rgwity.com](http://www.rgwity.com)

ehda2 ela montada rewity  
wa ela al 3azeeza hind88  
8era2a momte3a lel jamee3 :)



ملیكة أوفقییر

# الضربة

عشرون عاماً من السجن !! عشرون عاماً !!

لقد خرج كتاب السجينة. ولاقى من النجاح وحرارة التواصل ما جعله يتصدر أبرز صحف وواجهات مكتبات العالم. وجعل من ملیكة أوفقییر نجمة في أكبر وأهم محطات التلفزة وفي برامجها الأولى.

لقد كان "السجينة" شهادة مؤثرة عن الألم والظلم، وأيضاً عن البقاء، عن القمع وجشع السلطة، وكذلك عن العبر والرغبة في النسيان من السجن والسجان، وعن الحرية ومحاولة الصفع.

ها هي ملیكة أوفقییر، الحرّة، تواجه مرحلة الخروج مما تركه السجن في الذهن والروح، مما تركته سنوات الغياب عن عيش مجتمع الناس الأحرار.

ومرّة أخرى، بمرأة وكشف، برغبة في عيش الحياة، تكتب عن سجن ما بعد السجينة. عن الناس الذين أحبّتهم، عن الذين ساعدوها في هجئة العودة للحياة كامرأة حرّة.

En3am  
www.en3am.com



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٢٥٧ - ٠٠٩٦١٢٧٢٨٤٧١

توزيع المركز الثقافي العربي

بيروت: ص ب: ١١٣/٥١٥٨  
هاتف: ٠٠٩٦١ ١ ٧٥٥٥٧٧ فاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٤٣٧٠١  
cca\_casa\_bey@yahoo.com